د . صلاح فضل

قلعة « على الشرقاوى » الشعرية

دراســـات

١ - ١ وصل الغرور ببعض النقاد إلى الحد الذى جعل «كولن ولسن» يقول إن تشجيع الكتاب أشبه بوضع السماد فى حديقة تمتلىء بالأعشاب الضارة ، وأحسب أن بعض النقد الذى ينثر حول أشجار إبداعية سامقة يمكن أن يكون بِدَوْره مثل السماد السام ، وإن كانت الأشجار الكبرى لحسن الحظ لا تحترق به ، وإن تصوحت منه بعض أوراقها الوارفة .

وقد أتيحت لى فرصة شائقة لقراءة بعض أعمال شاعر بحرينى خصب هو على الشرقاوى ، الذى أصدر حتى الآن أكثر من عشرة دواوين ولما يتجاوز الأربعين من عمره ، كما أن له تجارب فى كتابة شعر الأطفال ومغازلات أولية للمسرح الشعرى ، تجعلنى أبادر إلى القول بأن التوظيف الناجح لطاقته الشعرية الفذة يكمن على وجه التحديد فى تنمية هذا الولع الدرامى وتحويل قلعته الشعرية ــ المغلقة ــ كما سنرى ــ إلى مسرح مفتوح على هواء الناس الطلق .

وهذه القراءة لبعض ملامحه الشعرية محكومة بظرف خاص له ميزة واضحة ، وعيب فادح ، أما الميزة فهى أنها قراءة زائر عابر ، تريد أن تكون محايدة بريئة ، لا تخضع لإرهاق الذاكرة المحلية ، ولا لضرورات المجاملة والانحياز ودا وعداء ؛ وإذن فهى تدّعى العدل أو تتمناه ، بيد أنها موصولة بهمّ أساسى هو دور النقد فى البحث عن الدلالات بكل الوسائل دون رجم بالغيب ، أو تنبؤ بالمقصد ، ومن ثم فهى تحاول ــ وهى تختبر الجزء ــ ألا تنسى خارطة الأرض الشعرية العربية وما ازدهر فيها من شجر وثمر ، وغابات وصحارى على مر العصور .

غير أنها ــ وهذا عيبها الحاسم ــ قراءة أولى ، ربما تحتاج لمعاودة التأمل والإيضاح ، ومراجعة الأسئلة كى تشير إلى الإجابة الصائبة الجسور .

ولابدّ لى فى البداية من أن أعترف بأمرين مرّين :

أولهما : أننا نجد أنفسنا حبيسى جزر متنائية ، مكانيا وزمانيا ، وأننا بحاجة ملحه إلى زمن للوصل ، ومكان للقيا ، وأن الكتابة ؛ الحرف العربى هو حافة الكون التى يمكن أن نجلس معا عليها ، نتأمل ونتغنى ، ننقد وننشد .

ثانيهما : أن نفرغ من أمر أولى فنسلم بشرعية اختلاف التجارب ، لنحاول الفهم بحب وعمق ، وندافع عن حرية من نخاصمهم الرأى والتقدير ؛ دون أن نفقد اتجاهنا ، أو تسقط من يدنا « البوصلة » ونحن فى عرض المحيط .

وأبادر باعتراف ثالث ــ يعود بنا للموضوع بشكل مباشر ــ وهو دهشتى أمام طاقة شعرية مخيفة ، تذكرت لوصفها كلمات مندور عن محمود حسن إسماعيل بأنه « شاعر وحش » وإن كان على الشرقاوى وحشا مائيا ، ناعما وفاتكا معا ، ولا أحسب أن النقد قد حاول ترويضه ؛ وليس بوسعى أن أبذل هذا المسعى ، لكنى سأقترب منه ، محاذرا بطبيعة الحال ، لأصف قدرا من حركته وطرفا من لونه .

١ - ولعل أبرز ملمح ألح علىّ عند قراءته ، هو شدة التجانس

فى أعماله ، وقد اعتاد النقاد أن يمتدحوا هذا المظهر بوصفه علامة على قدرة الشاعر وبراعته فى خلق عوالمه وصبغها بطابعه الخاص . لكن الجانب السلبى فى التجانس أنه عندما يشتد يمثل عائقا يحول دون بروز الملامح الشعرية بالتجسيد الكافى ؛ إذ يعود إلى العوامل التالية :

١ - تشابه الحالات الشعرية واستواء التجارب داخل الديوان الواحد ، وربما بين عدة دواوين ، مما يحرمه من تفاوت درجات الحرارة واختلاف الفصول ، وتغير المذاق .

٢ - تقارب الألوان التصويرية وائتلاف الدرجات داخل اللون الواحد ، مما يحقق تناغما صحيحا بين الوحدات ؛ لكنه يجعل اللوحة فى مجملها باهتة لا تبعث على الإثارة .

٣ - الانكفاء على المعجم الخاص ، والاكتفاء بالرموز الشخصية ، دون استحضار عوالم أخرى مناهضة على الطرف النقيض من التجربة مما يوّحد الصوت ويطفىء الإيقاع . وقد كان أبو تمام ــ مثلا ــ معجبا بنفسه ، يطيل تأمل مذهبه الشعرى ، وله ملاحظات فذة ، بعضها يتصل بما نحن بصدده فى مشكلة التجانس مثل ما روى عنه :

« أنا مثل قولى :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول »

لا أحسب أن إعجابه بذاته ، ورؤيته لنفسه فى هذا البيت يعودان إلى أن اسمه حبيب ، ولا لأنه كان وفياً لحبِّه الأول ؛ فلسنا نعرف شيئا ذا بال عنه ، وإنما لأنه فتن بفكرة التنقل والثبات معا . هل يمكن أن نلمح فيها مظهرا شعريا أساسيا هو ضرورة التنقل فى التجربة والقصيدة معا ؟ لابد للشاعر من تمثل الأدوار الأخرى والقيام بها حتى يؤدى دوره ، فلو أصرّ على موقفه ، لو ثبت فى مكانه ، دون أن يغير مواقعه ، أو ينتقل إلى مواقع الآخرين لأصبح غير مؤثر . ولعل هذا من أشد الأخطار التى تتهدد المخلصين فى تجاربهم الإبداعية ، لابد له أن يخون طريقته ، أن يخرج عليها ، أن يهوى شيئا آخر يظل مع ذلك وفيا للحب الأول ؛ أن يتحدث مثلا بغير الصورة الشعرية ، أن يتكلم أحيانا بشكل مباشر كما يفعل الناس ، أن يتململ ويتثاءب ويتمطى ، أن يكسل ويعمل فى شعره ، أن يلغو ويهبط حتى نرى حركته فى الصعود ، لكن أن يظل متوترا دائما ، محلقا دائما ، يتكلم بلغة الشعراء المجانين فسوف نحسب أننا وحدنا العقلاء ، ونمضى دون أن نتبعه كما يود .

لقد فرحت للوهلة الأولى ، وكذبت ظنى ، عندما وجدت بعض قصائد على الشرقاوى ، فى شكل كتابتها على الأقل ، تلجأ إلى الحركة السينمائية ، بل وتتخذ اسمها ، مثل قصيدة « سينار يوالدم » ، وقلت : حتى ولو كان دما إلا أنه سيناريو على أية حال . ووجدت لها عناوين مختلفة لأصوات عديدة ، بعضها نشيد من الخارج ، والآخر صراخ فى القلب ، الثالث فى الشارع أو الحارة ، والرابع مربعات تضم كلاما خاصا فى إطار منفصل ، تصورت أن شاعرنا سيجرب أن ينطق باسم غيره ، أن يجسد مواقف وشخوصا ، ويبعث حركة الحياة ويمثل عناصرها ، سيجعلنا نرى الدنيا وهى تفعل فعلتها أمامنا ، لكن تبين لى أنى واهم كقارىء ، وأن مسرح على الشرقاوى باطنى متسق متجانس غير متنقل ، كل الشخوص تقول دون أن تفصح عن خصوصيتها ، الشاعر هو الذى يتكلم أبدا ، بنفس الإيقاع ، بنفس طريقة الترميز المعمّاة ، أحسست أنه قد سخر منى ومن أمثالى من القراء الطموحين ، أو لعله لم يستطع أن يرى سوى عالمه فأعجزنى عن أن أراه بدورى ، لم يستطع أن يضع نفسه فى مكانى فلم يجذبنى إلى مكانه .

٣ - ١ : وإذا كان لا مفر للشاعر من أن يكون خارجيا ، منحرفا ؛ متجاوزا للحس اللغوى والإنسانى العام ، لما يسميه الآخرون « كومان سنس » فإنه لابد له أيضا أن يكون ماكرا وداهية ومؤثرا ، حتى لا يصبح مجرد مغامر منبتّ ، لا أرضا قطع ولا شعرا أبقى ؛ يجمل له أن يحتفظ ببعض جسوره مع هذا الحس العام ، دون أن يدمره كله ، عليه أن يقطع فى مستوى ويتأكد من التواصل على مستويات أخرى ، وعند القراءة الأولى نخشى أن يكون على الشرقاوى قد نسف كل الجسور ، وعندئذ نلجأ إلى التأويل والتخريج والتفلسف حتى نعثر على الدلالة الصحيحة لمشهد شعرى مثل قوله :

« السفلس يجلس فوق أنين الأيام المصلوبة ، يشرب امرأة قالت لا ، ويدخن غليونا من نبع الأكتاف ، ينظفه بأصابع طفل قبل ولادته ، يعلو فى الأجواء دخان الحرق ، ومن فتحات السجن الواسع كالدولار يرى الحسّون الغليون » إن الشاعر يدخل معنا فى رهان التحدى للدلالة المباشرة ، ينسفها كلية ثم يحاول بخبث أن يبنى دلالته الذكية المرهفة غير المباشرة ؛ لكننا نخشى أن تكون متخثرة وشظايا متشيئة ، مثل حالته الشعرية .

وسآخذ من هذا الديوان ذاته شاهدا على شعرية البساطة المباشرة ، على قوة القول الأيديولوجى الصريح وقدرته إلى النفاذ المؤثر إلى أعماق القلب الإنسانى . فى قصيدته ذات العنوان الطويل ــ مثل نفسه الشعرى ــ « المزمور ٢٣ لرحيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المغنين ــ شين » التى يستهلها بطريقة قصصية وشعرية آسرة :

« سادقّ الباب ثلاثا
تعرفنى أمى
وتقول أتى الغائب
يرمى عينيه الشهلاء وراء خطوط الرؤية
يرتفع الحاجب »

يقول الشعر فى مشهد عفوى آخر :

كيف أراجه أيامى
وأعاشرها
والحارة غير الحارة
والبحر الأشهب مدفون فى قاع الكأس
والأصحاب تغير همهمو عن هم الأمس ؟

ولا أحسب أن مناضلا افترق عن أحبابه ، أو مسافرا تغرب عن بلده ، وعاش فى قطيعته ينمو بشكل مخالف لما تركه ، حتى ارتطم بهم عندما عاد إليهم ، فوجدهم آخرين غير من صحبهم فى حلمه ويقظته وأكله الحنين إليهم ، فتمزق وعيه بالحياة ، لا أحسب من مر بمثل هذه التجربة الإنسانية الأليفة إلا مرددا كلمات على الغنائية الدرامية ، الشعرية المتنقلة ، ببساطتها وقوتها وقدرتها على استحضار الخاص فى العام والجمال فى المبذول ؛ لا فى المحال .

١ - ٢ : الإشكالية الثانية ، فى الشعر الحديث عموماً ، وعند على الشرقاوى بصفة خاصة أنه يختزل الفراغ ، يقتل الصمت اللغوى ، يسقط الثرثرة فى الكلام . فتصبح النتيجة لوناً من التكثيف التصويرى ، ينتهى إلى موقف طريف ، شبيه بإدارة الأشرطة الصوتية بسرعة كبيرة ، ولنتابع شاهداً على ذلك من نفس الديوان السابق ، يقول فى قصيدة الطين :

نهر يرمضنى
نهر . . يروضنى
نهر . . إلى الحفلات يدعونى
وقبل البدء يرفضنى
فى ظلمة التنوّر يقضى يومه
ويغيّر الأشكال
يجمعها ويسكنها
ويمحو ثم ينقش . ثم يمحو . ثم
للّحظات لون زنازن التوقيف
للأيام لون سفائن تعبت من التجديف . . الخ

ولابد أن نعجب بالطاقة الشعرية المتفجرة فى الأبيات ، لكننا كى ندرك كثافة الصور السريعة المتتالية . سنتوقف فحسب عند بيت واحد ، لأنه يذكرنا بإيقاعه اللاهث صورة شعرية أثيرة مما تذوقه النقاد المحدثون من شعرنا القديم ، وهى أبيات ذى الرّمة :

عشية مالى حيلة غير أننى
بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمحوا الخطَّ ثم أعيده
بكفى والغربان فى الدار وُقّع

ومع أننا ندرك أن هناك فرقا جوهريا فى التجربة ومستوى الأداء الشعرى لكن ضبط الإيقاع فى هذا الأداء قد جعلنا نتابع ذا الرمة وأوشكت أن تفلت من بين أصابعنا حرارة التجربة عند الشاعر الحديث الذى يتعلل بالسرعة ويخسر من جراء ذلك أمراً هاما هو الفراغ الحيوى الذى يتحرك فيه والبطء الضرورى اللازم كى نتابعه فى سعيه الشعرى الحثيث .

وكنت أتصور أن خير ضمان لمتابعة إيقاع الحياة المنتظم فى الشعر أن يرتبط الشاعر بالطبيعة وينصت إليها ويتحدث بلغتها . لذلك عندما قرأت عنوان مجموعة « للعناصر شهادتها » حذفت أداة العطف التالية لها « أو » وكلمة المذبحة ممارسة للاختيار اللغوى ، وتمثلت القصائد الواردة فيها من الشعر الذى تتكلمه الأرض بلغتها ، ولابد لها أن تنطق هنا العربية ، على النمط المشابه لما فعله « نيرودا » مثلا فى أناشيده الفطرية وأغانيه العذبة التى لم تحل شحنتها الأيديولوجية المبسوطة دون وصولها لجماهير القراء والمثقفين معا ، عندما يتحدث مثلا إلى الهواء فيحذره من أن يأتى رجل طويل فى سيارة فارهة ويقرر تعليبه ، ويحرضه على أن يطير قبعته ويكشف سترته ، إلى غير ذلك من الصور التى لا تستعصى على أية لغة أو أى إنسان . لكنى لم أكد أمضى فى قراءة العناصر الشرقاوية حتى عدت إلى الإحساس بالدوار إزاء الشريط الصوتى المسجل بسرعة مغايرة إذ يقول مثلا :

الأفق غراب منطلق والشارع شهوة رقصته
يعلو فوق عظام اليوم
يحط على أغصان الجثث المزروعة فى موج الدم
الشوق خراب مندفق وعذاب يحمل موج الهم
يتعثر فى خطوته
يتناثر بين يدىّ ولحيته
وأنا
هذا الودج الناتىء مكسور فى لحمته
أتليل حين يضاء قميص اليوم الميت بالبارود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تتحول أغصانى
وسمائى بين يدىّ
اشتقت فضاق القلب على الصدر الواسع
وانكشط الجلد ، انفرط العقد
وضاق فضاء الضاد ودقّ العود

ولابد لمثل هذا النهج الشعرى المزدحم المكثف أن يكتظ بالصور فى مساحة صغيرة متراكبة ويتركنا مبهورين بقدرة الشاعر على التكديس والإحالة ، بالرغم من تملكه لإمكانات غنائية فذة محبطة عمداً ، فلقد كانت لديه ــ ولدينا بحق السماء ــ شهوة الرقص ، حتى لو كان ذلك فى « الشارع الغربى » ، كما كانت لدينا رغبة فى متابعة أشواقه المعذبة قبل أن تطول لحيتها ويتليّل بقميص البارود وتتناثر فى مقطوعته الشظايا فلا نعرف أيها نصطاد . ومهما تعلل الشاعر بكلمات « النفّرى » « عندما تتسع الرؤيا تضيق العبارة » فإن ضبط المسافة بين الرؤيا والعبارة ، إن كانت هناك مسافة أصلا ، هو جوهر العمل الشعرى ، ولا يمكن أن يكون فى ذلك تبرير لضغط العبارات فى أقراص صغيرة مثل الأغذية المصطنعة ، فلكل عبارة أليافها وبذورها ولحمها وماؤها وملمسها الناعم أو الخشن ولونها الطبيعى ، وليس الشعر المنوط به مهمة اكتشاف طزاجتها وسخونتها وعفويتها هو الموكل باعتصارها وقسرها وحشرها فى جمل مرصوصة . وكل ما نستطيع أن ننتهى إليه هنا هو أن العناصر الفطرية لم تسكن مواقعها الطبيعية ، وأن الحياة لم تعثر فى هذا الشعر على إيقاعها الصحيح ، وأن الرؤية التى قصد الشاعر إلى تقديمها استحالت إلى أصوات حادة كتلك التى تنبعث من شريط لم يُدَر بالرؤية الكافية للمراوحة بين لغة الناس وفراغ الأشياء حفاظا على قرار الصوت وجماليات التلقى .

٢ - ٢ : كان « جان كوهين » على حق عندما تصور لغة الشعر فى بنيتها الأساسية المخالفة للغة التواصل اليومى باعتبار أن الفرق بينهما يكمن فى شكل الحركة واتجاهها ، لا فى طبيعتها ، فبينما تعمد لغة الحياة إلى عقد صلة مباشرة بين طرفين متقابلين ، تنطلق من المتكلم لتقصد المخاطب ، فى خط مستقيم متصل ، ينجح كلما تفادى الالتواءات واختصر الطريق فى خط واحد مباشر ، فإن لغة الشعر لابد لها من شكل حركى آخر هو على وجه التحديد الشكل الدائرى الذى يبدأ من نقطة ما ثم لا يلبث أن يفارقها ليتم رحلة طويلة لا يلبث بعدها أن يعود إلى نقطة البداية ، بعد أن يكون قد التف حول الأشياء والأشخاص ليغمرهم ويحتضنهم ويدخلهم فى عالمه عبر مجموعة من أنساق الترجيع الموسيقى والدلالى والتصويرى ، فليس من الضرورى إذن فى لغة الشعر أن تخترق الناس دائما ، لكن حسبها أن تلفهم بعباءتها وتدعهم يتنسمون أريجها وهم محوطون بها . بيد أن تأملى لبعض نماذج الشعر الحديث ، ومنها كثير من قصائد شاعرنا ، تجعلنى أميل إلى إضافة نموذج ثالث مازلنا بحاجة إلى تنمية وعينا النقدى به لاختيار مدى قيامه بوظائف الشعر الجمالية والإنسانية ، عندما تصبح القصيدة مجرد نقطة لها استدارتها بالفعل لكن جوفها مطموس ، لا قلب لها يحتوى المتلقى ، تدور حول نفسها دون أن تتسع له ، وعندئذ لابد لنا من تحليل طبيعة حركتها اللغوية والرمزية . هل تعمد القصيدة الحديثة إلى تكوين بعد ثالث بقوة الضغط الإشارى مما يجعلها تحفر فى مركز الدائرة ؛ تنغرس فى لحم المتلقى ، تثقب وعيه بالحياة دون أن تقيم تصورا معقولا يعيه ؟ وأضرب مثلا لذلك بقصيدة « الكوخ » إذ يقول جاعلا العنوان قطعة ملتحمة بالأبيات :

مفتوح
للأسئلة الأنثى
وحنان الأبيض
مفتوح
كالرائحة الزرقاء
تغطّى هجس البحّار
يحدّق فى الشارع
يسقى الحورة حرفا يشبه أجنحة اللوز ينادى الموج ليلعب فى الساحات المرفوعة فوق سرير الومض يغرّد كالتفاحة فى التجريح .
ولا يتوقف عند نهايات المعنى
حارب ظل المبنى
حارب نوم يديه وصمت الريح
ومازال يحارب داخلنا

نحن هنا أمام طاقة شعرية مشعة ، لكن المتلقى لا يستطيع الاستجابة لحركتها . لايعرف لها اتجاها ، إنها لا تنطلق من نقطة تنميها وتدرجها فى نسق ، لقد قطعت اللغة أشواطا بعيدة كى تختزل طراوة الأشياء وتسميها وتجمدها بغية التحول إلى أداة ملائمة للتوصيل تحقق حدا أدنى من تفاتح الكائنات وتفاهم البشر ، وكان فيما اختزلته ورمّزته بطريقتها القدرات الموسيقية التعبيرية ، ودجنت الاشارات . ويأتى الشعراء ليرتدوا مرة أخرى بهذه اللغة إلى رحم الموسيقى ، ليتنازلوا طوعاً عن هذا الميراث العريق فى التواصل بحثا عن إرث آخر ، وبينما يجتهد شراح الموسيقى فى ترجمة حركاتها إلى كلمات والتماس مقابلات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لغوية لما تزخر به من عواطف ودلالات يجد ناقد الشعر نفسه أمام مفارقة أليمه ، فشاعره يكسر عمدا قانون التواصل فى اللغة ويهرب إلى حضن اللامعنى مستخدما نفس أداة التوصيل . كيف يستطيع المتلقى أن يتبع المبدع وهو لا يتحرك فى مساحة حيوية تشكل محيطا يتسع لهما معا ؟ إنه يظل واقفا فى مكانه يدق الأرض بقدميه وهو يتأمل فوهة البئر المظلم الذى حفره أمامه الشعر دون أن يرى فيه شيئاً .

٣ - ٢ : يبدو أن عدوى الشعر تنتقل بالضرورة إلى القراء فتجعلهم أحيانا يفكرون بالصور ويعبرون بالتشبيهات ، ولقد حاولت خلال معايشتى لأشعار على الشرقاوى أن أطرد عن خاطرى صورة ملحّة ، دون أن أنجح فى ذلك ، خشية أن تكون خادعة ، لكنى أعرضها كمجرد فرض لا أصرّ عليه ولا أتمسك به ، ومن يدرى لعله يفسر لى شيئا مما أعانيه معه .

تمثلت لى شاعريته كمارد هائل ، لكنه مقيد سجين ، يتمطى دون أن ينطلق يستعرض عضلاته دون أن يقوم بفعل خارق بأن يبنى من اللغة عالما موضوعيا تتحقق فيه طاقته الأسطورية . وعندما قرأت مجموعته الهامة « رؤيا الفتوح » شعرت كأنه على وشك أن يفتح كنزا ثمينا ويستثمره كأنجح ما يكون ، لكنه خيب ظنى ، قبع فى تلافيف الكلمات يصارع نفسه ، رغب عن بناء هذا العالم الموضوعى الكبير ، لنقرأه مثلا وهو يقول فى « جب ٦ » :

أجتثُّ من الجدران المهمورة بالماء غبار الماء
ها حصحص فى شفتيه الظامئة العينين نهار الإعياء
يرفض ألوان الحزن القابع فى الطيف
يفرش فى الكيف البحرى له بيتا
يكسر بالحب الحامل عبء الحلم زمان السيف
جدران البئر تحاصره
ووحيدا كان .

ولكى أتبين قدرا من قوة الشاعرية فى هذه المقطوعة لجأت إلى إجراء غريب أختبر فيه نوعية جمالها ، فيما عدا القيمة الإيقاعية ، وهو أننى أعمد إلى ترجمتها بدقة فائقة لأستوضح ماذا يبقى منها بعد رنين الكلمات من قوة الخيال وقدرة الإثارة وعمق الشاعرية ، وكلما تعثرت الترجمة وارتبكت أدركت أن هنا منطقة حساسة تدعو للتأمل ، ولعل عجز المترجم هو سبب القصور فى الانتقال الشعرى . ولقد كشفت لى الترجمة فى هذه المقطوعة عن ثلاث زوائد وتناقض أخير ، ومن السهل أن أفتعل تعلات لتبرير كل ذلك ، لكنى سأعدده :

١ - كلمة « العينين » مقحمة فى البيت الثانى وأولى به أن يكون :

ها حصحص فى شفتيه الظامئة نهار الإعياء

٢ - من الممكن استبدال كلمة « كيف » فى البيت الرابع لتصبح :

يفرش فى الكهف البحرى له بيتا .

٣ - تنتقل كلمات « الحامل عبء » البيت الخامس ، فإذا أسقطناها أصبح :

يكسر بالحب الحلم زمان السيف .

٤ - أما التناقض فيقدم بين « يرفض ألوان الحزن » و « وحيدا كان » ولا أحسبه يتحول كثيرا إذا قال « يرمق ألوان الحزن القابع فى الطيف » أعرف أن مثل هذه المماحكات اللفظية مما يترفع عنه عادة النقد الحديث ، لكنى لجأت إليها للتدليل على أمرين :

الأول : أن شاعرنا لا يراجع كثيرا مادته حتى يلتئم نسيجها التصويرى بشكل يجعل تلقيها شائقا ممتعا ، أو ممكنا فى بعض الحالات فحسب . فكثير من إحالاته وإغرابه لا يستعصيان على الشفاء إن رغب فيه . أما الأمر الآخر وهو الجوهرى فهى أن هذه الأبيات تقيم علاقة متوترة بين المستوى الاستبدالى الشعرى والمستوى القصصى الموضوعى ، لكنها لا تلتئم فى بنية كلية تستثمر بنجاح الرصيد الأسطورى والدينى الذى تتكىء عليه ، لا تقوى مع غيرها من المقطوعات على تقديم يوسف جديد لنا بكل ما تهبط عليه من أحلام ورموز وأحداث ومواقف ، لأن المقطعات الغنائية ليست بالضبط التنمية المثلى للقصة القرآنية ، ولو استطاع الشاعر مثلا أن يبنى أمثولة ليوسف فى السجن ويقف عنده ليتذكر ماضيه ويستشرف مستقبله ويرى العالم من خلال ما وقع له من عذر وما يبغيه من رضاء وعدل لقدم لنا عملا شعريا جديرا بالدخول فى تاريخ الأدب العربى الحديث وصالحا للترجمة إلى كل اللغات .

لكن الذى حال دون ذلك فى تقديرى أمر غريب وبسيط ، هو أنه شاعر عصامى ، فبالرغم من أنه طويل النفس ، له أسلوبه وطريقته فى بناء الأخيلة وتجسيد التجارب ، فإننا لا نستطيع تحديد انتمائه الفنى ، لا نكاد نعثر على آبائه الشعريين وأجداده الحقيقيين . ولعل بعضنا يحسب هذه ميزة ؛ عدم الاتكاء على عروق شعرية سابقة ، إلا أنها ضارة به ؛ إذ أن التجارب السابقة ، المحلية والعالمية ، عندما يتم تمثلها بعمق شديد تصبح هى الفضاء الذى يتحرك فيه الفنان ؛ المكان الذى يقيم على أنقاضه أبنيته ، العمود الذى يستند إليه ، ومن لا يقوم فى مكان ، وتتحدد حوله الجهات السّت ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا الأربع فحسب ، مهدد بأن يفقد وزنه وينعدم اتجاهه ويبقى على فراغ . الآخرون هم علاماتنا ، نقيس إنجازاتنا بهم ، نعرف ارتفاعنا وهبوطنا بالنسبة لهم ، نحافظ على مستوانا فى ضوئهم أما أن نحذفهم ولا ننادم أحدا منهم فإننا لا نستحضر بذلك مرجعية محلية أو عالمية تستند إليها تجارب وتهتدى بنجومها مسيرتنا .

٤ - ٢ : تضم « مشاغل النورس الصغير » ثمانى قصائد فحسب ، بينما تتألف المجموعة الأحدث وهى « ذاكرة المواقد » ــ على حجمها الأصغر ، من اثنتين وستين قصيدة ، لكن ليس هناك فرق جوهرى بينهما فى البنية الداخلية ، انثنى أيسر فى القراءة بفضل العناوين التى ترشد المتلقى للعناصر التفصيلية للتجربة وتبرز له كلمات يتعلق بها وعيه ويدور حولها اجتراره ، بينما كلاهما قصيدة طويلة واحدة مجزأة إلى مقاطع ، أما هيكلها فلا يتراءى للقارىء للوهلة الأولى ، فإذا أمعن فى محاولة اكتشافه عاقته الصعوبات التالية :

١ - ضعف الخيط الدرامى المتصاعد فى تنام واضح ، أو المتجمع حول بؤرة تصب فيها عناصر الرموز والأحداث ، وتتجلى متجسدة فى حركات تتخالف وتأتلف ، لكنها تؤدى إلى لون من الإشباع العقلى والوجدانى .

٢ - افتقاد الشفافية الكافية فى التراسل بين التجربة المعيشة على الصعيد الفردى أو الجماعى ، مما يموّه طبيعة المرجعية التى تضمن للنسيج الشعرى ألا يستهلك فى تعقيداته الداخلية .

٣ - شحوب الذاكرة الإبداعية الموصولة بكبار شعراء العربية وغيرهم ، بما خلقوا من أساطير وانتجوا من لحون وشخوص ، تؤنس المتلقى وتملأ النص ، وتضبط الإيقاع الداخلى للتجربة داخل المنظومة العامة .

ونتيجه لذلك فإن القصيدة الأخيرة عند على الشرقاوى مشحونة بما يمكن أن نطلق عليه « الدلالة المرجأة » ؛ إذ أنها تبدو للمتلقى كنص شعرى من الطراز الأول ، لا يمارى فى ذلك أحد ، تتجلى كتلتها اللغوية فى هيكل مصمت ، نلمح استداراتها وارتفاعاتها ومساحتها الكلية ، نحوم حولها من الخارج ونتلصص على أسرارها بيسر ، فهى تثبت فينا الوجل والرهبة والاحترام ، لكن علينا أن نبتكر أسطورتها ، أن نتخيل لون الحياة فيها .

ومن ثم فهى بحاجة إلى قارىء خاص يتصدى لاعادة تكوين النظام الاشارى الجديد الذى تخضع له هذه القصيدة ، وهو نظام مثل لغة الصم والبكم ، يرسل إشارات معقدة لتقول أشياء ليست على وجه التحديد مماثلة لما تقوله اللغة العادية لكنها ليست مخالفة تماما لها ، لكن هذا النظام يترك وراءه عمدا الأشياء التالية :

- جماهير القراء العاديين ، فهو يودعهم عند باب قلعته ، فلا مكان لهم فى هذا المنتدى الفنى الرفيع الذى لم يؤهلوا لدخوله ؛

- فظاظة الرسالة الأيديولوجية المباشرة ، فالفنان يؤمن بالحياة والإنسان ، لكنه لا يطيق عرقهم ولا يحترم لغتهم ، ولا يريد أن يتحمل عنهم عبء التعبير عما ينبغى لهم قوله دفاعا عن حقوقهم ، لقد اعتزل نظمهم التعبيرية ، وإن كان من الحصانة والذكاء بحيث ينثر الرموز المتبلورة مما يلخص أهدافهم ويعلقها كعملات ثمينة على رقعة لوحاته المخملية الموزعة بتنسيق جميل داخل جدران قلعته المتأبية .

كما يودع فى نهاية الأمر تاريخ الشعر العربى بكل ما حفل به من غنائية وخطابية وبراءة .

والشاعر واثق من أن هذا النظام الإشارى الجديد له عرافون من النقاد والقراء ، يتنبأون بدلالاته المرجأة ، ويجمعون شظاياه المبعثرة ، ويجدون لذة وشغفا فى ملء هياكله بالأساطير الجديدة حينا ، والمعتقة حينا آخر ، كل يصب تجربته فيه ويمارس هوايته فى المشاركة الابداعية فى قراءته .

بيد أن هناك ملاحظة أخيرة لابد من التروى عندها ؛ وهى أن هذا النوع من القلاع يمثل الطليعة المتقدمة التى تؤسس عادة للتطور الفنى ، وتشرع نهج المستقبل ، وتستكشف سبل التجريب . وفيها ــ على وجه الخصوص ــ لا فى النماذج الميسورة ، تنضج أبرز الانجازات التقنية ، وتستحضر أدوات الأداء المتميز . ولنقل إنها تقف عند حافة الماضى وشاطىء الغد ، وأن قلعة شاعرنا يمكن لها أن تُعَدَ بلون من إعادة التوظيف إلى مسرح مكشوف لتستثمر فيه مشروعه الطموحة لنوع من الخطاب الشعرى لا يتكلس عند الصور التقليدية الأليفة ، بل يأخذ فى اعتباره جمهورا جديدا فنيا ذكيا ، يشاهد الفنون المحدثة ، ويتفاعل معها ، ويبغى من الشعر شيئاً غير ما كان يؤديه من قبل ، يبغى أن يجد نفسه ، ويعثر على رؤيته وقد تم التقاطها فى نبضها المتلاحق وهى تتمركز حول نسق قيمى لم يفقد أهميته المتجددة فى حياة الإنسان ، وهو ينشد للحرية والحب والجمال .

القاهرة : دكتور صلاح فضل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا ماكان والقـصـة كـلوحـة مـتـفـجـرة بـالحـركـة

د . صـبـرى حـافـظ

لا يسعنى إلا البداية بالتعبير عن غبطتى بصدور هذه المجموعة القصصية الجديدة لواحد من أبرز كتاب الستينات ومن أرهفهم موهبة ومن أكثرهم عزوفا عن الأضواء وإعراضا عن المكاسب الاجتماعية الموقوتة . وهى غبطة مزدوجة لأن هذه المجموعة تمثل عودة مزدوجة . عودة محمد البساطى نفسه إلى مصر بعد أن اغترب عنها لست سنوات ، ثم عودة حضوره الأدبى بعد أن غاب صوته عنا لعشر سنوات منذ أن صدرت روايتاه الجميلتان (المقهى الزجاجى) و(الأيام الصعبة) عام ١٩٧٩ . صحيح أن هذا الغياب لم يؤثر على مكانة البساطى المتميزة فى واقع الأدب المصرى الحديث ، أو الحداثى ، أو أدب الحساسية الجديدة مهما تباينت المسميات . لأن البساطى وطد مكانته الأدبية كواحد من أبرز كتاب جيل الستينات من خلال مجموعة من الأعمال المتميزة فى القصة منذ مجموعته الأولى (الكبار والصغار) ١٩٦٧ ، وعبر مجموعتيه التاليتين (حديث من الطابق الثالث) ١٩٧٠ ، و(أحلام رجال قصار العمر) ١٩٧٩ ، كما استطاع أن يحفر لنفسه مكانا فريدا فى الرواية كذلك بروايته (التاجر والنقاش) وروايتيه القصيرتين (المقهى الزجاجى والأيام الصعبة) . وتؤكد هذه المجموعة القصصية الجديدة (هذا ما كان) أن البساطى لا يزال يغامر بالقصة فى بقاع جديدة ، وأن صوته المتميز فيها لم يعد صوتا مكرورا يجتر ما فات ، ولكنه صوت جسور يغامر دائما ، برغم هدوء كاتبه الظاهرى ، فى البقاع البكر والمناطق المحفوفة بالتوترات والمخاطر .

فعالم هذه المجموعة القصصية الجديدة ، يختلف كثيرا من حيث المفردات وأنساق العلاقات ، وطبيعة الرؤية عن عالم المجموعات السابقة برغم وجود بعض أواصر القربى وصلات الرحم . فقد وهنت علاقة هذا العالم الجديد بتلك التفاصيل الواقعية الدقيقة التى نجدها فى كثير من قصص (الكبار والصغار) و(حديث من الطابق الثالث) . وإن ظل الكاتب مشغولا بعدد من قضايا مجموعته الأولى وخاصة قضية القهر التى افتتح بها أولى أقاصيصها وهى « مشوار قصير » . كما أن هناك أكثر من وشيجة بين عالم المجموعة الجديدة وبين (أحلام رجال قصار العمر) تلك الأحلام البسيطة العصية المستباحة ، وكذلك بين قصة هذه المجموعة الطويلة « القطار الملكى » وبين المناخات التى تخلقت فيها روايتيه القصيرتين (المقهى الزجاجى والأيام الصعبة) . وبرغم تلك الوشائج فإن منهج التعبير عن الرؤية المتقاربة موقفيا قد انتابته هنا مجموعة من التغيرات الأساسية . فلم تعد القصة نوعا من المتذكر والمستعاد من طوايا الذاكرة الفردية حينا أو الجمعية حينا آخر ، وإنما دخلت فى مناطق جديدة من المتخيل الذى يتلبس رداء الواقعى أو المرئى . وتطرح هذه المجموعة القصصية الجديدة كذلك عددا من القضايا الهامة حول متغيرات القصة العربية الحديثة فى مصر بالرغم من أن هذه المجموعة القصصية قد صدرت متأخرة عن موعدها بعقد كامل . فقد كتبت معظم قصصها فى السنوات

* هذا ما كان : محمد البساطى ـ مختارات نصول ١٩٨٨

الأخيرة من السبعينات وفى مطالع الثمانينات . لكن ظروف كاتبها دفعته إلى العمل بعيدا عن الوطن لعدة سنوات فتأخر بذلك صدورها . ومع ذلك لم يفقدها هذا التأخير شيئا من تفردها و قدرتها على التأثير . لأن قصص هذه المجموعة لا تتعامل مع العرضى أو الراهن ، وإنما تهتم بالكشف عن الجوهرى الثاوى خلف التبديات العادية .

فلم تعد القصة عند البساطى حكاية تحكى لنا حدثا ، أو تروى لنا حدوتة مرتبطة بزمن كتابتها أو لحظة قراءتها . وإنما أصبحت أقرب ما تكون إلى اللوحة التشكيلية المتفجرة بالحركة ، المتوترة بالحوار بين جزئياتها ، المفصحة عن رؤاها عبر العلاقات التكوينية بين شخوصها . إنها لوحة تتعامل بحذق ومهارة مع الألوان والظلال ، مع الضوء والظلمة . لا ألوان الأشياء الطبيعية وحدها وإنما ألوان الانفعالات والتواريخ واللحظات الانسانية كذلك . فالصوت والنبرة والنغمة من العناصر الفاعلة فى هذه المجموعة الجديدة . لأن هم المجموعة هو الكشف من خلال المرئى والمحسوس عن اللامرئى ، وعما لا يدرك كنهه بسهولة . لأن هذه القصص تطمح إلى تأسيس علاقتها الحوارية أو الجدلية مع الواقع عن طريق تأكيد استقلالية منطقها الداخلى عن منطقه . وحتى تحقق تلك القصص ذلك فإنها تركز اهتمامها على خلق المناخ العام الذى تدور فيه القصة ، وهناك مناخ عام يلف القصص جميعا بلمسة من الحزن الرقراق الشفيف الذى يجعل القصص جميعا ــ باستثناء « التوت البرى » ــ خالية من أى أثر للفرح ومثقلة بمناخ مبهظ من التناقضات الثقيلة التى خيمت على الواقع المصرى فى زمن كتابتها : عقد السبعينات الكئيب .

وإذا كان هناك من خيط يجمع أقاصيص هذه المجموعة برغم تفرد كل منها فإنه هو الرغبة العارمة فى التعرف على آليات القهر المراوغة والسارية فى مسارب الحياة اليومية ، والتى أحسنت التخفى حتى أوشكنا لا على قبولها فحسب ، وإنما على المشاركة فى تكريسها كذلك . إذ تكشف لنا أولى قصص المجموعة« الطفل » عن كيفية تسلل الشراسة بهدوء محبب إلى حياة الانسان العادى . وكيف يبحث لها بنفسه عن مبررات ويحاول رؤية الجوانب الايجابية فيها . وكيف أنها تنبثق منا فى بداية الأمر ثم ما تلبث أن تنقلب ضدنا دون أن ندرى . فقد كان الإعداد لمجىء الطفل ينطوى على طقس عادى غريب يكرس انفصاله عن والديه بذلك الديكور الأجنبى الذى ينبو برغم جماله الخارجى البادى عن طبيعة المكان ، صحيح أن هذا الديكور الغريب وثيق العلاقة بالطبيعة وبمجموعة من العناصر المفتقدة فى الواقع المعاش ، وكأن القصة تحمل فى تضاعيفها مرآة سلبية يرى فيها الواقع نقيضه ، لكن غربة هذا الديكور تمهد قطعا لغرابة الحدث فى القصة . وكيف أخذ شكل الطفل فى التغير كل يوم . فكل يوم يمر تكتسب فيه شراسة الطفل أسلحة جديدة من الأظافر وحتى الأسنان . وكان الحوار معه من جانب واحد إيذانا بسيادة منطق التبرير الذى يمهد للإذعان . « لن يكون مثلى ، على الأقل سيعرف كيف يأخذ حقه » هذا الأب الذى اعتاد على إهدار حقه لا ينتبه إلى أنه يهدر حقه فى أن يكون آمنا مرتاحا فى بيته . وفى هذه القصة يكشف لنا البساطى عن واحدة من عناصر البنية القصصية عنده ، وهى الولع بالكشف عن ازدواجية الدلالة فى كل جزئية من الجزئيات ، حيث نجد أن مناداة الطفل فى تدريبه على المشى « خطوة أخرى » تنطوى على طلب لخطوة أخرى لا فى مدارج السير ، وإنما فى مراقى الشراسة كذلك ، وتنطوى هذه القصة فى بعد آخر من أبعادها ، وهو بعد الواقع البديل عن الرغبة العارمة فى التعامل الشرس مع واقع لم تعد تجدى معه المسالمة ، واقع السبعينات الغريب الذى اقتحم فيه الغرباء مصر فما كان منها إلا أن دربت أطفالها منذ نعومة أظافرهم على الخمش والعض والصراع مع الواقع الذى لا يرحم . فبالرغم من شراسة الطفل فإن ما يقلق الأم هو كيف توفق بين حدبها عليه ورغبتها فى إرضاعه وخوفها من أسنانه : هذا هو حال الأم مصر مع أبناء عصر الانفتاح الشرس .

هذا الطفل الذى يخمش بأظافره ويعض بأسنانه يطل علينا مرة أخرى وقد كبر واكتسبت شراسته نعومة أفعوانية غريبة فى قصة العنوان « هذا ما كان » فى صورة الحاج عنانى . الذى يبعث برسالة قصيرة إلى الأستاذ مدبولى ناظر المدرسة الابتدائية يقول فيها إنه مسئول عن ديون رجاله واختيار الأستاذ مدبولى الذى ليست له أية ديون فى ذمة أى من رجال الحاج عنانى ليس صدفة ، ولا حتى تسليمه تلك الرسالة القصيرة فى صحن الجامع صدفة هو الآخر . فالقصة فى جوهرها دراسة شاعرية مرهفة فى آليات تخلق القهر ، وكيف يشارك المقهور فى تخليقها نفس مشاركة القاهر ، وكيف أنها تحتاج إلى نوع من التواطؤ الجمعى الذى يساهم فى إحكام قبضتها حول الجميع . فرجال الحاج عنانى الغرباء الذين يسيرون فى شوارع القرية صاخبين ، يقذفون الكلام نحو النوافذ المغلقة ، ويدفعون أبناء القرية إلى مغادرة السياج واحدا بعد الآخر . لم يشككوا فى مديونيتهم لأهل القرية ، بل واعترف الحاج عنانى نفسه بأنه مسئول عن ديونهم . لكن أبناء القرية أنفسهم هم الذين يبدأون بشكل جمعى فى تجميع سحب الشك ، ونسج أنشوطة المخاوف التى ستسجن خطاهم . بل إن البنية القصصية الحاذقة لا تتورع عن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إشراك القارىء نفسه فى هذا التواطؤ الجمعى بإبقاء نهايتها مفتوحة حتى يغلق هو حلقتها بنفسه حول الشخصيات ، وربما يدرك بذلك أنه يغلقها حول نفسه كذلك . لأن القصة تترك دائنيها : شاكر البقال وعبد السميع القماش عند منحنى الطريق المفضى إلى بيت الحاج عنانى الكبير ، وقد عقل القهر خطواتهما ، وأثار نباح الكلاب المخاوف فى قلبيهما ، فتسمرت أقدامهم فى الطريق أمام رهبة البيت المهيب . وتريد للقارىء أن يكتشف بنفسه ، أو بالأحرى أن يشارك فى الوصول إلى النتيجة المرجوة : عدم وصولهما إلى البيت ليدرك أن آليات القهر لا تتخلق أبدا من جانب واحد . وأن كلاب الحاج عنانى المدربة لا تستطيع وحدها رد أصحاب الحق عن أخذ حقوقهم ، ولكن دور التواطؤ فى خلق آليات القهر لا يقل بشاعة عن دور العسف والإرهاب .

وهذا أيضا ما نجده فى « البرارى » التى ترتد بنا إلى فضاءات البساطى الأثيرة . عالم القرى الساحلية التى تذكرنا بشواطىء بحيرة المنزلة ، حيث ذلك المزيج الغريب من القرية الزراعية ، والقرية الساحلية ، والقفر الصحراوى ، وقد اختلطا معا فى عجينة ملخصة لكل ألوان الفضاءات المصرية . وتعقد هذه القصة مقابلة واضحة بين القفر الجغرافى والقفر الإنسانى ، حيث يزحف كلاهما على القرية السادرة فى لامبالاته ، فتتحول بالتدريج إلى مسرح للصراع ، ويحاصر سكانها أنفسهم بأنفسهم فى دورهم بعد أن يقتحمها الأغراب الذين جاءوا من البحر زرافات ووحدانا ، فلم تفكر القرية فى مواجهتهم بل بدأت فى الانسحاب أمام زحفهم الوليد . هل لهذا الإلحاح على دور العناصر الغريبة الوافدة فى القصتين علاقة بهذا المناخ الذى زحف فيه الأجانب بكثرة على وجه مصر فشوهوها من السبعينات وحتى الآن ؟ ربما ، لكن قصص هذه المجموعة ليست مشغولة بهؤلاء الأجانب بقدر مشغوليتها بأولاد البلد وما جرى لهم . وتحاول أن تتعرف على سر استسلامهم لآليات القهر ومشاركتهم فى إحكام قبضتها حولهم ، إنها مشغولة بالآخر الذى سكن الذات ودمرها .

وحتى تكشف لنا المجموعة عن هذا السر فإنها تلجأ فى « التوت البرى » إلى التعرف على طبيعة تلك الدورة الكاملة التى يتبادل فيها الأشخاص المواقع عندما يتحول الأطفال إلى آباء ويفتشون فى وجوه أطفالهم عن آثار التوت ولمعة الاستحمام . وكيف ينسون كلية كيف راوغوا قهر الآباء وذهبوا إلى تلك العجوز التى لا تتغير أبدا ، وتسلقوا شجرة التوت ، واستحموا فى الترعة . تلك القصة الجميلة التى تجمع بين المتناقضات : الشيخوخة التى لا ينال منها الزمن ، والطفولة التى لا تعبأ بالروادع والقيود ، وقد تحالفا فى هذا الحلف المتين الذى تتحول فيه العجوز إلى رمز للقدر وللقدرة وهما وحدهما القادران على المغامرة . أما « الكبار » ، الذى تكشف لنا القصص عن مدى صغارهم ، فإنهم أدوات لتكريس القهر دون أن يعلموا .

لكن ترى ما هو السبب فى عجز الكبار الصغار هذا ، فلنسأل قصتى « لقاء » و« الرحيل » عن السبب . فإنهما تقدمان وطأة هذا القهر عندما تقع على عاتق أكثر أبناء هذا الوطن إخلاصا وأرهفهم موهبة . حيث تقدم لنا أولاهما لحظة مواجهة تكشف عن جوهر شخصيتين وعن بؤس مصير المخلصين والموهوبين فى هذا العالم . فى لمسات أو ضربات شاعرية حاذقة يعرى لنا البساطى شخصياته فتتعامل مع الجوهر الخالص دون ضجة أو صخب أو افتعال . هذا المدرس الذى أحب تلاميذه وأخلص لهم يطرده المناخ الطارد الذى لوث هذا المجتمع . ودفع أكثر أبنائه إخلاصا إلى الخروج . والطالب النابه ينتهى به المصير فى عصر الانفتاح إلى هامش الهامش فى حجرة فوق السطح ، وفى عمل من أعمال الخدمة التى لا تتناسب مع براعته أو علمه أو رهافة موهبته . فلم يعد لأبناء الوطن المخلصين والموهوبين غير أدوار الخدمة للأجانب والأغراب الذين يكتظ بهم عالم هذه القصص . أما القصة الثانية فإنها تقدم لنا لوحة للذين حاولوا أن يبعثوا الخضرة فى بوار هذه الأرض فأرغموهم على الرحيل ، وصموا الآذان عن مطالبهم ، وسلبوهم الماء نفسه . إنها تجسيد ساخر لما سمى بـ « الثورة الخضراء » فى عصر السادات الكئيب ، حيث تتدفق المياه أمام عدسات التصوير ثم يسود الجفاف بعد رحيلها . لكن الذين خدعتهم تلك الممارسات لا يريدون الاستسلام لمقاديرها وتتغلب رغبتهم المخلصة فى الحياة على كل عناصر الموت والدمار الثاوية فى الواقع المحيط بهم .

فى هذا المناخ يدور القتل الضارى بالمجان فى قصة « الجفاف » ، وتتفتت العلاقة بين الأب وابنه فى « العم زيدان » تلك القصة الشاعرية الرقيقة التى توشك فيها الجزئيات أن تنسج ملامح أسطورتها الخاصة . فلا نعرف ما هى حقيقة العم زيدان . أهو الموت ؟ أهو القدر الذى يأتى على ظهر حمارة عمياء ؟ أم هو التمرد الذى ما يلبث أن يجتاح السطح الراكد فيعصف به ؟ إن رواية أحداث هذه القصة من منظور الطفل أو الصبى « إبراهيم » أو العين البريئة الطازجة . تكسب الجزئيات مجموعة من الدلالات الرمزية العامرة بالثراء . فنجد أن الجد الذى تحول إلى إرث يحمل من مكان إلى

آخر ، ويثقل كاهل الجميع بما فى ذلك الصبى إبراهيم نفسه ، شخصا أسطوريا من نوعية خاصة ، لا نعرف إذا ما كان العم زيدانقد جاء لتبديد هذا الإرث أخيرا ، أم أنه جاء ليجسد لنا بعثه الجديد طالعا من شرنقة التمرد الرافض لكل ما دار فى هذا الواقع فى سنوات غياب الضمير المصرى بحيث تكتسب دلالة الشبه الشديد بين الجد والعم زيدان (هذا هو الخيط الأوديبى الساري فى النص) أهمية خاصة ، وحيث يكتسب تمرده معنى جديدا يتعلق بكل ما دار فى عصر السادات . وهذا العصر هو الذى تستهدفه القصة الأخيرة « القطار الملكى » أهى قصة هذا القطار أم قصة الحاكم الذى يصور البساطى شخصيته بشكل كاريكاتيرى إنها ملخص لقصة أطول لم يقيض للبساطى أن يكتبها بمنطقه الهادىء وأسلوبه الشاعرى غير المباشر .

لندن : د. صبرى حافظ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البنـــاء الفنـــى فى روايـــة « إمـــام آخـــر الـــزمـان »

د . حـــامـــد أبـــو أحمـــد

تحدث ذات مرة الكاتب التشيكى ميلان كونديرا فكان مما قال : « إنهم يتحدثون فى أوربا الغربية ، وبالأخص فى فرنسا ، عن انتهاء فن القصة . ولكن هذا أمر يخصهم وحدهم ، لأنه من العبث أن يقال مثل ذلك عن كاتب من الطرف الثانى من أوربا (يقصد أوربا الشرقية) أو من أمريكا اللاتينية . فكيف يمكن لأحد أن يتلفظ بكلام حول موت القصة وعلى رفوف مكتبته قصة « مائة عام من العزلة » لجابرييل جارثيا ماركيز »[1] . وقد صدق الكاتب التشيكى فى وصفه للأوضاع الحالية لفن القصة فى العالم : فكتاب أوربا الغربية يشكون ، بالفعل ، منذ الستينيات تقريبا ، من هبوط مستوى هذا الفن فى بلادهم ، أو بالأحرى وقوعه فى شرك التقليد وعدم استطاعته تقديم الجديد الطريف الباهر . وبينما يحدث هذا فى أوربا نجد كتاب العالم الثالث ، وبالأخص فى أمريكا اللاتينية ، يتقدمون الصفوف بخطى واثقة وإحساس صادق بأنهم جديرون بالتفوق على كتاب أوربا وأن من حقهم أن يصبحوا عالميين بعد أن أضافوا لهذا الفن الكثير والكثير .

وقد تذكرت كلمة ميلان كونديرا عندما انتهيت من قراءة قصة « إمام آخر الزمان » للأستاذ محمد جبريل . وذلك أن هذه القصة أكدت عندى مجموعة من الملاحظات التى وصلت إليها بعد قراءتى لأعمال جيل الستينيات[2] المصرى فى فن الرواية . هذه الملاحظات هى :-

- حاول أبناء هذا الجيل أن يتجاوزوا فى التقنية والرؤية والأداة كل ما سبق من محاولات على طريق تطور الرواية العربية من محمد حسين هيكل حتى نجيب محفوظ ويوسف إدريس .

- هناك هَمّ مشترك يؤرق هؤلاء الكتاب جميعا هو محاولة الوصول إلى مستوى عالمى من الإبداع . ومن ثم كان تأثرهم بنجيب محفوظ وغيره من كبار كتاب الرواية العربية على نفس قدر تأثرهم بكتاب الرواية العالميين مثل كافكا وبروست وهيمنجواى وجويس وسواهم من كبار روائي أوربا وأمريكا ، وأخيرا أمريكا اللاتينية .

- بالرغم من أن ثمة خيوطا مشتركة تجمع بينهم جميعا ، كالذى ذكرناه فيما سبق ، فإن أعمال كل منهم شديدة الخصوصية والتميز . فأعمال صنع الله إبراهيم تختلف كل الاختلاف عن أعمال يوسف القعيد . . لكنها جميعا تصب فى قناة واحدة تحملها حتى تختلط بمياه نهر الإبداع العالمى .

- ثم إن هم الأصالة قاسم مشترك بين جميع أعضاء هذا الجيل ، وإن كان مفهوم الأصالة مختلفا ، بالطبع ، عند كل منهم . فإذا كان بعضهم يرى الأصالة فى استلهام النماذج والأطر والموضوعات (الموتيفات) التراثية فإن بعضهم الآخر يرى الأصالة فى إدخال تقنيات وأساليب جديدة على فن القص ذاته .

ولعل هذه النقطة الأخيرة من أهم النقاط التى يمكن أن تلفت أنظار العالم إلى أن فى بلادنا أدبا يعكس الروح السارية فى ثقافتنا وتاريخنا وواقعنا الحاضر . وكانت هذه الخاصية بالذات

هى التى لفتت أنظار العالم إلى أعمال جابرييل جارثيا[٣] ماركيز . وفى هذا يقول الناقد خوليو أورتيجا : « إن النجاح العالمى لقصصه لا يجب أن يجعلنا نعتقد ــ مثلما حدث من قبل مع خورخى لويس بورخيس ــ أن قيمة العمل الأدبى تقاس بمستوى شهرته العالمية . إن هذه القيمة تبرز فى قدرة العمل على إعادة صنع التصورات والأحاسيس الخاصة بتراثنا الأدبى وواقعنا الثقافى . إن ما هو رائع فى أعمال جارثيا ماركيز ليس هو فقط قدرته على صنع الأسطورة ، التى يعترف له بها حاليا ــ بحق ــ جمهرة القراء ، وإنما تأتى الروعة ، بالإضافة إلى ذلك من الدور الخلاق لأعماله الأدبية فى عملية إعادة تشكيل أدب لاتينى أمريكى قادر على حل إشكالية الخصوصية والعالمية ، وقادر على أن تكون فيه الإجابة ، من خلال الفن الواعى ، على متطلبات الثقافة التى تولد[٤] عنها » .

بناء الرواية وتحطيم الأصول التقليدية للفن الروائى

استطاع محمد جبريل فى رواية « إمام آخر الزمان » أن ينشىء رواية على غير مثال سابق .

صحيح أنه أفاد من كل التراث الروائى العربى والعالمى ، لكنه أدخل هذا كله فى بوتقته الإبداعية وخرج على الناس بإبداع جديد غير معهود ولا مألوف .

وإذا بحثنا عن الأصول التقليدية المعروفة للفن الروائى مثل بناء العقدة ، ورسم الشخصيات ، وتطور الأحداث ، والسرد والحوار ، والبطل فلا يمكن أن نعثر عليها بمفهومها التقليدى فى رواية « إمام آخر الزمان » ، وذلك لأن البطل فى الرواية ليس شخصية محدودة ، وإنما هو تجسيد لفكرة مجردة هى فكرة « المهدى المنتظر الذى سوف يأتى فى آخر الزمان كى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا » . ولهذا يتعاقب الأئمة على طول القصة دون أن نعثر لواحد منهم على اسم أو هوية محددة ، فيما عدا آخرهم ، وكل ما هنالك مجموعة من الأوصاف والشروط تتناثر فى صفحات الرواية ، مثل : « المهدى يرتفع عن النقائص والأخطاء ، يعرف جميع مبادىء الشريعة وأصولها وفروعها ، أيامه ثلاث خصال : إما مصليا أو صائما ، أو يقرأ القرآن ، ولا يتحدث عن الرسول الكريم إلا عن طهارة . . الخ » (ص ٧٧)[٥] ، ومثل : « تناقضت الروايات ، ولكنها تلاقت فى التأكيد على أن المهدى الحقيقى ، إمام آخر الزمان هو ذلك الذى أحب الناس مبادئه وتعاليمه ، وإن غابت عنهم صورته ، الذى يلم الكثير والكثير من عالم الغيب الملائكة والجان والعرش والكرسى والكرسى واللوح والقلم وأشراط الساعة . . الخ » (ص ١٦٢) .

ولأن بطل القصة تجسيد لفكرة مجردة نجد المؤلف يبدأ روايته « بتحقيق مطول عن بواعث اختفاء المهدى ، وبواعث ظهوره » . ويقع هذا التحقيق فى عشرين صفحة ، حيث يأتى خيط البداية فى شخصية الرسول عليه السلام ، الذى بشر بالمساواة والحب والحق والحرية ، وجعل الحكم شورى ، وحرم الاستعباد واستغلال الإنسان للإنسان . . الخ وينتهى بغياب المهدى ، الإمام الثانى عشر من السلالة الطاهرة ، ويختم التحقيق بقول النبى عليه السلام « لابد للغلام من غيبة » . . ولم يا رسول الله ؟ ــ يخاف القتل . ولا يعنينا فى هذا المقام التحقق من صحة مثل هذا الحديث لأن للمؤلف الحق فى أن يستعين على إبراز فكرته بأى نصوص تقابله سواء وردت فى كتب الشيعة أم فى كتب السنة ، ومن ثم يكون البحث عن شروط الصحة والضعف والجرح والتعديل وما إلى ذلك من علوم الحديث أمرا لا معنى له . وتقابلنا فى هذا التحقيق أحاديث أخرى مأخوذة عن الشيعة مثل قوله عليه السلام : « أنا سيد النبيين ، وعلى سيد الوصيين ، وإن أوصيائى بعدى اثنا عشر ، أولهم على ، وآخرهم المهدى » ، ومثل قوله أيضا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : « هذا أخى ووارثى ووزيرى وخليفتى فيكم بعدى » .

ويقدم التحقيق نبذة تاريخية عن بداية ظهور فكرة المهدى المنتظر ، وكيف نبعت من أحاديث كالتى ذكرناها جاءت على لسان الرسول عليه السلام أو على الأصح نسبها الشيعة إليه . ثم تطورت الأحداث بعد وفاة الرسول باختيار أبى بكر الصديق رضى الله عنه خليفة له ، ثم جاء عمر من بعده ، وعثمان بعد ذلك ، ومحاولة على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم أجمعين ، تعديل المسار فى عهد عثمان عندما عتب على الخليفة أنه أباح للأقارب والعمال والولاة ماليس بمباح . ولكن وقعت الواقعة وقتل عثمان ، وأقبل الناس على بن أبى طالب يبايعونه . ثم كانت وقعة الجمل بين على من جهة وطلحة والزبير والسيدة عائشة من جهة أخرى ، وبعدها كانت معركة صفين بين جند على وجند معاوية ، وتطور الأحداث بعد ذلك لصالح معاوية . وبعد أن قتل الإمام على قام أبناؤه من بعده يطالبون بحقهم فى الخلافة ، ولكن الحسن آثر حقن دماء المسلمين بعد أن تفرق الأنصار من حوله ، ومضى الحسين فى الجهاد حتى قتل على يد جند ابن زياد والى يزيد بن معاوية على العراق . وقبل أن يسلم الروح أوصى بالإمامة لعلى بن الحسين ، ثم كان الإمام من بعده محمد أبن على الملقب بالباقر ، ثم جعفر بن محمد الصادق ، ثم موسى بن جعفر ثم على الرضا ، حتى انتهت الإمامة إلى خاتمة حلقاتها وهو الإمام الثانى عشر ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المهدى الهادى ، إمام آخر الزمان . وقد غاب هذا الإمام غيبته الصغرى « التى امتدت عشرات الأعوام ، ولكن غيبته الكبرى متواصلة حتى يعود آخر الزمان ، يقود جيش الملحمة ، يعيد الحق إلى موضعه ، ينزع الجور والظلم ، ينشر العدل والقسط والمساواة » (ص ٢٨) .

ويستخدم المؤلف فى هذا التحقيق طريقة التقطيع السينمائى ، وهى طريقة وضح أن محمد جبريل يجيد استخدامها منذ أن نشر قصته « الأسوار » عام ١٩٧٣ . وهذه الطريقة تفيد فى تكثيف الأحداث ، وتضفى عليها بُعداً دراميا كما تجنب القصة مغبة السرد التاريخى الذى قد يخرج بها عما تهدف إليه .

وبهذا نجد أن فكرة الإمامة بدأت متمثلة فى أشخاص حقيقيين من آل البيت ثم انتهت إلى فكرة ميثولوجية (أسطورية) مجردة . ومن ثم فإن وجوه المهدى أو الأئمة الستة التى سوف نلتقى بها بعد ذلك فى فصول الرواية ليست إلا تجسيدا لهذه الفكرة ، وسوف تكون جميعا بمثابة فروع تنبع من جذر واحد وتتفرع حتى تغدو مثل شجرة كاملة النمو ، واضحة النضوج ، متساوية النسب والأبعاد والظلال . وسوف نجد كل واحد من هؤلاء الأئمة الستة يشتمل على خاصية هامة تميزه عن الآخرين ثم تتضافر كل هذه الخصائص المتباينة كى تقدم صورة متكاملة لرؤية المؤلف .

الأئمة إذن ستة ، موزعون توزيعا منظما على فصول الرواية ، ولكل منهم صفة غالبة تميزه . ففى الفصل الأول ، وهو تحت عنوان « كلما اشتدت الأزمة ، وعانى الإسلام من الغربة ، ظهر المهدى فى الفتح » نجد الإمام شديد القسوة . فعندما سرق بعض الصبية ثمرات من الطماطم ، قطع أيدى آبائهم ، وعلقها فى ساحة المسجد . وقد ضاعف العقوبات على أهل الشر وبالغ فى عقوباته ، « فقد لقى رجلا ــ قبالة الباب الفضى ــ تسبقه رائحة الخمر ، فقبض عليه ، وعذبه أياما ، ثم خلع عينيه وأسنانه ، وقطع أنفه وشفتيه وأطرافه حتى مات » (ص ٦١) . وهذا الإمام يشبه إلى حد كبير الحجاج بن يوسف الثقفى ، ولذلك قال مثلما قال الحجاج : « من أعياه داوه فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله فعلى أن أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره قصرت عليه باقيه » (ص ٦٢) ، وهو أيضا القائل : « وإنى لأفعل مثلما فعل الحجاج ، فلا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه ! » (ص ٦٢) . فهذا الإمام الأول فى الرواية يمثل صورة بشعة من صور الاستبداد والطغيان والشمولية والتسلط . لقد تجاوز الحدود والعقوبات ، وأخذ الإنسان بجريرة غيره ، وعاقب على الظن والشبهة . وهذا الإمام له أشباه ونظائر كثيرة على امتداد تاريخنا . وقد اختار القاص من بينهم أكثرهم جميعا شهرة وأقساهم قلبا وهو الحجاج الثقفى الذى كان واليا على العراق أيام أن كانت الخلافة الأموية فى دمشق . وقد كانت أوامر إمام الرواية ونواهيه شديدة التطرف : « فقد طالب الشبان الذين أطالوا شعرهم بتقصيره ، والنساء اللائى كشفن عن رءوسهن بتغطيتها ، من تبين عن جزء من وجهها أو جسدها فإن القار ــ بيد جنود الإمام ــ سيغطيه فيما بعد . قرر العقوبات الصارمة على المرأة وبعلها أو عائلها إذا تبرجت وسفرت ولم تحتجب ، إذا وضعت المساحيق على وجهها ، أو استخدمت أحمر الشفاه . . الخ » (ص ٥٥) . وهذه الصورة أيضا لها نظائر كثيرة فى وقتنا هذا من عامة الناس ، ولو وصل واحد من هؤلاء إلى السلطة فى أى بلد إسلامى فلن يتوانى فى تنفيذ مثل هذه الأوامر والنواهى .

ويأتى الفصل الثانى تحت عنوان « . . وحتى لا ينطق الإمام عن الهوى ، دعا إلى حكم القانون » ، وهنا نجد الصفة الغالبة على هذا الإمام الثانى أنه أراد أن يحكم بالقانون . والقانون نابع من كتاب الله وسنة رسوله . « كتاب الله وسنة رسوله مصدر كل القوانين التى تحيا بها الدولة ، ما عدا ذلك من إجماع وقياس فهو عرضة للنقد ، وقابل للصحة والخطأ » (ص ٨٢) و« الدولة الإسلامية هى التى يقيمها المسلمون ليتمكنوا من تنظيم شئون حياتهم الخاصة والعامة ، وفق تعاليم وأحكام الإسلام التى نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة » (ص ٧٣) . وقد أكثر هذا الإمام من دعوة الزهاد والعلماء إلى مجلسه ، واختار أصحابه من أهل الحب والدين والمروءة ، وأباح للقضاة أن يتخذوا فى باحات المساجد مجالسهم ، وخصص فى كل مسجد حجرة خاصة بها جهاز تليفزيون ، وجهاز فيديو كاسيت ، ومكتبة تحفل بالكتب الدينية ، وألحق بالمسجد مستوصفا فيه طبيب مقيم لعلاج المرضى من الرجال ، وطبيبة مترددة لعلاج المرضى من النساء . . الخ » (ص ٨٤) . وبدا للناس أنهم أصبحوا يعيشون مجتمع عمر بن الخطاب أو على بن أبى طالب ، وإن كان المجتمع الذى بناه الأول أكثر تكاملا أما الثانى فلم يتح له أن يطبق أفكاره بصورة متكاملة . وهكذا نجد المؤلف يشبه هذا الإمام الثانى فى الرواية بالخليفة الثانى أو الخليفة الرابع ، وهما أعظم رمزين للحكمة والعدالة فى الإسلام . ولكن هذا المجتمع الزاهر الذى بناه الإمام الثانى أفسدته كثرة القوانين ، « وكانت آخر النكات أنه قرر إنشاء كلية خاصة لتدريس

قوانينه » (ص ٩٥) . وقد قرر الإمام بعد أن حاول المغرضون الإساءة إلى عهده الزاهر النبيل أن يطرح كل القوانين لاستفتاء عام . ثم حرص بعد ذلك على إجراء الاستفتاءات العامة فى كل خطوة ينوى الإقدام عليها . ثم توالت الأحداث حتى بات الخروج عليه أمرا لا مناص منه ، وأصبح الناس ينتظرون مرة أخرى مقدم المهدى المنتظر أو الإمام الثالث فى الرواية .

وهذا الإمام نجده فى الفصل الثالث الذى يأخذ عنوان « فأنقذ ــ سبحانه وتعالى ــ المسلمين ، بحزب الله » ، والصفة الغالبة عليه أنه رئيس الدولة وزعيم الحزب فى آن واحد . وقد امتزج الحزب والدولة فى شىء واحد ، وتمثلا أيضا فى شخص واحد هو الإمام الذى يقول « إنه ليس فى البلاد سوى حزب واحد » (ص ١٢١) . ولا يرى إلا وجود حزبين فقط هما حزب الله وحزب الشيطان ، ولا سلام بينهما حتى يزيل أحدهما الآخر . وبذلك فإن كل من لم يكن من حزبه فهو من حزب الشيطان ، أى من حزب الكافرين ، ولأنهم كافرون فقد أباح الإمام لأتباعه أن ينكلوا بالمعارضين شر تنكيل « فهبطوا كالجراد على المناطق المتمردة ، ونهبوها ، وقبضوا على أهلها ، وربطوهم فى الحبال والجنازير ، وأجلسوهم القرفصاء لفترات طويلة ، وانهالوا عليهم بالسياط والعصى ، وألبسوهم ثياب النساء . . وحرضوا عليهم كلابا مدربة عضتهم ونهشت أجسادهم ، وعرضوهم لصدمات كهربائية ، وخطفوا الماشية والدواب ، وضاجعوا النساء أمام أزواجهن . . وافتضوا الأبكار ، ولاطوا بالغلمان . . الخ الخ (ص ١٢٧) . ويحشد محمد جبريل فى هذه الصفحات مجموعة طويلة من صور التعذيب التى يمارسها الدكتاتوريون فى كل زمان ومكان للتنكيل بمعارضيهم . وقد استمر هذا الإمام فى الحكم اثنى عشر عاما ثم مات . ولا ندرى هل كان موته طبيعيا ؟ أم صرعه المرض ؟ أم قتل فى مؤامرة ؟ المهم أن موته كان هو الخلاص الإلهى لمحنة تواصلت اثنى عشر عاما .

وفى الفصل الرابع « الثورة عنف ، فلماذا لا ندعو إلى الإصلاح » نلتقى بإمام آخر يغلب عليه التسامح الشديد أو بالأحرى التساهل المبالغ فيه . « فقد دعا إلى تنشئة الأطفال كالقطط والكلاب ، فتتفتح شخصياتهم وتتكون بشكل صحى . وأثبت نكاح الصبيان ، وأجاز الاستمناء لمن أقعدتهم الظروف عن الزواج حتى تسكن الشهوة » (ص ١٤١) . وقد كان لهذا التساهل أثر فى تضاؤل أعداد الذين يؤدون الفرائض الدينية إلى حد الندرة ، وتكاثر أعداد المتخمين المترهلين ، يطففون الكيل والميزان ، ويسرقون الأموال ، ويأخذون الرشا . وقد سار هؤلاء فى طريق الغواية وخاضوا فى بحور الرذيلة . وقد أسرف النساء فى الحرية ، وأقبل الناس جميعا على تقليد الظواهر الوافدة . وتكاثر عدد المستبيحين الزنا واللواط ، والشاربين الخمر ، والتاركين الصلاة ، والآكلين الربا ، والمستحلين الحرمات . . الخ (ص ١٤٦ و١٤٧) . ثم إن هذا التساهل أدى بالإمام نفسه إلى أن يخلط بين ثروة الأمة وثروته الشخصية حتى قال : « الأرض لله ، وأنا الإمام ، خليفة الله . . ما آخذ من مال الله ، فهو لى . . ! (ص ١٥١) . كما أنه « لم يعد ينطق بالشهادتين فى سر أو علانية ، وامتنع عن الصلاة وصيام رمضان ، ولم يعد يشغل باله بالسعى إلى بيت الله الحرام ، وامتنع عن الحكم بالكتاب والسنة » (ص ١٤٧) . وكانت نتيجة كل هذا تدهور الأحوال ، ووقوع الناس فى الشدة والغلاء ، حتى تلاشت المرافق والخدمات ، وتفشت المجاعة حتى أكل الناس لحوم الخيل والبغال والحمير ، وتعاظمت أيام الشدة حتى بات الناس يحلمون بقدوم المهدى المنتظر .

وهنا نأتى إلى الفصل الخامس « وخرج الإمام بالسيف ، علامة أكيدة على أنه المنتظر » . والإمام هنا اعتلى عرش الإمامة تحت ضغوط شعبية ، حيث « دعا الخطباء فى المساجد إلى ولايته ، وامتلأت العرائض فى أوقات الصلوات بتوقيعات المواطنين التى تؤيد ولايته ، وبرزت ــ من بين الفوضى ــ زعامات تجد الخلاص فى قبوله الولاية ، وأكدت التنظيمات ، فى أقطار شتى ، تأييدها له » (ص ١٦٦) وقد رفض هذا الإمام فى البداية تولى الإمامة لأنه يؤمن أنها اختيار إلهى وليست إرادة إنسانية . وقد علت تساؤلات الناس فى دهشة : هل فى اختيار الناس لإمامهم مخالفة للأوامر الإلهية ؟ فكان الرد : « نعم . الولاية تكليف إلهى ولا شأن لاختيار الناس بها » . وقد انتهى الأمر بموافقة الناس على شروط الإمام الجديد على أن تكون الإمامة فى صورتها المثلى . ولكن إماما هذا رأيه فى الناس وفى أسلوب الحكم لا يمكن ، مهما لبس فى البداية من مسوح العدالة والحكمة ، إلا أن يتحول بسرعة إلى الظلم والقهر والاستبداد ، حتى أصبحت الصفة الغالبة عليه هى « ادعاؤه الألوهية » . فقد صعد إلى المنبر ذات يوم ، وقال للملايين الذين حبسوا أنفاسهم فى المسجد ، وبالقرب من أجهزة الراديو والتليفزيون : لقد حلت روح الله فى جسد إنسان لانقاذ العالم من الدمار الذى يتهدده ! . ثم علا صوته فأمسى صارخا : « إنى ربكم فخروا لى ساجدين » (ص ١٨٧) . كانت نتيجة ذلك « أن تمخضت الأيام الذهبية التى وعد الناس بها عن أيام أسوأ من تلك التى عاشها الناس فى عهود الأئمة السابقين ، الجور ظاهر ، والعسف شديد ، ملك الأمر ، وتسلط فيه تسلط ربوبية ، وبطش بطش الجبابرة ، وكلم بالسيف ، وقتل

على الغضب والظنة . . الخ (ص ١٨٠) . وكانت النهاية هى موت الإمام ، ولكن لا أحد يدرى أين وكيف ومتى ؟ فقد قيل إنه مات بالتخمة ، وقيل إنه مات مسموما ، وقيل إن حارسه قتله . . الخ بل قيل (من باب النكتة) إن عزرائيل ضايقته كثرة الوفيات التى جرت بواسطة الإمام فقبض روحه حتى لا ينافسه ، فى قبض الأرواح ، أحد . المهم أن الناس تنفسوا الصعداء وأخذوا يتبادلون التهانى فى البيوت والشوارع والطرقات .

وبهذا نرى أن الإمام فى قصة محمد جبريل ليس إماما واحدا وإنما هو خمسة أئمة يتعاقبون على فصول الرواية الخمسة التى ذكرناها (يبقى فقط الفصل الأخير وله وضع خاص) . ويختلف كل واحد من هؤلاء الأئمة اختلافا بينا عن الآخرين ، ولكن خيطا مشتركا يجمع بينهم جميعا هو أن دولة كل منهم تبدأ عادلة قوية فتية ينتظر الناس منها الخير وتحقيق المدينة الفاضلة لكنها تنتهى نهاية سيئة لأسباب تختلف من فصل لآخر وفقا لاختلاف كل إمام عن الآخر .

وهكذا جمع محمد جبريل فى هؤلاء الأئمة الخمسة كل ما عرف من صور الفساد وأسبابه ونتائجه فى بناء فنى محكم ومدروس بعناية فائقة ولهذا أختلف مع الأستاذ محمد محمود عبد الرازق فى قوله : « فقد ألفنا تتابع الحكايات عن موت إمام وتولى آخر حتى فقدت إثارتها . سلبها الواقع ، كذلك ، ضبابها لعدم تباين المضمون ولعدم تباين الأسلوب . إذ أننا قد فهمنا اللعبة ، وتحسسنا كل أبعادها بعد أن أصبحنا داخل الحلقة ولم تعد تصادفنا أية إرهاصات تنشر[٦] بجديد » . وهذا الرأى ، كما يتضح من تحليلنا للفصول الخمسة السابقة ، يجافى الصواب ، لأن كل فصل منها ، وكل إمام ، مختلف عن الآخر كل الاختلاف ، ومن ثم فإن الاختلاف فى المضمون وفى الأسلوب بين كل فصل وآخر واضح تمام الوضوح . ومن مميزات جيل الستينيات الروائى أن لدى كل منهم وعيا كبيرا ببناء الرواية الفنى ، ووعيا كبيرا بالقيمة التجديدية ، ولهذا فإن رواياتهم تحتاج إلى كثير من التأنى والحذر عند قراءتها .

وقد رتب الأستاذ عبد الرازق رأيه هذا فى رواية محمد جبريل على رأى آخر ، له أيضا ، فى رواية « خريف البطريرك » لجارثيا ماركيز ، حيث أشار إلى أن رواية « مائة عام من العزلة » ، وأنها مجرد تكرار ممل للرواية المذكورة . ولهذا يقول : « فإذا ما شعر الفنان بصعوبة استمراره فى الإبهار فما عليه إلا أن يكف ، حتى لو كان قد خطط لبلوغ طموح روائى أطول نفسا . فالتوقف عند اللحظة الملائمة هو صنعة الفنان القدير . وعدم ضبط النفس والتمادى فى التكرار فضلا عن أنه لن يضيف جديدا فإنه قد يسىء إلى ما تم إبداعه[٧] . وهذا الرأى فيه من التجنى على الروائى العملاق جارثيا ماركيز مالا يمكن السكوت عليه . وإذا كانت هذه السطور لا تحتمل السرد ، فإنى أود فقط أن أقول إن رواية « خريف البطريرك » ، وفقا لما أكده النقاد الغربيون وتأكدت منه أنا أيضا ، مختلفة تماما فى مضمونها وأسلوبها وبنائها الفنى عن رواية « مائة عام من العزلة » . وقد أثبت ماركيز فى كل قصصه التالية أنه قادر باستمرار على تقديم الجديد المبهر اللافت لأنظار القراء فى كل أنحاء العالم .

أما الفصل الأخير فى رواية محمد جبريل الخاص بالإمام السادس فإن بناء الرواية فيه مختلف تماما عن خط بناء الفصول الخمسة السابقة . ويعود هذا الاختلاف إلى ما يلى :-

ـ الإمام فى هذا الفصل شخص معروف الهوية ، واسمه بالتحديد هو السيد حسن الحفناوى ، بينما الأئمة فى الفصول السابقة ـ كما رأينا ـ كانوا مجهولى الهوية . كما أن المكان الذى كان يتردد عليه معروف وهو مقهى السيالة بأحد أحياء مدينة الاسكندرية .

ـ قتل هذا الإمام قبل أن يصل إلى عرش الإمامة ، ولهذا كان عنوان هذا الفصل هو « وعلى رصيف مقهى السيالة ، اغتيل رجل تؤكد معظم الروايات أنه ـ بالفعل ـ هو المهدى المنتظر » .

وهكذا قتل هذا الرجل قبل أن يصبح حاكما فيطغى ويستبد ، وذلك حتى يظل الانتظار هو الأمل الوحيد عند الناس ، ويظل الحلم بالعدل والحرية وبناء المجتمع الفاضل أملا لا ينتهى ـ وتختم الرواية بإشارة إلى الحل الأمثل وهو الديمقراطية وحكم الجماهير ، وذلك لأن انتظار الإمام العادل والحاكم الفرد لن يسفر إلا عن مزيد من الدكتاتورية والحكم الشمولى وقدر رأينا كيف انطلق جميع الأئمة من منطلقات مختلفة لكن دولة كل منهم آلت إلى الفساد ، وجلبت على المجتمع كل الشرور والآثام ، وذلك لأنها جميعا لم تكن تعبيرا عن إرادة شعبية ، وإنما كانت قائمة على مبدأ التفويض الإلهى ، وهى قاعدة يلجأ إليها الدكتاتوريون عادة لتبرير أفعالهم وإضفاء صفة القداسة على أشخاصهم وعلى أنظمة حكمهم .

المكان والزمان

فيما عدا التحقيق المطول عن « بواعث اختفاء المهدى وبواعث ظهوره » فى أول الرواية ، وكذلك الفصل الأخير منها نجد أن الرواية كلها تمثل حدثا يقع خارج الزمان والمكان .

فأحيانا نجد بعض الأحداث تدور فى المكان الذى استشهد فيه الإمام الحسين فى كربلاء ، أو فى النجف الأشرف ، أو الكوفة أو بغداد . وأحيانا تظهر دعوة أحد الأئمة فى مكان ما ويتناقش فى أمرها عمال الحديد والصلب بحلوان ، وتعلق ملصقات عنها على امتداد طريق المطار فى دمشق ، ويدور حوار حولها بين مستوطنة فرنسية ورجل أعمال موريتانى فى طائرة عائدة من نواذيبو ــ وعندما تنتشر كلمات الداعية أو الإمام الجديد نجدها قد سرت فى الفتح والقاهرة ، وبغداد ، والرفاعية والأشراف والخرطوم ، وبيروت ، وفى أسواق الغورية ، وخان الخليلى ، والحمزاوى ، والحميدية ، والشورجة ، وسرقس . بل إن المؤلف نفسه قد كتب روايته خلال الفترة من فبراير ١٩٧٦ حتى يونيو ١٩٨٢ فى مدن الاسكندرية ، والقاهرة ، وعمان ، وبيروت ، ومسقط ، والرياض ، والدوحة ، والكويت ، وأبو ظبى ، والجزائر ، ونواكشوط ، والفجيرة ، وتونس ، حسبما ورد فى آخر الرواية . وهذا الانتشار فى المكان يتفق مع طبيعة الرواية التى تناقش فكرة المهدى المنتظر وهى إحدى الأفكار الإسلامية التى شغلت المسلمين كثيرا ، ومازالت تشغلهم حتى أيامنا هذه ، وانقسم الناس حولها إلى شيعة تمثل عندهم هذه الفكرة إحدى ركائز الإيمان ، وأهل السنة ، لا تمثل عندهم ركيزة إيمانية ولكنها ذات أبعاد أسطورية قوية ، ولها نظائر أخرى لا تقل عنها شهرة وانتشارا بين الناس مثل فكرة المسيح الدجال ونزول نبى الله عيسى فى آخر الزمان كى يحكم بشريعة الإسلام . وقد استطاع المؤلف أن يلتقط البعد السياسى لفكرة الإمامة ، وصنع منها هذه المنظومة التى تضع أمامنا نماذج متعددة لأحلام الناس بالعيش فى مجتمع العدل والمساواة والحرية ، تقابلها نماذج مضادة تقضى على هذه الأحلام وتجعل الناس يعيشون تحت نير الاستبداد والقهر والطغيان والتسلط . وقد تعددت أشكال هذا الاستبداد ووسائله بتعدد أشكال التفكير وطبائع الأشخاص وظروف الحياة .

وبالنسبة لزمان الرواية فإننا نجد فيها كل الأزمنة تتداخل وتفقد خصائصها الذاتية . ويمكن القول بأن أحداث الرواية تقع خارج التاريخ أو تدور فى زمان أسطورى يبدأ بعد موت النبى عليه الصلاة والسلام ولا تنتهى إلا بنهاية العالم . إنه زمان دائرى تتكرر فيه الأحداث وتتوازى أو تتلاقى حتى تصنع فى النهاية هذا الجو الميثولوجى الذى تجرى فيه الفصول الخمسة ، أى كل فصول الرواية ما عدا التمهيد والفصل الأخير . فنحن مثلا فى صفحتى ٤٤ و ٤٥ من الرواية نقرأ عن الموكب الذى أحاط به الألوف المؤلفة من الهاتفين ، والداعين وحملة البنادق والخناجر والسيوف ، وتطلق المدافع من قلعة الزهراء وتتناوب القلاع الأخرى فى إطلاق مدافعها . كما نقرأ عن إغلاق دور السينما والملاهى الليلية ، واقتصار مواد الإذاعة والتليفزيون على البرامج الدينية وتلاوة القرآن الكريم ، وإيقاف البنوك معاملاتها بالفائدة على القروض . وكل هذا يندمج ببراعة فنية حتى لنحس وكأن كل هذه الأشياء موجودة فى زمان واحد وعصر واحد أما فيما يتعلق بالتمهيد فإن مكانه وزمانه معروفان ويتمثلان فى الفترة التى تلت موت النبى عليه الصلاة والسلام ، وانتهت بموت الإمام الحسن ثم مقتل الامام الحسين ، ومكان الاحداث فى تلك الفترة محدد بمنطقة شبه الجزيرة العربية والشام والعراق . أما الفصل الأخير فقد ذكرنا أن الأحداث فيه تدور فى مقهى السيالة بمدينة الاسكندرية ، كما تدل الأحداث نفسها وأسماء المساجد (أبو العباس وياقوت العرش والبوصيرى) واسم الحى (الأنفوشى) على أن الزمان هو زماننا الحالى .

الشخصيات :

الشخصية الرئيسية فى الرواية هى شخصية الإمام ، وهى ــ كما أسلفنا ــ تجسيد لفكرة الأمامة أو المهدى المنتظر . وقد رأينا كيف تتعدد وجوه هذا الإمام وتتداخل حتى تعبر عن رؤية المؤلف القائمة على أن الدكتاتورية لها صور وأنماط كثيرة ، ويمكن أن تنطلق تحت مظلة التعاليم الدينية نفسها إذا لم يكن لدى الناس وعى صادق بمفهومات هذه التعاليم وأهدافها السامية ، وإذا لم يكونوا على قدر من الفهم يتيح لهم فرض إرادتهم الشعبية على الحاكم وإلزامه بنهج طريق الديمقراطية الصحيحة التى يكون الشعب فيها هو الحاكم الفعلى وهو السيد المطاع . وإلى جانب هذه الشخصية الرئيسية توجد شخصيات أخرى ثانوية كثيرة العدد مثل سليمان شاكر ، وسلامة الجمل ، وسليمان علوى ، وعلى عبد الحسين ، وفيصل الشيراوى ، وصالح الغزالى ، وعبد الرازق سالم ، والكراديسى ، وياقوت نافع ، وسيد الرويعى . الخ . وكل هذه الشخصيات تمثل وعى الشعب بفكرة الإمامة ، وتعلق على الأحداث . ومن ثم فإن وجودها فى الرواية ليس مستقلا وإنما يأتى تابعا للأئمة على اختلاف صورهم . وبذلك لا نجد أى صراع درامى بين شخصيات القصة وإنما يأتى الصراع داخل فكرة الإمامة فى حد ذاتها ، بين الأئمة بصفتهم تجسيدا لهذه الفكرة ، وبين وعى الشعب المتطلع لبناء مجتمع العدالة والحرية ، وهو ما تمثله هذه الشخصيات . وكما ذكرنا من قبل فإن هذه الرواية تحطم الأصول التقليدية المعروفة لفن الرواية ، كى تقدم رواية جديدة ذات طابع عربى إسلامى خالص . إنه نفس الأمل الذى راود كل كتاب الستينيات .

بين « إمام آخر الزمان » و « خريف البطريرك »

نشرت رواية « خريف البطريرك » للروائى الكولومبى العالمى جابر ييل جارثيا ماركيز عام ١٩٧٦ ، وترجمها إلى العربية محمد على اليوسفى وصدرت عن دار الكلمة للنشر فى بيروت عام ١٩٨١ . أما رواية « إمام آخر الزمان » فقد كتبت خلال الفترة من فبراير ١٩٧٦ إلى يونيو ١٩٨٢ . وبذلك يكون احتمال اطلاع محمد جبريل على رواية ماركيز قبل كتابة روايته مستبعدا . وعلى أية حال فإن المقارنة بين القصتين سوف تدلنا على أن عناصر الاتفاق فيما بينهما قاصرة على بعض الخطوط العامة فقط ، أما الخصائص الرئيسية لكل من الروايتين فتدلنا على أن كلا منهما تختلف عن الأخرى كل الاختلاف . وفيما يتعلق بالخطوط العامة نجد أن الموضوع الرئيسى فى كل من الروايتين يدور حول الدكتاتورية ، كما أن الزمان فى كل منهما زمان غير تاريخى ، أو غير واقعى ، والمكان أيضاً غير محدد ببلد معين أو منطقة معينة ، وإنما نجد الإمام فى كل مكان وزمان ، ونجد البطريرك (ومعناه الأب أو رب العائلة ، وفى الرواية رأس الدولة) صورة نموذجية لكل الدكتاتوريين فى قارة أمريكا اللاتينية . وفى الروايتين أيضا تحطيم للأصول التقليدية للفن الروائى . وكل منهما استغرق الكاتب فى إعدادها فترة طويلة ، حوالى سبع سنوات فى « إمام آخر الزمان » وثمانى سنوات فى « خريف البطريرك » . ومما يدل على ذلك قول ماركيز فى حديث أجراه معه الروائى ماريو فارجاس أيوسا ونشر فى ليما عام ١٩٦٧ . « إننى أقوم الآن بالإعداد لقصة دكتاتور من الخيال ، أى قصة دكتاتور يُظن أنه لاتينى أمريكى من جهة البيئة . ويكون عمر هذا الدكتاتور ١٨٢ سنة ، وله فترة طويلة جدا فى السلطة ، لدرجة أنه لا يذكر متى وصل إليها ، ومخولة له سلطات واسعة جدا حتى لم يعد فى حاجة إلى إعطاء أوامر ، وهو يعيش معزولا تماما فى قصر كبير ، تتنزه فى أبهائه الأبقار وتتآكل كل الصور[٨] . وبالإضافة إلى ذلك هناك نقطة اتفاق أخرى بين الروايتين هى فقدان هوية الشخصيات فى كل منهما .

أما عن نقاط الاختلاف فتتمثل فيما يلى : -

- البطل فى رواية محمد جبريل ، كما رأينا ، متعدد الوجوه ، وكل وجه يدل على صورة من صور فساد السلطة ، أما فى رواية « خريف البطريرك » . فالبطل جاء ، بالفعل ، على النحو الذى وصفه ماركيز فى السطور السابقة .

- البناء الفنى فى كل من الروايتين مختلف تماما : « فإمام آخر الزمان » ـ كما فصلنا من قبل ـ مكونة من ستة فصول وتمهيد ، ويحمل كل فصل عنوانا يدل على صورة الإمام المبثوثة بين السطور ، والمختلفة عن الصور الموجودة فى الفصول الأخرى .

أما رواية « خريف البطريرك » فتبدو وكأنها فقرة طويلة جدا لحقيقة أكثر طولا . وليس لهذه الفقرة بداية أو نهاية ، ولا تقوم القصة على عملية تسلسل أو نظام زمنى محدد وإنما تقوم على عملية نفى أو إخلال بالنظام . وتتكون « خريف البطريرك » من ستة أجزاء لا يمكن أن يطلق عليها « فصول » لأنها بمثابة لحظات غير متصلة لعملية غامضة يتدخل القص فيها من زوايا مختلفة لكنها يمكن أن تتراكب فصلا عن فصل ، وتنتظم فى معنى مختلف عما تبدو عليه . وبهذا نجد رواية « خريف البطريرك » مثل القصيدة تدور أحداثها فى لحظة آنية لا تنقطع . ومن ثم فإن الأحداث لا تتطور أو تنمو فى الرواية وإنما تقف عند لحظة محددة تمثل نهاية الدكتاتور ، وتبدأ ، بالتحديد ، من لحظة انهياره حتى موته . وهذه النهاية تمضى فى خط دائرى ، وفى هذا دلالة على أنها لم تحدث مرة واحدة ، وإنما تكررت مرات كثيرة ، ويمكن أن تتكرر فى المستقبل .

- رواية « إمام آخر الزمان » تنطلق من فكرة إسلامية خالصة ورؤية أسطورية تتعلق بأسطورة المهدى المنتظر ، و « خريف البطريرك » عملية تكثيف خيالى لنماذج الدكتاتورية فى أمريكا اللاتينية ؛ ففيها من ما نويل استرادا كابريرا (جواتيمالا ١٨٩٨ ـ ١٩٢٠) الذى كان يتعبد بأمه وهو يعلم أنه ولد بطريقة غير شرعية ، وخوان بيشنتى جومث (فنزويلا ١٩٠٨ ـ ١٩٣٥) الذى استخدم سلطاته فى مضاجعة أى فتاة تروق له مهما كانت صغيرة السن ، وفى رواية « الإمام » يمكن أن نرد الاستفتاءات وكثرة القوانين وعمليات التعذيب وما إلى ذلك إلى نماذج موجودة فى عصرنا فى عالمنا العربى والإسلامى . وهكذا تنبع كل رواية من بيئتها وعالمها .

- تختلف اللغة فى « إمام آخر الزمان » عنها فى « خريف البطريرك » وذلك لأن لغة القصة الأولى تعبر بشكل واضح عن المضمون ، ومن ثم نجد المفردات فيها إسلامية خالصة ، مقتبسة ، فى كثير من الأحيان ، من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو كتب الفقه والحديث والسيرة والتوحيد . مثل قوله : « الشرع يبيح سفور الوجه واليدين والرجلين . ما عدا هذا ممنوع . عزا إلى التبرج والسفور ظهور الفواحش وارتكاب الجرائم وقلة الحياء ، وعموم الفساد . حرم المصافحة باليد ، شدد على الخضوع بالقول للرجال ، أى تليين القول وترقيقه ، فيطمع فيهن من فى قلبه مرض . . الخ » (ص ٥٥) . فهذه الفقرة ـ كما نلاحظ ـ مأخوذة من كتب الفقه ، والجملة الأخيرة منها مقتبسة من قوله تعالى فى سورة الأحزاب : « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا » (آية

٣١) . أما رواية « خريف البطريرك » فلغتها شديدة الصعوبة ، وتحتاج إلى جهد كبير لفك طلاسمها سواء قرئت بالأسبانية أو فى ترجمتها العربية ، لأنها فى مجملها لغة مجازية تجعل من الرواية حدثا فى اللغة ، كما هو معروف فى روايات العقود الثلاثة الأخيرة ، من الستينيات حتى الآن . ولهذا قارن النقاد بين بساطة اللغة وسهولتها فى « مائة عام من العزلة » وبين صعوبتها وتقعرها فى « خريف البطريرك » .

وهكذا نجد أن المقارنة السهلة بين « إمام آخر الزمان » و « خريف البطريرك » أو القول « بأن الأولى صياغة عربية أصيلة للثانية دون إيغال فى الفنتازيا[٩] » أمر يرفضه البحث الموضوعى المتأنى . فالروايتان مختلفتان اختلاف أمريكا اللاتينية عن العالم العربى ، وعملية التأثير مستبعدة كما أوضحنا فى بداية هذه المقارنة . وعلى أية حال فقد كانت رواية « خريف البطريرك » تاسع رواية صدرت عن الدكتاتورية فى أمريكا اللاتينية منذ عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٧٦ أى فى خلال ست سنوات فقط . ونذكر من بين هذه الروايات رواية « صاحب السعادة » لماريو مورينو (المكسيك ، ١٩٧١) ، و « دعابة » لخوان جويانارتى (الأرجنتين ، ١٩٧١) و « حق اللجوء » لأليخو كاربنتير (كوبا ، ١٩٧٢) ، و « اختطاف الجنرال » لديمتريو أجيليرا مالطا (اكوادور ، ١٩٧٣) ، و « أنا الأعلى » لأوجستو روا باستوس (باراجواى ، ١٩٧٤) ، . . الخ . ومن قبل ذلك (عام ١٩٤٦) ظهرت رواية الكاتب الجواتيمالى ميجيل آنخل أستورياس الشهيرة « سيدى الرئيس » . وبهذا نجد أن الروايات التى تتناول الدكتاتورية كثيرة فى أدب أمريكا اللاتينية . وتأتى رواية محمد جبريل لتضيف لهذا النوع من الروايات رواية ذات مضمون عربى أصيل .

بعض الهنات :

ولا نترك هذا التحليل قبل أن نشير إلى بعض الهنات التى وردت فى رواية « إمام آخر الزمان » ، وليس لها أى صلة بالبناء الفنى ، ولا تؤثر على جوهر القصة . ومن ذلك ورود آية قرآنية خطأ فى صفحة ٣٧ ، حيث قال : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهودهم . . » وصحة الآية الكريمة « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم . . » (سورة التوبة ، آية ١١) . ومن ذلك أيضا ما ورد على لسان إحدى الشخصيات (على عبد الحسين) : « تجديد الدين ليس معناه إظهار نوع جديد من الدين ، وإنما إعادة الناس إلى الدين الصحيح وإزالة ما علق به ــ عبر العصور ــ من أوساخ ! » (ص ٥٧) . ونحن نعتقد أن المؤلف قد جانبه الصواب فى التعبير بكلمة « أوساخ » ، وكان من الأفضل أن يقول « وإزالة ما علق به من بدع أو شوائب أو خرافات » . وفى صفحة ٨١ ورد على لسان إحدى الشخصيات : « فالله يأمر بالوفاء بالعهد فى غير موضع من القرآن » ، ونظن أن الصواب أن يقول « فى أكثر من آية من القرآن » . وفى صفحة ١٧٧ يأتى على لسان فيصل الشيراوى : « لو أن الأحاديث وحدها هى عطاء الرسول لما أسعفته حياته بكل هذا الركام المنسوب إليه » . وهذه الكلمة . وإن وردت على لسان إحدى شخصيات الرواية ، إلا أنها تعكس رأى المؤلف ، لأن الرواية كلها ، كما ذكرنا من قبل ، تقوم على تناول فكرة . ونحن لا نشك فى أن هناك أحاديث كثيرة مكذوبة على الرسول ، وخاصة من جانب الشيعة والخوارج . وهناك أشخاص معروفون مثل كعب الأحبار اتهمهم علماء الحديث بالكذب على النبى صلى الله عليه وسلم . . كل هذا صحيح ، ولكن اللجوء إلى حجة متصلة بسنوات العمر وجعلها مبررا للقول بذلك أمر لا يتفق مع منطق الأمور : فالنبى صلى الله عليه وسلم ، كما وصف فى سورة النجم ، « ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى » ، والنبى صلى الله عليه وسلم أقام دولة الإسلام وحضارته العملاقة الزاهرة فى ثلاثة وعشرين عاما فقط ، ثم إن أقواله وأفعاله كلها تعد أحاديث وتدخل فى التشريع . ولو أننا جمعنا خطب أحد الزعماء الملهمين فى مدة كهذه لبلغت عددا لا يحصى من المجلدات . . فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بنبى الإسلام الذى كانت معجزته هى الفصاحة والبلاغة !! .

وعلى كل حال فإن هذه الهنات لا صلة لها بالبناء الفنى من قريب أو بعيد ، وكل هدفنا من وراء النص عليها هو أن يعيد المؤلف النظر فيها عند إصدار الطبعة الثانية .

القاهرة : حامد يوسف أبو أحمد

الهوامش

(١) نشر هذا الحديث فى the new york times book review تحت عنوان Kundera on the Novel فى يناير ١٩٧٨ .

(٢) يطلق اسم « جيل الستينيات » عادة على مجموعة من المبدعين فى فن الرواية بدءوا إنتاجهم الأدبى فى عقد الستينيات متأثرين بمن سبقوهم

وبالأخص نجيب محفوظ ويوسف إدريس ، ومحاولين البحث عن طريق جديد للرواية العربية . ومن أبرز هؤلاء صنع الله إبراهيم ويوسف القعيد ومحمد جبريل وجمال الغيطانى وإبراهيم أصلان وعبد الحكيم قاسم ومجيد طوبيا .

(٣) شاع لقب « ماركيز » عندنا مع أنه خطأ . وسبب شيوعه على هذا النحو هو أن أعماله نقلت إلى اللغة العربية مترجمة عن الفرنسية . وصحة الاسم ماركث MARQUEZ حسبما تنطق الكلمة بالأسبانية وهى اللغة التى يكتب بها كل كتاب أمريكا اللاتينية . أما كلمة « ماركيز » فلقب من ألقاب النبلاء فى أوربا ولا صلة لها إطلاقا باسم الكاتب الكولومبى الذى ولد ونشأ فى بيت فقير فى إحدى قرى كولومبيا المعزولة عن العالم .

(٤) خوليو أورتيجا ، مجلة العالم المتحدث بالإسبانية (فيلا دلفيا) خريف عام ١٩٧٨ ، العدد رقم ٤ ، مقال تحت عنوان « خريف البطريرك النص والثقافة » .

(٥) سوف تكون الإشارة إلى الرواية فى طبعتها الأولى ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٨٤ .

(٦) انظر محمد محمود عبد الرازق . « إمام آخر الزمان » دراسة فى مجلة « إبداع » عدد يناير ١٩٨٦ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) جابر بيل جارثيا ماركيز ــ ماريو فارجاس أيوسا ، « القصة فى أمريكا اللاتينية ــ حوار » ، ليما ، ١٩٦٧ .

(٩) انظر محمد محمود عبد الرازق ، المقال المذكور .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

الملكـــــــــــة

أحـــمـــد ســـويـــلم

ـ مملكتى العشقُ .. وأنتِ التيجانُ الورديةُ .. أنت الشاراتُ .. الأوسمةُ .. وأنتِ الملكة ..

ـ عندكِ ذاكرةُ الماضى تسقطُ .. كى تتجدَّد فى شطّيْكِ سطوراً من ألَقٍ .. خطواً ممتداً .. نقشاً .. جراً لا يهدأ .. مطراً يغسلُنى .. تأتى غيمته من عينيك .. يطهِّرنى .. ويعطّرنى .. ويلقّننى كلَّ طقوسِ الحب .. ويُفسحُ لى فى الآفاقِ .. فيلقانى مَلَكٌ يحملنى فوق جناحيهِ من صحراءِ الحيرةِ .. يسألنى عن وردتِكِ الأولى .. أنزعها من صدرى .. تتفتّحُ فى هذا الألقِ العُلوى .. أطوفُ به .. أتلاشى .. أشعُرُ بالرعدةِ .. أسألُ عنكِ .. فيأتينى صوتُكِ عبر الريح يسامرُنى .. أعبرُ لحظتَها الصخرَ .. البحرَ .. الأسلاكَ القاتلةَ .. وكتب الموتى والأحياءِ ... ويقتربُ الصوت .. فأعبُرُ .. لا توقفُنى أوجاعُ القدمينْ .. ولا تكسرُنى الرعشةُ .. يقتربُ الصوتُ .. فأصعدهُ سبياً .. سبياً .. أغزُو الأسوارَ .. يناديني صوتُكِ .. أبتلعُ النارَ .. فأخترقُ الكونَ بلا ريح عاتيةٍ حتى ألقاكِ .. وبين يدى وردتُك الأولى أرشقُها فى صدرك ..

ـ فُتحتْ أبوابُ العمرِ القادمِ بين يديكِ .. وفُتحت كلُّ بساتين الورد .. وذقتُ حلاوة هذا الشهدِ الناريِّ .. وعافت نفسى كلَّ بساتين الأرضِ الذابلةِ .. وألصقتُ شفاهى فى صدركِ .. فانطلقت فى آفاق الحُلم عصافيرٌ تشدو .. وتدقّ طبولَ الفرحِ .. وتعزفُ أنغاماً تشعلُ فى القلبِ نخيلاً خصباً .. أنهاراً .. ونقوشاً خالدةً .. وتجيء من الغيب ملائكةُ الله .. فيهرُبُ من ساحتها الشيطانُ .. وتنأى الجنيّاتُ .. ويأوى الملاحون إلى أرصفةِ البحر ..

ـ هذا وقتُ لقائكِ يامولاتى . . فى يدك عصاك القدسيةُ تضربُ قلبَ الماءِ فينشقُّ . . وتهمسُ للعفريتِ ليأتىَ بالأخبارِ . . فيرحلُ . . يرحلُ . . يرجعُ مشتعلاً غيظاً . . فتنادين علىَّ . . أجيئُك من بين غبارِ السَّفر . . ومن بين الأزمنةِ الراحلةِ . . وبين الوجعِ المتوقّد . . أشدو لحنَ الدفءِ . . وأسكُنُ عينيكِ . . وأغلقُ هُدبيْكِ على جَسَدى . . لا أبغى أن أشهدَ إلا هذا السِّرَ المتجدِّدَ . . يمتدّ جوارى نهرُكِ . . أتفيأُ ظلَّ نخيلك . . أسترخى فوق العشبِ الظامئ . . أنظُرُ آفاقى فى عينيكِ الطيّبتين . ! .

ـ مملكتى أنتِ
وأنتِ الملكةُ ـ فاتنةً ـ تسقين السِّحْر
وتأوينَ القلب . .
وتجودينَ بكل الحب . !

أحمد سويلم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زيـــــــــــارة

خليـــفة الوقيـــان

تأتين
يلبس الزمان حُلّة أخرى
يغيرّ المكان حالهُ
تُبدِّل الأشياءُ جوهراً قديماً

*

تأتينَ
تمشينَ
كمشية القطا
يوقّع الكعبُ الخُطى
موسيقى
يزغرد الفستان
تحضن الألوان بعضَها
من أزرقٍ وأبيضٍ وأحمرٍ ريّانْ
تُطلّ في ارتعاشها
قوسَ قُزحْ
موزّداً مزوّقاً
تحوكه نسائم الفرحْ
ينسفح العطر البخور في الطريق
غيمة لظىً
حريقاً

*

تأتين
يخضلّ المدى
يرفّ لؤلؤ الندى
متوّجاً براعمَ الجُوريّ والقرنفل
تحطّ فوقها فراشتان
ترقصان ترشفان
خمرة العتاب والتدللّ

*

تأتين
يا شمس الشتاء
بسمة من السماء
باقة من الضياء
ثرّة الحنانْ
فتعشب القفار
ترتدي حُليّها
فستانها الجديدْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لموعد فريدْ
تورّدت من خفر له شقائق الخدودْ
وعانق النُوّار فى تَدلّهٍ ثغور الاقحوانْ

*

تأتين
فتنة
بدائعاً موسقه
وكرمة معتّقه

قد طال حبسها
فى ظلمة الدنانْ
فانَضجتها سَورةُ الحبس
وشب فى أعراقها
توْقٌ إلى الشمس
تفتقت أختامها
فشعشعت أنوارها
تشق عارض الزمانْ
تردّ غربة المكانْ .

الكويت : خليفه الوقيان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقفة للسمسار الأخير

زهور دكسن

من رياش التوجُّسِ للقلب تنطلقُ الأسئلةْ
تتوزعُ أصداءَها المائلةْ .
غِبَّ شمسِ الغروبِ . . وليلِ الطيوبِ تغادر عشتار
فى أوّل القافلةْ . .
لم يكن بينها والتواصل إلا كما يوصل
النومُ بالهُدْب
والقِشرُ باللُّبِّ
والظُفْر بالأنملةْ .

*

للتزودِ من نخلةِ الله أُفْقٌ مطارفُهُ من نسيجِ الغمائمْ
ملاعبُهُ الصبواتُ الحمائمْ
سرائرهُ العُشبُ خضَّبَ وجْهَ الحصَى . .
يفجأ النارَ والنجمةَ الآفلةْ
من رياش التَوَجُّسِ للقلب تنطلقُ الأسئلةْ
إنه الليل يا سهْلُ مُرْ صَحْبكَ الأربعين
وكن أوّلَ الطالعين إلى زفّةِ الشمسُ للسنبلةْ !
المدى يستدقُّ وتنغلقُ الريح إلاّ بما

يُمطر السُحْبَ

أو يمطر الجرحَ
أو يمطر البَلْبلةْ !
من رياش التَوَجُّسِ للقلب تنطلق الأسئلةْ
يا صديقي الذي أنت
يا أول الصائتين
ويا آخر الصامتين . . ويا قبلةَ
البدء والبسملةْ
من ترى . . يقحمُ الفَوْتَ . . من يقهر الموت
من يكسرُ القيدَ والمقصلةْ ؟

ترمق الأرض ريحانة الروح أوطارُها العِطْرُ والمكْحلَة
من يشيعُ النشيدْ ؟
يمسد قطْرَ الورود ؟
يَلفُّ البيارقَ بالشهْبِ إن شعَّ وجهُ الشهيد !
يا صديقي الذي أنت . . ياشامخا . . كالحدود !
يغمر الدَّمُ أثوابَنا . . يتوسدُ أجسادنا
ويدقُّ النشيدُ على مُدُنٍ مقفلةْ !

بغداد : زهور دكسن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رؤيــــة جـــديـــدة لشتـــاء قـــديم

مـــدحـــت قـــاســـم

أَهْدَأُ فى آخِرِ يَوْمِى الدَّامِى
أَتَحَسَّسُ وَجْهِى . . أَتَلَمَّسُ مَوْقِعَ أَقْدَامِى
فأكَادُ أُجَنُّ

*

أوقِنُ أنَّ الغربةَ قَدَرِى
لِكنِّى فى بَعْضِ الأَوْقَاتْ
أَخْدَعُ نَفْسِى
أَتَصَوَّرُ وَرَقَ الشَّجَرِ السَّاقِطِ عَبْرَ الطُّرُقَاتْ
عُشْبِى وَبَرَاعِمَ زَهْرِى
أَحْتَضِنُ الوهَم لِلَحَظَاتْ
وأُدَقِّقُ نَظَرِى
فَأَكَادُ أُجَنُّ

*

عَيْنَاكِ اليَوْمْ
صُحُفُ الأَمْسِ المَقْرُوءَةُ فى أَيْدِى القَوْمْ

*

أَخْرُجُ للشَارِعِ وكَأَنِّى أَخْرُجُ لِزِيَارَةِ مَوْتَانَا فى القبرْ

أَتَحَسَّرُ يا مصرُ وأبكى
لكِنِّى فى عُنْفِ بُكَائِى
حِينَ تَمُوجِينَ بأَحْشَائِى
أَدْرِكُ أَنَّ الصَّوْتَ الخافتَ لا يَعْنِي الموتْ
أَعْدُو . . أَتَعَرَّى
أَهْتِفُ بِاسْمِكْ
وكَمَوْجِ البحرْ
أَمْسَحُ عن عَيْنَيْكِ الأَحزانْ
وأُضَمِّكِ لى
نَتَمَدَّدُ فَوْقَ العُشْبِ مَعاً
نَتَدَثَّرُ بِنَخِيلِكْ
وَنَذُوبُ مَعاً . . وَنَذُوبُ مَعاً

*

حِينَ نَكُونُ على مَوْعِدْ
تَتَحَدَّدُ أَبْعَادُ العالمِ حَوْلِى
وأُصَادِقُ أَوَّلَ وَجْهٍ يَضْحَكُ لِى

القاهرة : مدحت قاسم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مـتـتـــــالـــيات

درويـــش الأسيوطـى

(١) لؤلؤ الأهداب :

كفّى يا حلوة العينينِ
لُمِّىْ لؤلؤ الأهداب
واكتحلى ببسمتك التى تعطى
زهور الروض فى الجنّات
رونقها
وتعطى أنجم الأفلاك
والأقمار فى الدنيا
تألّقها
وتعطى للحياة القفر
رقّتها فأعشقها
كفّى يا حلوة العينين
فيم الدمع . . ؟
مازالت لنا الدنيا
ومغربها ومشرقها
ومازالت بأيدينا
طيور الحلم نخلقها
ونُطلقها
فتشدو بالهوى والشعر
والأشواقِ . . .
يفهم شدوها العشّاقُ
يستعصى على الثّقلينْ منطقها .

*

كفى يا حلوة العينين
لُمِّىْ لؤلؤ الأهداب
وابتسمى . . .

(٢) تسبيحة :

سبِّحى للمطر . .
وانثرى شعرك الهمجىَّ على كتفى
ينْبتُ الماءُ فى ليل شعرك
حقلا من الياسمين . .
وكوْناً من الأنجم المشتهاة
وسبع بحار من العطر
يسبح فى كل بحرٍ قمرْ .
سبِّحى للمطر . .

*

حين يُدخلنا الماء
من برزخ الوقف
للمنتهى الوصل . .
نصبح نهراً من الاندهاش
ويصبح حبُّك
فى لجّة التيه ذات الدُّسُرْ
سبُّحى للمطر . . .

(٣) النهر :

وحين يباركنا النهر بالماء والخصب
تشَّقَّقُ الأرضُ
ينسلُّ من أضلع الناسِ
خيطٌ من الإخضرارْ
يلوّن وجه الصباح
يلوّن الحدائق
يكتب فى جبهة الأمسيات/النهارْ
[ألاَ إننى النهر . . .
آتٍ كما جئت
من ظلمة الأمسيات الوحيدةِ

أمسح عن سُرّة الأرض
وشْمَ التصحّر
والإنهيار .]

(٤) الأرض

سارت الأرض للنهر
أفضت إلى حلمها بالتواصلِ
غنت على مدخل الغيبِ
بلَلَ جفنَ التشوّقِ
دمعُ الندى . . .
إنها الأرض تخرج للنهر
تطلبه ،
تستحث المواعيد ، تسبقها ،
حين تلتحم الأرض بالنهر
تُقتحمُ الأرض بالنهر
يشرق فجر الخصوبة ،
تورق أيامنا بالفوارس
والخيلِ . . .
والإنتصار . . . .

درويش الأسيوطى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

تفاحة الغربة

عبد الستار سليم

(١)

رياح الخليج تعانقنى فى الصباح
وترسم صورتها ـ فوق وجهى ـ عند المساء .
فيحملنى للبعيد النداء
أُجَزَّأُ بين سَنِين المحار .
وسُكْر الدُّوَار .
وجنّية البحر حين تواعدنى الليل
ـ والليل فارس ـ
وهذا الخليج يجوّفنى ويعبّئنى
بالنوارس
فيفقدنى الليل عبر ثقوب التسرّب
فمن ـ ياترى ـ يستطيع منادمة
المستهام الذى أفرغته المسافات
من كل شىء
تآكل داخله الحرف . .
أفرخ فى قدميه الكلال ؟!
فراقِصْ رؤ اك . . وَغَنِّ المحُال
وعِمْ وَجَعاً يا رفيق التغرّب
فإن الخليج الذى ـ بالتجمع ـ واعَدَنا

أنجز الوعد . . فامدُدْ يديك
أُعَبِّئُها ــ لك ــ بالقيظ والرَّملِ
والزمن المتقطّع بين
شعاب الضلوع وبين رؤوس الجبالْ
فها أنذا قد تعلّقت ــ مثلكَ ــ
فوق صوارى السؤالْ
وليس المكبّل بالعشق ــ يا صاحبَ
العشق ــ مثل الطليقْ
فَعِمْ أَرَقاً يا صديقْ
وإنْ طال بالسير طول السُّرَى
والمسارْ
نَعِمْتَ مساءً
وَعِمْتَ شراءً . .
لكل بضائع عصر التصحّر . . والإنكسار !

(٢)

صديقيَ عَفْوَكْ
تداخلت الأغنيات وشَخْبُ العذاب
من الجرح
غيّرت الشمس كل مطالعها

فتعاكست الكلمات بداخلنا
ومضى يخفت الصوت . .
يخفت . . يخفتْ
وقيثارة الشمس قد هجرت قوسها
فاستبدّ بها الصمتُ
كيف تسيغ ارتشاف الترنّم . .
والملح ينمو على جانبيه . .
ونَصْلُ التوجّع يرجف عبْر حنايا
الصدورْ ؟
تصوّحت الشجرات التى فى البساتينِ
واقفة فتفجّر بالدمع شَدْوُ
الطيور الشريده
فمن لى بأُذْن تُعدّل لحن القصيدة ؟!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٣)

ونَقْضم تفاحة البُعد . . تحت
سياط الظهيره
وتركض عنّا خيول الغيوم المطيره
وتثْلم ــ منّا ــ السيوف
وتنتصب اليوم قاماتنا ــ يارفيقيَ ــ
لا للنزال . . ولكنّ طقس التطلّع
نحو البلاد البعيدة يعتادنا
وصوت الصغار يجيء إلينا
فيقتادنا
ــ فنحن هناك ولسنا هنا ــ
هناك ــ لدى الأهل ــ بين الدروب
وحول الموائد
وتحت جذور النبات . . وفوق
حصير المساجد
فَعِمْ غَضَباً ياصديق
إذا ما تسلّيت ــ يوماً ــ بصُنْع الغضب
فلا يُصلح الوجدُ كسراً . .
ولا الموجدَه
ونحن هنا نتسلّى . . بلا أفئده

(٤)

تدلت إلينا النجوم فَأَرْعَبَنَا قربُها
وَهَرَبْنَا لداخلنا علّنا نحتمى
بالكهوف وحبل عُرانا الوثيقه
وقد شهر الشوق ــ فى وجهنا ــ
سفه الأحيليّ .
وليس لدىّ دم كي أريقه
فلا تَكُ منّى بعيداً
فقد دار بى فَلَكُ الإغتراب
وها نحن « نقضم تفاحة الغربة
المعدنية » . .
وتصفِرُ فى جوفنا الريح . . تصفر . .
تصفر . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وشيئاً فشيئا . . إلى أن تلاشى
ـ بداخلنا ـ البحر وانكسر الكأس . .
واحتدّ جسم الصدى
واستعاذ الطريق بسيّارةٍ
يرسلون إلى الجُب وارِدَهم
فى نهار المدى
فليت الحروف التى تتراقص فوق
الجدار يعانقها المطرُ
الموسمىّ . . فتُورق تحت الجراح
تُغيّر لون السماء . .
وتقفل درب الرياح ، ،

سلطنة عمان : عبد الستار سليم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سقوط

شرقاوى حافظ

افتحى عِلّة الخروج ،
وفى سفر النهايات علّلِى ترحالى
وادْخُلينى بوابةً
وزّعَ البَوْح شذاها
فى هدأتى ، وانفعالى
قاسمينى الجراحَ
فى البحر وجهان استطالا
وعربدَا بخيالى
ياالهاتين الصفحتين .
على وجه الرمال استبدّتا بظلالى
تنسجان الرياحَ
قوساً من الآلام .
يغزو سكينة التمثالِ .
أنتَ ؟
ما أنتَ غير جُرْحٍ جنوبى
تغطّى بأمسيات الشمالِ

يتخفىّ حين الصباحُ ،
ويُخفى وجهَه فى عباءة اللا مبالى
تستبيك الحسانُ ،
تسقطُ ،
تستمرئ دور السقوط .
بين الليالى
تخلع الشرقَ
والطباعَ الصعيدية
تغتالها ببنت الدوالى
جَدُّك الفرعون احتراقٌ
على حافَتِك المستباحة الأوصال ،
فأفِقْ !
لا البحارُ ــ إن شئتَ ــ تنضو ملحها
أو ملح البحار بقالى
أيّهُذا الذى توضّا من الليل ،
وصلىّ فى بوتقات الجمال .

شرقاوى حافظ

مســـــاء الخـــــير يـــاوطـــــنى

عبد الرحمن صالح العشماوى

مساء الخير يا وطنى . . .
أتيتُك أنقش الإصرار فى بوّابة الزَمَنِ
أتيتك . .
هيبَةُ التأريخ من خلفى
ونور الحق يطرد من أمامى ظلمةَ الفِتَنِ
أتيتكَ . .
أحمل الرشّاش فى كفٍّ
وفى أخرى حملت لفافةَ الكفَنِ
مساء الخير يا وطنى . .
لقد سيَّرتُ فى بحر المآسى أعظمَ السُّفُنِ
ملأتُ فؤادىَ الخاوى بنور الله
كى أحميك يا وطنى
أتيتك والرُّؤى البيضاءُ تَتْبَعُنى
أتيتُك . .
والهواء الطَّلْق يعزفنى
أتيتك بلبلاً يشدو
يثير كوامنَ الفَنَنِ
أتيتك ــ أيُّها الغالى ــ
نشيداً يَعْرُبيَّ اللحنِ ، ثَغْرُ المجد يُنشدنى
أتيتُك . .
بعد أعوامٍ من الإخلاد والتضليل ــ يا وطنى ــ
مساء الخير يا وطنى
مساءَ شريعة سَمْحَهْ
مساءَ الخير والإيمان والفرحَهْ
مساء الريح . . .
حين يظل يندب غيرُنا رِبْحَهْ
مساء قوافل الإيمانِ
تفتح صفحةً فى دفتر الأمجادِ
تأتى بعدها صفحَهْ
مساء الخير يا وطنى
وعُذْرَاً . .
إنْ سردْتُ حكايتى وكشفتُ عن شجنى
وإن حَمَّلْتُ سرّى ما يفرُّ به
إلىٰ عَلَنى
وإنْ ناديت قومى فى تخوم الشام واليمنِ
وفى مصرٍ وبغدادٍ وأرض المغرب العربىِّ
أو عَدَنِ
وفى أرض الجزيرةِ مهبط الوحى المبين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وشامةِ الزَّمَنِ
أناديهم . .
أحدِّثهم بما جلب العدوُّ إليك يا وطنى .
دعونى يابنى قومى أحدثكم . .
ففى قلبى جراحٌ ما لها آخرْ
وفى نفسى خرائط حسرةٍ
مازال يرسمها لى الغادرْ
وفى عينى رُؤى بحرٍ ،
وفى سمعى صدىً من موجه الهادرْ
دعونى يابنى قومى أحدثكم عن الماضى
وماذا يطلب الحاضرْ
دعونى يا بنى قومى أحدثكم عن الباغى
وما جلبتْ يداه إلىٰ فلسطينِ
عن الرَّشَّاشِ يأكل صَدْرَ مسكينِ
دعونى ــ يابنى قومى أحدثكم
عـن الآهات فى وجدان زيتونِ
عن الدَّمع الذى يجرى
دماً فى مقلة التينِ
عن الإجرامِ . .
كيف يعشِّش الإجرامُ فى أهداب صهيونِ
سأنطق ــ يابنى قومى ــ
وسوف أُقيل هذا الصمتَ
من كرسىٍّ منصبه
وسوف أجرِّد « النمرود » من أثواب سلطتهِ
وأحرق وجه موكبه
وسوف أحدِّث الدنيا
بما فعل الطغاةُ بنا
فكم شربوا وكم أكلوا
وكم بصقوا علىٰ وجهٍ وكم قتلوا
وكم لثموا على نَخْبِ انتكاستنا
كؤوس الخمر واحتفلوا
وكم وجلوا . .

ولكنّا سكنّا كَهْفَ فُرقتنا . .
فما وجلوا
وكم وصلوا . .
لأنّا لم نقف فى دربهم
وصَلوا
وكم ذهلوا . .
لأنّا لم نحركْ ساكناً
ذهِلوا .
تعالوا يابنى قومى . .
لكى تتعلّموا فى أرضنا لغةَ الجراحِ
ومنطق الحسرَهْ
وحتى تأخذوا من حالنا عِبْرَهْ
وحتى تأكلوا من خبزنا
كسرَهْ
تعالوا . .
وأقرأوا فى وجه ليلىٰ قصّةَ العُسْرَهْ
تعالوا . .
لن تموتوا ــ يا أُباةَ الضَّيمْ ــ من جوعٍ
فإنّ جياعنا سيقدِّمون لكم طعاماً
دونما أجرَهْ
ولا تخشوا علىٰ أجسامكم بَرْدَاً
فسوف يقدِّم الأيتام من أطمارهم لُحُفَاً
ولكنْ ــ يابنى قومى ــ
أجيبونا ولو مرَّهْ
تعالوا ــ يابنى قومى ــ
أنا منكم وفيكم مسلمٌ ولسانَ الفُصْحَى
وقد تُمْحَىٰ جميع مظاهر الدنيا
وإيمانى بربِّ الكونِ
لا يُمْحَىٰ
أنا منكم وفيكم
غير أنَّ الجرحَ يُنجب فى دمى جُرْحَا
ونارُ الحزن تلفح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خاطرى لَفْحَا
أنا منكم وفيكم
سوف ألقاكم مساءً يابنى قومى
إذا فارقتكم صُبْحَا
تعالوا . .
وامتطوا خيل التذكُّر نحو ماضينا
لعلّ تذكُّرَ الماضى
يجمّعنا ويُدنينا
تعالوا
متّعوا أنظاركم
واستذكروا « بدراً » و « حطّينا »
تعالوا . .
سوف أخبركم بأنى ــ يابنى قومى ــ
إذا ما داعب التأريخُ ذاكرتى
شَمَمْتُ مفاخر الأمّهْ
رأيت المجد يضحك فى مرابعها
وينسىٰ عندها همّهْ
وأبصرت اللّحَىٰ
وعمائمَ الأبطالِ
فى القمّهْ
رأيتُ الليل ينسىٰ فى مدىٰ أنوارها الظُّلْمَهْ
دعونى ــ يابنى قومى ــ

دعونى أخبر القمرَ المنيرَ بلهفة النجمَهْ
وأغسل بالدِّماءِ
نجاسة الوَصْمَهْ
دعونى أحلبُ الصَّمْتَ الطويلَ
وأرسل الحكمَهْ
دعونى ــ يابنى قومى ــ أحدثكم
عن المأساةِ فى القدسِ
عن المأساةِ فى غزّهْ
عن المأساة فى حيفا وفى يافا
وكيف تحوّلت آهاتُنا العُظمىٰ إلىٰ هزّهْ
وكيف تحرّكتْ فينا بطولتُنا . .
فقمنا نطلب العزّهْ
مساءَ الخيرِ يا وطنى
مساءَ القُدْسِ والريحانِ والكادى
مساءَ عراقة التاريخ يا وطنى
مساءَ زمانِ ميلادى
مساءَ عقيدة الإسلامِ
تمحو كلَّ إلحادِ . .
وترفع رايةَ الإنصاف فى سفحٍ وفى وادى
مساءَ الخيرِ يا وطنى
يجىء محمّلاً بعبير إنشادى
مساء الخير يا وطنى

الرياض : عبد الرحمن صالح العشماوى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

الخـــروج مـن الـتـوابيت الحجريـــة

أحمـــد غـــــراب

إلى عـيـنـيـكِ أهْـفُـو لـو رحـلْتُ
وفى جـفْـنـيـكِ مـن زمـنى اغْـتـسـلتُ
وفى دِفْءِ الحـنـوِّ غـمـسْـتُ عـمـرى
فـذاب رُكـامُ أيّـامـى وذبْـتُ
وفى غـيـبـوبـةٍ شـقـراءَ أنْـسـى
تـضـاريـسـى الـتى ضـاعـت وضـعْـتُ
وكـيـف نـبـشْـتُ عن نـفـسـى سـنـيـناً
فـحـطّـمْـتُ الـمـعـاولَ وانْـحـطـمـتُ
وكـيـف أنْـدسُّ غـيـرى تحـت جـلْدى
وكـيـف بـسـاكـنى الـمـجـهـول ضِـقْـتُ

يُهاجِسنى :
ـ تلوَّنْ

ـ لا . . . محالٌ
مـرايـا الـطـهْـر تـأبى لـو قـبـلْتُ
ـ تـعـلَّم أن تـكـون بـلا جـبـينٍ
ـ لـقـد حـاولـتُ لـكـنى فـشـلْتُ
وأغْـرانى الـتـسـكُّـعُ فى غـضـونى
وراء الحـرْف لـو أنّى اسْـتـرحـتُ

فهذا الطحلْبُ الملعونُ يطْفُو
متى ماتت مجاديفى ومتُّ
فهل أرتدُّ يانار التحدِّى ؟
سيأكلنى الرماد إذا انطفأتُ
أألْغى عزمتى .. عنوانَ صوتى
أأخْنق موْقدى ولدىَّ زيْتُ ؟!
وكيف أغضّ من يأس وخوفِ
جبينى وهو أغْلى ما امْتلكت
نعم تشْوى عليه دمى العشايا
ولكنى أكون إذا احترقْتُ
ــ إذن تبتاع وجهاً غير هذا
ــ أكونُ قبيْل معْركتى انْهزمتُ
ــ بهذا الوجه لن تجْتاح (روما)
ــ بهذا الوجه (روما) قد أسرْتُ
ــ توخَّ الصمْتَ
ــ تطلبُ مستحيلاً .
سيُورق من رذاذ الصمْتِ صوْتُ
ــ تَغَابَ ولو قليلاً
ــ كنتُ أغْبىَ
من الجدرانِ .. أغْبىَ ما اسْتطعتُ
ردمْتُ بداخلى أنهار حسِّى
وفوق حطام أشْرعتى انكفأتُ
طهوْتُ على براكين انْخذالى
رغيفى . حبْرَ أشعارى شربتُ
وأجْهضْتُ المصابيح الحبُالَى
بوجدانى لأغفُو .. ما غفوتُ
وجدتُ العالَمَ الحجرىَّ يُذْكِى
بأحطابى (نيون) السوق . ثرْتُ
وجدتُ يديه تعْبثُ فى ترابى
تغيِّرنى إلى شكْلٍ كرهتُ
فمى (حانوتُ قصَّابٍ) جبينى
(بنُوكٌ) . داخلى مالاً عرفتُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتحت رماد أخلى أمنياتى
توارى كلُّ ما كانت وكنتُ

*

هنا يهفُو لعينيكِ ارتحالى
لأصْرخ فى جفونكِ قد يئستُ
أثمَّ ولادةٌ أُخْرى ؟ أجيبى
حرامٌ أن أموت وما ولدتُ

القاهرة : أحمد غراب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التشتت

هشام عبد الكريم

نصفى أضعْت
نصفى وجدت
يالى ـ أنا المسكينُ ـ
ماذا بِي صنعت ؟

سأظلُّ أذكرنِي
وأرمينى
بآجُرِّ الفؤادْ
أنا لسْتُنى
لكننى
شبحٌ تلفّعَ بالرمادْ

طوبى لنفسى
كيف تحتمل الليالى
حين لا قمرٌ
ولا نجمٌ يضىءُ
لكى أرى
بُقيا خيالى ؟

طوبى
لعينىَّ اللتين
ابيضتا حزناً عَلَى
طوبى لنفسى
وهى تصرخ
بِي : تجلّدْ يابنى !

« ما هكذا ، تردُ الأبل »
سأقولها
يا أيها الرجلُ الثملْ
وأُعيدها
علَّ الذى
ألقاكَ ، فى يمِّ
من الوهم المدمّىٰ
يرمى إليك
ببعضِ أثيابِ الخجلْ

نينوى ـ العراق : هشام عبد الكريم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غـــــزالة بـــريـــــــة

أحـــمد الحـــوتى

يأتى صباحُكَ . .
من هنا ،
وهنا تُواصل زهوها الأيامُ
فابدأ . . من هنا
وأرحل إلى دمك القريبِ
وكُن على رمح المنى
فالأرض تبدأ من هنا
والبحر . . يبدأُ
والقصيده . . ،
وهنا تكون ــ كما تودُّ ــ الأبجديّةُ
والبشاراتُ الجديده .
حجر صغير هيّأ الأحلامَ
طوّح بالرغيف/القيدِ
والصمغ الكثيفِ
وحطّم اللغة البليده .

*

يأتى صباحك . . من هنا
هو لا يغيبْ
والبحر يصرف موجَهُ
مُتهيّئاً لشجيرة الوطن القريبْ
والنورسُ الفضىّ يرحل خلف نجمتهِ
ولون الشارع العربى
يبدأُ . .
من طفولتهِ
ويبدأُ . . من حجارتهِ
ويبدأُ . .
ثم يبدأ فى تساؤلهِ
ويسألُ :
من يجيب ؟

*

الآن مَوْجِدةٌ . . تُشاغلنى
فأُصغى نحوها
وأصيحُ :
ذَرْنى
أيها الموت الرهيب !

وغزالةٌ
تشتاق موعدها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا يبقى سوى رمل الطريق
الآن تنظر فى فضاء الكونِ
لا وطن بحجم طموحها
والكون أضيق من أمومتها
وليس الجرح فى وطنى
يضيق !

*

أيا بنات الحور
فُكىً خناق البدر
هُزّى رتّاج النور
يُوفى لنا بالنّذْر
من غيهْب الدّيجُور .
أيا بنات الجنة
سلاسلُ الأعنّه

تُدميه . .
والأجنّه . .
فى صدره المقهور

*

غزالةً . . برّيه
فى الضفة الغربيّه
تصيحُ ـ
والرصاص
حولها ـ
حُرّيةً
حُريّه
حُرّيةً
حُريّه .

القاهرة : أحمد الحوتى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصـــــائد قـصيـــــرة

لطـفى عبـد المـعـــطى مـــطـــاوع

الصباحُ الصّقيع :

يَسْعل النّخلُ ،
تحت جناح الصباح الصقيعِ ،
فتفزع كل الطيورِ ،
إلى رحم السُّحْبِ ،
قابضةً بين منقارها العربيِّ ،
بنيها ــ وُرَيقةَ توتٍ ترفُّ
تُناجى مرايا التلالِ ،
السهولِ ،
وتَنْشدُ فى جنبات الماءِ المغبَّرِ ،
دفءَ النخيل المفزَّعِ ،
طَعْمَ النخيل المفزَّعِ ،
تهوى شريدهْ ــ
وتركبُ مَرْكبةً بالرياحِ السمومِ ،
وتمرق تحت الدُّخانِ
الزفير ،
لتسقطَ فوق النخيل الملوَّن ،
خلف جسور الوطنْ .

الطيور :

مُدَّ للطيرِ حُرَّ الجناحِ ،
وفرْط الصباحِ ،
ولا تبخس الكيلَ ،
إن الجراب يفيض على الشاطئينِ ،
بدمْع القواقع ،
يا سيدى ؛
أقطف الدَّمعَ عنّا
ورصِّع علينا الوشاحَ ،
فإن الجزيرةَ ،
مُذْ فارقتْنا ظلالُكَ ،
يعبث فيها الكُساحُ ،
المشيبُ ،
ويُجْهَضُ فيها الصدى
جَدِّد العهْدَ ،
إن الجبينَ ،
الشراعَ ،
يغور ببطن الرمالِ ،

وتبقى الرياحُ ،
تَهيضُ فراخَ
التى تنتمى .

*

المساءُ الأخير

حين يرمى المساءُ الظلالَ
رسوماً
تشكّلُ طيراً ،
وخيلاً
أفاعىَ ،
تَرْقد فى زاويات الجدار وتَنْهضُ ،
يَنْهض سُلُّكَ

رَبْوُكَ

تبكى
تمدُّ جناحكَ فوق الفراخ وتبكى ،
فتسقط عينُكَ من محجريكَ ،
بكفِّ المساءِ ،
وتَنْزِفُ ،
آهٍ ويفنى الصدىٰ
تَسْتقلُّ شراعَ المساءِ ،
تجدف . . يعلو النداء
تجدِّفُ . . يعلو الصراخُ ،
تنامُ . . تنامُ وتغرق . . . آهْ .

المحلة الكبرى : القيصرية : لطفى عبد المعطى مطاوع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أشـــجـــار الخـــوف

فـــؤاد ســـليـــمان مـــغـــنم

* السبت

العيون محملةً بالعطشْ
وأنا كنت أنزع من زبد الضوء لؤلؤتى
وأعانق زقو العصافير
والحزن مختبئٌ فى غصون المساءِ
منحْتُ له الليلَ
ضفَّرْتُ من زهرة الشمس قُفلاً وزنزانةً
واصطفيت له من جحيم الشتات جنوداً
وأرْخْتهُ فى العَسَسْ
يتأبَّط مخلبُه الآن خاصرةَ الليل
لكنه يتسلّل مرتشفاً ضحْوة القلب
معتنقاً شملة الروح . راح يهزُّ النخيل بذاكراتى
فأمدُّ له حفنةً من عيونٍ محمَّلةٍ بالنجوم
يحاورها وينام قريراً على جثّتى

*

* الأحـــد

زمراً تتسرَّب فىَّ الوجوه
انظروا . . . . !

أىَ هذى الوجوه سأختار
أىّ الهزائم أدخل
والليل محتقنٌ بالبكاء ومشتعلٌ بالجنون
أى هذى المساحيق تسكننا
أرْخَت الزّفراتُ الملولةُ بعضَ أعنّتها
وسلالٌ من النار تحملها الروح
وجهان يختصمان ووجهان يلتحمان
ووجهان لا يبكيان ولا يضحكان
ووجهٌ تسرّب

حتى تسمّرت الزهراتُ الخجولةُ فى مدخل الموتِ
والموت مختبىء يتفيّأ حلم القناديل
فى أوّل الدار . فى آخر الدار
يفرش سجّادة فى الطريق إلى ضحكة تتأرجح فى السمتحيل
ويرشح جلدُ أصابعنا بالمخاوف
والصدر يصهل فيه الجنون
لكِ الآن أيتها الأوْجُه المستعارةُ
أنْ تتخفّىْ بصمتك أو تأنسى بالرحيل
ولى أن أموت كثيراً . . كثيراً
وأُبعث فى ألَق الشيب محتلباً شجراً من كلامٍ
وساقيةً من جنونْ

* الاثنين

يمامٌ على شجر القلب حطّ
فكيف أفزّعه بالرحيلِ
تـــرى
هل تبيض اليماماتُ فى مدخل الخوف
فى مدخل الموت ؟
لا تقربوا شرفةَ القلب
آنسْتُ هذى الوجوه الغضوبةَ تغمسُ فى الصدر
بعضَ نبوءاتِها بالصباح الحلوب
وبالوردة الذهبيّة
لا تُولوا القلب للنار

كيف أعانقكم
كيف ألبسكم
وأنا أتشكّل أغنيةً فى عروق اليمام

*

* الثلاثاء

العواصف مفعمةٌ بالرحيلِ
يفكُّ النهار عقالاتها
فتدكُّ حوافرها زفرات البنفسج والسنديان
وتسقط عند احتدام الصهيل المباغتِ
بعضُ المصابيح
لا يفصل الآن بينى وبين حوافرها
غير هذا الدَّم المتشبِّثِ بالدوران
وهذى الثياب التى ساومت هبّة الريح
واحتملت دمدماتِ الكهولةِ والهذيانِ القمىء

*

العواصفُ موقوتةٌ بانتحار النَّدى
والبنفسج متكىءٌ فوق أحزانه
يتلمَّظ وجه الصباح ويقتاتُ من عطش الوقت
تهرب عن جلده قطرات الأريجْ
العواصف موقوتةٌ باندثار الندى
والندى بين رائحة الخوف
محتمِلٌ جرحَهُ يستظلُّ بما فى السديم
من الورق الذابل المتغضّنِ
يلعقَ حزنَ الصباح وحزنَ المساءِ
[وديسمبر] الآن يكمُنُ فى كلِّ شىءٍ
فمن ذا يفكُّ حصار الندى
ويباغت وجه العواصف بالحائط المستحيل
ويقرأُ عند تفرُّده بالمدى بسورةَ الخوف
يُخرج سِرْبَ التعاويذ
سربَ التمائم فى الزمن الصعب
يَخرجُ من جسدِ الخوفِ ثم يُعيدُ الصفوفَ إلى شهقات المدى

ويعيدُ الدماء إلى شفة الغسق المتبجِّح
حتى يؤمَّ الصلاةَ رسولٌ من النيل
يفتح بابَ الطفولةِ
بابَ العذوبة
بابَ انتماء الندى للشجرْ
هل سيخْرُجُ من باطن الانتظار الطَّويل
سوى وجع السنبلةْ
وبذاكرتى غيَّر النيلُ بعضَ انتماءاتهِ
وتسرَّب فى حفنةٍ من قلوب مذبَّحةٍ
بحروف الهزائم والكلأ الدمويِّ
وغيَّر جنسيَّةَ الطُّعمى فى رأسه واستعاذ
برائحة الذكريَات
استعاذ بعُقم النخيلْ
والعواصف فى حِجْره الآن مفعمةٌ بالرحيلْ

*

* الأربعاء
تتبرّأ منك الجحورُ . . . المنافى
المطارات
أرصفةُ القول . مضبطة الصمت
رائحةُ البحر
والصحراءُ الخجولة بين خيول الرِّمال
فأى العواصم تأوى إلى حجرها
أيّنا صار وردًا وسيفاً ورائحةً من غبار القصيدةِ
أى النوافذ تحملُ أسماءنا
أيّنا يتحمَّل ضغثاً من الحلم فى قبضة الروح
ساخت بقاع الغدوِّ/الرواح انهيارتُنا
واندثارُ الندى
وانتحارُ الحقيقة أعمدةُ الروح
وجهى /وجهك يقتسمان على جدر الوقت أنْصِبَةَ الخوف
يقتلعان جذورَ انتماءاتنا للندى وحصان البكارةِ
ينغمسانِ بآنية الحلم شيئاً من العزف
شيئاً من النزف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قد ينطقان فينبجس الوقت مثلَ الدخان/الدماء
ومثل الخروج إلى دوْحةِ النّار
لسنا الذين يُعارُ لهم وطنٌ
أو تمدُّ لهم خيمةٌ كفُّها
العناوين ضائعةٌ فى السديم
وأنت تغازل نخلاً عقيماً
وليس لك الآن من رحم الأرض أو صدرها
غيرَ عكّازك المتغضّن يمضغه الحزنُ شيئاً فشيئاً
كأنَّ العواصفَ أنت
وأنت الهزائم . . . والوهم أنت
ويهزأ من حزنك الليل والصبحُ يهزأ
والكلأُ النابت الآن فى غابة الشوقِ
أى العواصف تحملك الآن
أى الجحور . . . وهذى الجحافل
هذا « سليمان » منكفىء يتسمَّعُ حُلْمَ الصقور
ولا يتسمَّعُ وهْجَ الدماء
أكَلَتْ صرخة النمل عند اتكاءته رقصاتُ الجراد
ستصرخ فى وجع الرمل
أى الجحور ستدخل
أى المدائن تحمل حلماً وحزناً
وتختار أسمالنا
والحقيقة يمضغها الرمل
تأكلها عجلاتُ الوجوه
وأدمغةُ الليل تخزِنُها
وتحوم عليها طيورُ النهار
رغم أنَّ المسافة بين العواصم والقدَمَيْن
حروفٌ مصمَّغةٌ تتساقط أرواحُنا فى الدوار

*

* الخميس

يكنس الضوءُ همْهَمَة الكلمات التى تتطاول
فى شرفة الليل
يندفق الصمت عبْر اتّساع الخطى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم تنشعُ قمصانُنا بأريج الشتاتْ
أتغرَّب كل صباح
وأحملُ فىَّ الوجوهَ التى سوف أدخلها
أتغرَّب كلَّ صباحٍ وفى شجر الخوف تندلعُ الرغبةُ المستحيلةُ
يُقلِعُ آخر حرفٍ بأغنية الزمن الطفل
أغنية الزمن الورد
تنمو المخاوف بين الأصابع والمسبحةْ
هذه الأرض تلقى مفاتحها ومفاتنها فى الشقوق
ونحن نطارحها ونطاردها فى شوارع أعمارنا
فتغيب الشوارعُ والأرضُ عابثة بالمطرْ
نتغرَّب كل صباحٍ
تصير المسافةُ بين الصلاةِ وأدمغةِ القائمين
بحارٌ من القيظ واللحظات الهباء
[أنت واحدنا أيها القرش]
والهالكون على كتفِ الأرض دونك
والقائمون احتساباً لوجهك يحتلبون الشياه
ويغتصبون الجسارةْ
أنت واحدنا . . . وسواك اتساعٌ لمملكة الخوف
مملكة الأضرحةْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنت واحدنا
منْ سيعصرنا بهجةً فى عروق اليمام
ومن سيؤرخنا رطباً فى كتاب اليمام
ومن سيعلِّقنى سيِّداً فى رؤوس اليمام . . . سواك
ومنْ . .
ألْقَت الشمسُ أوراقها فى الدواليب واحتدم الصمتُ
أحملُ جرحىَ وحدىَ
يغمرنى الليل وحدىَ
أغمسهُ فى دمى ثم أهرب ثانيةً فى عروق القصيدةْ

*

* الجمعة

سيقولون هم سبعةٌ . . . ربَّما

سيقولون ثامنُهم أنت . . . قلْ ربَّما
ـ يتكاثف ظلُّك يا شجرَ الخوف
تزهو أصابعُك الجهمة المستطيلةُ
ترشق فى الطرقات الجنونْ
فإذا نُودىَ القيظُ نسعى إلى ظلِّه
نتقاسمُ بعضَ البكاء
ونغمر أوراقنا فى الظنونْ
نتشاجرُ حول البطولة ـ
أىُّ الفريقين يغزو الرؤوس غداً
والنشيدُ الذى سوف تقرؤه فى الصباحْ
بينما تتسلل فينا الجراحُ
وترسف أوجاعُنا فى الوَرقْ
يتكاثف ظلُّك يا شجرَ الخوف ـ
يزحفُ فوق العيونْ
ـ قلت أنشر فى رئة البحر أشرعتى
وأخوض بلاد اللآلىء
فانفرج البحر عن ضحكةٍ يابسةْ
ـ قلت أحمل صمتى على هيكلى المتهالك
فانفلتت من ثقوبى خيولُ الرياح
لتكنس فىَّ احتمال السكوت
وتسكبنى أحرفاً يائسةْ
ـ قلتُ آوى إلى الظلِّ
فاحتملَ الظلُّ سيلُ الأفاعى
تسوق إلى بلد الخوف
فانسكب العزف أمنيةً عابثةْ

*

ـ هل تريدُ الرحيلَ ؟
. . . من الظلِّ ؟
ها أنت ذا تطلبُ المستحيلْ !

مينا القمح . شرقية : فؤاد سليمان مغنمُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بَـــــــوح

إيـــمان مـــرســـال

لأنّ السُّقوط إلى الجُرحِ فتحٌ
إذا صَعَد النازفون الغبار
أُلملم جُرحى وأسقط فيهِ
وأدفن بين الحنايا وليدْ
وأُعلنِ للريح أنّى أَلِفتُ التحدّى
تحدَّيْتُ بعضى
ومجّدْت ذاك القصىَّ العنيد
وأُعلن للريح أنّى كرهت التنفُّس . .
أنّ الهواء مشاع
وأنّى ترهْبَنتُ . .
غلّقت دُونى الحُدودْ
وأُوغِل فى البوح . . أُعلِن أنّى . .
أُبدِّل رأسى كثوبى
وأنّى تبدَّلتُ عنّى
فلا أنتَ منّى
ولا الكونُ منّى
ولا صدر أُمّى التى أشربتنى النزوعَ إليك
سوى بعض بيدْ

لأنّ السُّقوط إلى الجُرحِ فتحٌ
إذا صعد النازفون الغبار
سأُعلِن للريح أنّى صنعتك وحدى
كما كُنت أجلو عروساً مِنَ الطين وحدى
وألبسها قِطعةً من ثيابى
وشَعْراً مُعارْ
وأنّى رسمتك ناياً وفجراً
يزفُّ الأمان إلى كُلّ دارْ
وصلّيت حتى اصطفتنى التراتيل . .

حتى احتوتنى المواجيد . . حتى سبتنى البوادى . . القِفار
وأفقْتُ
لأعلنِ للريح أنّى أُمجِّد كُلّ العيون التى حاصرتنا
فصِرنا جليدْ
وكُلُّ الأيادى التى صنّفتنا
مُلوكاً . . عبيدْ
وكُلّ القيود التى أعتقتنى
منَ المَدّ والجذرِ حتى احتويت الوُجود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لأنّ السّقوط إلى الجُرحِ فتحٌ
إذا صعد النازفون الغُبار
سأَعلِن للريح أنّى زُجاج
مناديل أُمّى زجاج
وعينا حبيبى زجاج
وهذه المصابيح . . هذى المصابيح رغم التوهُّج . .
حين يجىء الصباح . . زُجاج
لتَصْعد . . أسقط
وأسقُط . . تَصْعد

وتمضى فأمضى
أُكفنُّ كفّى بجيبى
وأحنى قوامى لكى يدخُلونى برغمى
أُغطّى فراغ الرصيف بِظِلّى
يدوسون ظِلّى
أصير رصيفاً وحيداً . . وحيدْ
يُشارِك هذى الجمُوع سُكوتاً فريداً
وبوحاً فريدْ

المنصورة : إيمان مرسال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأفعل التوحد

جرجس شكرى سليمان

قبرى يسكن قدمى . أعتصم بموتى
أكتبُ قمصانى ،
تنزفُ أنهاراً تنسج قبراً فى رأسى
قبرك غيمهْ
وأنا أتدلى
من خيطٍ محزونٍ
بالورق وبالكتان
أهربُ فى رأس النخلةِ مملوءاً بالرمل
وأعتصم بحبل الأرض المقطوع
أتغرق فى هُدبِ الموجوع وأزين نفسى بالعرى

يخشَّ سديمٌ عينَ عجوزٍ أخلط شريانى بنزيف النمل
وأعجن ثدى الأنثى الشاهق
تغلسنى أحلامى فى لوث الوهم
صوتٌ يتوحّدِ فى شفتى
وحدْ نفسكَ بالنورِ
ألملم أعضائى أتساقط فى نعشٍ
يوقعنى فى الموج ويعقد جسمى بالنور
يتداخل صوتى فى نعشى ألقانى عصفوراً
ألمح أنهاراً وبساتين . تسكن أجساداً موجوعهْ

وبلاداً ربطت منديلاً أسود
عرت خيمتها المكشوفه
وملاكاً يلبس صفصافة
يسألنى عن إسم الشعب الأوحد
والأرض الموبوءة
أتوسد أيامى سوسنةً
وأخشى زوايا الأرض المكسورة
يسألنى يلقى النارَ على جسدى
أكتبْ أفعال الأرض

أهربُ فى عرسٍ
ألمحُ قمراً حاصر سيدةً حبلى بالطين
تتسربلُ بالشمس وتمسح أطراف الأرض بمنديلٍ
تدعكُ خاصرةَ النهرِ
بثدى عطشانٍ للنور
وتُشُق عروقى
يدخلُ فى شريانى نخلٌ يتوحدُ بالليل
يفرز إعصاراً
وحِّدْ نفسكَ بالطين
يُخرجنى منْ أفعالى ويفضُّ العرس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يلقى النارَ على جسدى
ألمحُ رملاً شاخ
وزمناً يبحث عن مطرٍ يتوسّده ويطير
وفراشاتٍ تنحَلُ وبرَ الغيم
تتهجّى زمناً فى كوخ
أعرف أن خطائى . أحرقت السعفَ الطالعَ فى وجه العصفور
وأراها . تدخلُ فى أفعالى
تعقدُ وجهى بالفجر
يحرقُ جسمى بالنور
توحّـــدْ .
وتوحّـــدْ بىّ
أخرجهُ من أعضائى
أتوحدُ بالسيدةِ الحبْلَى بالطين
يتشكلُ فينا الماءْ
فنقيم العرسْ

سوهاج : جرجس شكرى سليمان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جـــزء من يـــوميـــات رجـــل وقـــح

مـــاهـــر عبـــد المنـــعم حســـن

[١] يومٌ يتألّقُ فيه الحزن :

يدخل ذاك الوجه الطيّب بيتى يرثى مأساتى
وأنا أنتظرُ نهاية قِصَّةِ أيّامٍ ساقطةِ النَّبْضِ
يلفّ بصمتٍ ـ أعشقه ـ حول جراحى
بعضَ الأهداب الرِّيفيّة
تتألّقُ أحزانى . . حتى أقرأ
فى هاتَيْن العينين . . مِراراً ـ كلماتِ العشق العَفْويّة

[٢] يوم الإثنين :

يدخل ذاك الشاب الأبيض فى عقلى
مقتحماً قلبى ـ يرشقنى ـ بعيونٍ تلثم أوجاعى
حتى ينسكب الوجدُ وتَبْتَلّ الأوصالْ
أحياناً يندب أيامَ زمانٍ ولىٍّ
بعيون يتزاحم فيها حزن بلادى ويجادلنى
يجلد أفكارى فى كلمات
يجلد ذاك الشابُّ الثائر فى عمقى
ويولىٍّ مثل سحابات الصيف العابرةِ التَّرْحَالْ

[٣] أيّام العشق والجوع :

حُبُّك قُوتى . . مِلْحُ حياتى

والجسم كَلَوْنِ عجين الخبز . . ، كملمسِه
داخلَ أقواسِ تَخَمُّرِه أُعْمِلُ كفِّي ، فأصنع خبز الفقراءْ
أو أصنع منه الخبز الطاهر لامرأةٍ
كانت تقتاتُ بثدييها
أو تأكل خبز الجنس المُرِّ مع النُّدَماءْ
فَتَرَهَّل منها الليل على باب الرغبة . . . أَمْسَتْ شَمْطَاءْ .

[٤] سيدة الأيَّامْ :

ياشمسَ الصُّبْحِ ، وقَمَرَ الليل ، ونور العين ، وكل العمر . . أجيبيني
مَنْ سرق الخيرَ مِنَ النهدين ؟ أجيبيني
مَنْ باع الطُّعْمَ المترسِّبَ فوق الشُّفَتينْ
وأَهْدَرَ هذا الحب الخالدَ فى قلبين . ؟ أجيبيني
مَنْ فَكَّ قميصَ الطُّهْرِ مساءً . . عن صدركِ أو مَزَّقَهُ ؟
بغباءٍ ترك على جسمك أثَرَ النَّابينْ !

[٥] سيدةٌ ما فى يومٍ ما :

تدخل تلك المرأة معطف أيَّامى
حتى تَخْضَرَّ الأزمانْ
أوَّلُ سيدةٍ أشرب داخلَ حانتها خَمْرَ النِّسْيَانْ
وأدخِّنُ تَبْغَ الفكر على غير إستعجالٍ ؛ أقرؤها
وأجوب حدائقَها فَرِحاً . . لم ألمحْ شبْه استهجانْ
لكنْ فى آخر أيامى معها قالت :
« لا تأخذ منى كِسْرةَ خبزى . . خُذْ قلبى
وامْنَحْنى صَكَّ اطمئنانْ»

[٦] زيارة غير منتظمة :

تتخبط فى جدران الغُرْفةِ ذاكرتى . . ، تأتى أُمّى
تدخل من كوَّةِ أحلامى . . تلمس وجهى بغلائلها
تنصحنى ــ حيناً ــ فى رفقٍ :
« صالح روحَكَ ، روِّضْ نَفْسَك . . تصفُ الأيَّامْ »
تدعونى أن أمضى معها . . لأُجَرِّبَ عالمها الرَّحْب
فإذا ما ارتعدت أوصالى . . تمضى بسلامْ

[٧] فى اليوم الثامن من الأسبوع :

حين أضمّ الأجفان

أَوْ أفرِجُ بين الشفتين
يدخلنى هذا المَلَكُ الفِضِّىُّ . . يحلِّقُ فى أرجائى
ويحطّ على قلبى ، ويُسائلنى . . أو يزجرنى
يمضى يَتَمَدَّدُ فى عنفٍ داخل جسدى
أَتَبَسَّمُ ــ حيناً ــ حين تَمُرُّ على عينى بَعْضُ الأوجُهِ
أو حين تجوب مخيِّلتى صورٌ حُلْوَهْ
فى بعض الأحيان الأخرى
تنتحر الأحداث جميعاً . . تتدلّى من قَلْعَةِ رأسى
أخْلدُ مراتٍ للنوم ، وأحياناً أخلد للموتْ
وأقوم صباحاً أتثاقلُ
وأحطّم كلّ نبوآتى
وأكسِّر كلّ قُيود القلب المجنون

ماهر عبد المنعم حسن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

فاتحتـــان لك .. وفـــاتحة لى

خيـــريـــة على محمـــــد

(١)

وألملمُ بعضاً من أشلاء النشوةِ . . . .
حين أصير سؤالاً
بين مسارب روحى
أدخل فى ضحكات الوقت/النبع
الوقت/اللا مألوف
أتسلّق ظلَّ الجبل الصخرىَّ المنزوىَ
بركن القلب
وأعاود مزج رؤ ايَ
بلون زجاج الشرفه

(٢)

كان . . فكنتُ . . ،
وقال . . . . فقلتُ . . ،
وحين تحرّكَ
نحو سماء السَّفَرِ . . . . . .
مشيت

(٣)

امنحْنى بعض قرنفلك المسكوبِ بخطوىَ
وامـــلأ . . . . . .
رشفاتِ الوقتِ . .
الراقص . . .
عشقاً . . .
لنخيل جبينكَ
، . . . . . .
أقْرِئنى صمتَ
بحار يديكَ
الغارق فِىّ

عين شمس الشرقية : خيرية على محمد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غابة الزيتون

سهير عليوه

أتجولُ فى أعماقِكِ . .
غُصناً وغصونا . .
أكتشفُ المجهُول فأخشى . .
ذاكَ الزيتونا . .
يُوقفنى . .
هذا الصمتُ الهابطُ حولَكِ أجنحة .
يَتردّدُ فى سمعى . .
صوتاً . .
أصواتاً . .
وسكونا . .
يَدْفَعنى . .
سحرُ الضوءِ المنعكسِ شعاعاً ,
يتلألأ فى عينِ زهورِكِ وهجاً مجنوناً . .
يدعونى
السرُ المنبعثُ لديكِ شراعاً . .
أن أتسلَّل كى أعرفَ ذاكَ المسجونا . .
فأخافُ . . أخافُ . .
ويُرجعنى هَمْسُكِ مسموعاً . .
أجدُ الأغصانَ مبعثرةً . .
فى الدربِ شجونا . .
وبقايا الحزنِ مُرَفْرِفَةً . .
فى الغابِ أنينا . .
ودموعَ الهدهدِ باكية قلباً وعيونا . .
أتردَدُ . .
أأمُدُّ يدىَّ لأغْرِقَها حباً وحنينا . .
أتوحّدُ فيها أضواءً . .
تتجدّد عُمْقاً وسنينا ؟ .
أم أُجْفِلُ خَطْوى هاربةً . .
وأُودِّعُ سحراً مجهولا . .
فتزيدُ الأحلامُ جَفافاً . .
وتعيثُ الأحزانُ جنونا ؟ .
أتَلمس فى أحداقِكِ درباً مسطورا . .
يتراءى فى أخيلة الحبِّ . . طيوفاً وطيورا . .
أتوسّمُ فى الأغصانِ الخُضْرِ هدوءاً . .
يتوحدُ فى خفقات الشّعرِ سكوناً . .
يتوحّدُ نورا . .
أتسلّل فى أعماقِكِ دفئاً مسحورا . .
وأُقَدِّمُ بين يديكِ القَلبَ المأسورا . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ياعبْق الزيتونِ الساكنَ فىَّ . .
أتيْتُ أُجيبُ سؤ الِك عن عينىَّ . .
. . طويتُ الأيامَ . . الأحلامَ . .
لكى أُودِعَ بين غصونِك . . يوماً . .
فى العش يمامه . .
أعرفُ أن الدربَ طويلْ . .
العمرَ ثقيلْ . .
الفرحَ بخيلْ . .
نَقَشْتُ على الغُصنِ علامه . .
تابعتُ الهدهدَ فى رحلِته . .
وتحملتُ صعودَ التَّلِ . . تحملتُ ظلامه . .
هل يوصلنى هذا الدربُ الممتُد أمامه . .
هل أجدُ لديه أمان العالم . .
هل أجدُ سلامه ؟ .
ماذا فى أدغالِك ياغاباتِ الزيتونْ . . ؟
ماذا خلف الصوتِ الكامن . .
والسمتِ الساكن . .
والصمتِ المجنون ؟
ماذا عِنَدكِ ياغاباتِ الزيتون ؟!
ماذا ؟ والأصداءُ سكونْ . .
والاضواءُ عيونْ . .
والأنداءُ غصونٌ . . تتشابكُ . . تتعانقُ . .
تتآلفُ . . برداً . . وسلاما . .
. . هل أَجدُكِ فى العُشِّ يماما . . ؟
هل أجدُك فى الأفْقِ حماما . . ؟ . .
. . يحمل أغصانَ الزيتون . .
أم . . ماذا خلفكِ ياغابات الزيتون . . ؟

القاهرة : سهير عليوة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

الخـــروج من الـــدائـــــرة

محمـد عـبد الستـار الدش

بينى وبينَكَ نظرةٌ
تسع السماءَ ، ورَجْرجات الماءِ ،
والخطَّ المعاكسَ ،
والعناقيد المحمّلة الهشيمْ
قد قلتَ لى :
منىً قناديلُ الوصولِ أزفّها
حتى إذا ما داهمتكَ أداهمُ الأشياءِ ،
أَوْ عَزَّتْ عليكَ رغائبٌ ،
ثم انتفضت مغاضباً
تقرِى الحياةَ بكأسِ مُرِّكَ
تنتبهْ . . .
منىً مساحاتُ الوداد أحيكها
لَكَ فارتدِ ،
واملأْ جبينكَ من ظلالى
تهْتَدِ
تمشى على سَعَف الزمانِ ،
وسنبلات العاشقاتِ على ربوعكَ تثمرُ .
بينى وبينك صورةٌ
الريح من أَتُونها خرجتْ
تصفّد مملكاتِ الضاربين بفأسهمْ ،
السائرين إلى مصبّ النهر قبل وصولهمْ ،
وعيون طفل بُتّكَتْ
إثْرَ النساء تنزُّ أوجاعَ التحوّلِ
حفّها
مسٌ
قد قلت لى :
عند احتدامِ الريحِ
أُخرِجُ نفحَةً
تطوى لظاها
ثم تذروها نسياً فوقنا
(خطوى تكبّل فى جوارك
أبتغى منكَ الطريقَ ولا طريقْ
أَسْلَمْتُ ذاكرتى إليكَ
مسحتَها
فتألّقتْ كلُّ الحروفِ الساقطات على فمى)
بينى وبينك خنجرٌ
خذلت يدىَّ أصابعى
أَخْمِدْه فى صدرى
وحرِّق جثتى
واصلبْ رمادى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى الطريقِ
لعلّ مَنْ يرنو إلىَّ
يفرُّ مِنْ عينيه دمعٌ يحتويه فيُغْسَلُ

يستلُّ روحكَ . .
حِينهَا
سأعودُ غصناً فى مناقير الطيورِ العائدةْ

مجول ـ سمنود ـ غربية :
محمد عبد الستار الدش

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد المخزنجى

قصة

زوايا للرؤية

فى البعيد

مكثت منكفئا على السطور ساعات كثيرة ، ساعات طويلة حتى أن الكلمات راحت تتماوج والأحرف تتداخل ، وأفقد شيئاً فشيئاً الاتصال مع معنى النص ، وكأنه كُتب بلا معنى . . بلا أى معنى . وكان هو جالساً خلف مكتبه ، أمامى ، يرتشف كوب الشاى على مهل ويراقبنى . ثم إنه ابتسم ، ابتسامة ذات مغزى ، وهو يدعونى إلى النهوض بسرعة والإطلال على شىء ما فى البعيد ، عبر النافذة .

نهضت ورحت أرنو من النافذة عبر شفافية الزجاج إلى الخارج ، ولم أجد ما يلفت النظر . . نفس التلال الخضراء البعيدة ، وذرى الأشجار المتلامسة مع الأفق ، ولا شىء جديد فى المنظر . اللهم إلا سحابة بيضاء خفيفة تسبح فى البعيد الأزرق . . تسبح على مهل . ولا شىء جديد .

لا شىء جديد ــ قلت له ذلك وأنا أستدير عن النافذة ، لكنه ظل يبتسم محتسياً شايه على مهل ، مهل شديد ، مما أغاظنى فنفضت مقعدى بعنف قبيل جلوسى ، وبعنف شددت الكتاب نحوى . وفوجئت بالكلمات واضحة أوضح ما يكون ، والحروف ثابته جلية ، وعاد المعنى يتصل بى . . وأتصل به .

وسط المنضدة

وضعته كيفما أمكن ، وسط المنضدة ، فلم يلفت نظرى الذى انشد إلى اتجاه آخر . . إلى مفرش النايلون المزخرف الذى يكسو قرص المنضدة . كان وسخاً بشكل مخجل . . قطرات الشاى والعصائر المدلوقة فى أوقات بعيدة تخثرت لامة فى داخلها الغبار والتراب . . صارت بقعاً قذرة تغطى زخارف المفرش المنمنمة فاقدة الألوان . .

ساحة لفوضى الكسل المزرى . . علبة السكر إلى جوار الملاحة لصق الفناجين المتيبسة فيها آثار القهوة وثفل الشاى . شرائط كاسيت مغبرة خارج أغلفتها . . أقلام ودبابيس وكسرات خبز وعلب كبريت وقصاصات مكتوبة مبعثرة . حتى أعواد تنظيف الأذن تتناثر فى هذا الزحام صفراء ، قذرة .

أى كائن صرت ؟ والأرض تحت المنضدة . . التراب . . التراب . والغبار من فرط تكاثفه وطول مدة التكاثف تجمع فى كريات من الزغب القذر حول أرجل المنضدة ، وأسفل الجدار . . حول أقدام الكراسى . . الكراسى المطمورة بالمناشف التى لم تُغسل والملابس الداخلية القديمة والجوارب والمناديل وقشر البرتقال اليابس الملتوى . أى جبٍ . أى جبٍ هذا ؟!

وكشحت بحذائى أسفل الحائط فكانت كريات الغبار خفيفة . تافهة الازاحة . أكثر . . أكثر . وأسرع إلى الحمام لأحضر المقشة والجاروف . . هنا وهنا وهنا . ثوان قليلة لكننى ألهث . وهذه المنضدة . ليكن كل شىء فى مكانه . . كل شىء فى مكانه . والمقاعد . كل شىء فى مكانه . والآن ، لأفتح النافذة والباب . . ليحمل تيار الهواء كل هذا الغبار المثار الذى استيقظ بعد دهر من رقاده .

ما أصفى نسمة الهواء صارت . وما أكثر ما تجلت مضيئةً خضرة أوراق البيجونيا العريضة وهى تحيط بباقة زهيراتها البنفسجية الحمراء ، فى الأصيص ذى الغلاف المفضض الذى وضعته وسط المنضدة .

الجزء ، والكل

جنرال فى ملابس رسمية . . ومجنون ! تساءلت فى نفسى عجباً عندما التقيت به صدفة فى شارع الضاحية الهادئة الكبير . كان مقبلاً وأنا أمضى ، ولم يكن منتبهاً إلىّ إذ تحاذينا على الرصيف ، ورأيته يلعّب ملامحه بشكل بهلوانى ويفتح ذراعيه ليحتضن الهواء . ثم إنه راح يمشى مقرفصاً مقلداً مشية البطة حتى صار وراء ظهرى . وأمسكت عن الالتفات فوراً ، حذر إهاجته .

بعد خطوات كثيرة عمدت إلى الالتفات عندما أحسست أننى فى مأمن ، ورأيته فى الوراء . . هناك . كان مقرفصاً أكثر وفاتحاً ذراعيه على اتساعهما ليضم طفلاً صغيرا يجرى إليه فى تهلل . . يتدحرج فى خطو الصغار الجميل الصعب . لابد أنه كان حفيده .

وشعرت أنا بالتأثر ، والخجل .

تصوير أشجار الحديقة

كان يقترب ويبتعد . يضيّق عينيه ويفتحهما وهو يقترب ويبتعد . يمعن فى أشجار الحديقة من حوله ثم يعود ليضيف إلى لوحته بفرشاته لمسة . نظرة ثم لمسة . ونظرة ولمسة . فاقتربت منه لأرى إلى أى حدٍ نجح فى تصوير أشجار الحديقة ؟

لم يكن فى اللوحة أية أشجار ! ولا غصن واحد ! فقط : بضع حوريات عريانات يصعدن محلولات الشعر فى سماء ليلٍ ترتعش فيه النجوم !!

« مجنون » أو « مدع » ــ قلت لنفسى ذلك ، واستدرت منصرفاً عنه . لكننى ماكدت أخطو خطوتين حتى قفلت راجعاً إليه . .

لقد كان فى أدائه براعة لاشك فيها . ثم إن الأشجار من حوله كانت كلها من نوع . . شجرة ايفا » ، وتتكسر بين أغصانها المسدلة أشعة شمس الضحى . . تتكسر بارتعاش .

محمد المخزنجى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سعيد بكر

قصة

مقاطع من رحلة وشم

انتفضت فى عينيه فرحة . تلمس ساعد أبيه المفتول . داعبت أنامله تلك الشعيرات النابتة فى بشرة الساعد الأسمر . . لمح بعض شعيرات بيضاء تنتصب فى شموخ . . ابتسم الأب نفس الابتسامة الودود المرحبة . . أطل من تحت ثنيات كم الجلباب الكالح سيف ذلك الفارس المعلق على الذراع . . رفع يده وطوى الثنيات حتى الكتف . . رآه ينظر اليه بعينين كحيلتين . . رأى شاربه يبتلع نصف الوجه السفلى . . تأمل شارب أبيه الكث . . قارن بعينين فاحصتين بين شارب الفارس وشارب أبيه . . شعر بالفخر وانتابته غبطة كبيرة . . عاوده تساؤله القديم :

ـ من هذا ؟

ابتسم الأب ولاحت تعابير وجهه واشية بعطف متزايد :

ـ ألم أقل لك من قبل !

يجب أن يقص له أبوه عن ذلك الفارس كثيرا . . راح يتساءل من جديد

. . استكان الأب لإلحاح الابن :

ـ هذا « أبو زيد الهلالى » . .

فاحت رائحة طيبة :

ـ قد يصيب البرتقال العطن . . ونحن لم ننقله بعد إلى القطار .

لم يعد يعنيه البرتقال . . لم يعد يعبأ بتلك الرائحة ولا تلك الرحلة التى يصطحبه أبوه إليها . . وتناسى رغبته العارمة فى رؤية تلك البلاد التى يحكى له عنها الكثير . . لم يعد يشعر برغبته فى رؤية مصر . . لم يشعر بذلك الضجيج الذى يموج من حوله . . قال مرة أخرى :

ـ أهذا أنت ياأبى ؟

اتسعت ابتسامة الأب وهز رأسه وربت على رأس الصغير :

ـ لست أنا ياولدى

ـ أليس اسمك كاسمه ؟

ـ ولكنى لست أبا زيد الهلالى . .

ـ ومن أبو زيد الهلالى ؟

هز رأسه فى رتابة ظاهرة . . وقال فى ضيق :

ـ هيّا قبل أن تصيب الشمس البرتقال . .

رأى الابن قسمات أبيه وقد تلونت بتعابير صارمة . . فانصاع لأمره . . واتجها إلى زنابيل البرتقال المكدسة عند باب القاطرة الأخيرة . . ودبت فى قلب الصغير فرحته التى تناساها لفترة وجيزة وراح يساعد أباه فى رفع زنابيل البرتقال إلى جوف العربة الأخيرة .

*

بعد سبع بنات جاء . . ألجمت الدهشة لسان الأب العجوز . . طاف بالدار لا يدرى ماذا يفعل . . كانت الفرحة أكبر من ذلك القلب البالى . . تلقى تهانى النسوة والرجال الذين جاءوا من كل فج . . عانقوه فى ترحاب . . كاد يسقط فى تهالك . . انتشلته الأيدى من حيرته الطاغية . . وقالت القابلة :

ـ ماذا تسمونه ؟

من فوره قال فى صوت متلعثم :

ـ أبو زيد . .

وطوت الأيام أبا زيد . . بقلب واجف ترقب الأب العجوز خطوات الوليد الصغير . . انتعش فى قلبه الخوف العتيق . . وخشى تلك اللعنة التى تصيب أبناءه الذكور . . كم من الذكور دفنت يداى . . لا لن يموت ! وهمست الأم فى أذنه ذلك المساء :

ـ أوشك أبو زيد على بلوغ العام . . وأنا أخشى . .

قاطعها . . كمم فاهها . . وصاح فى ألم .

ـ لا تنطقى . . سيعيش أبو زيد . . سيعيش .

*

أطل الفارس بوجهه المدهون بالسواد . . ارتجف قلب الصغير وتغضن تحت ذراع أبيه التى انتصبت فى ارهاق إلى جانبه . . صرخ فى بهو القاطرة الأخيرة . . كرّ هنا . وهناك . . شمر عن ساعده المفتول ورفع زنبيل البرتقال فوق الكتف . . انحشرت داخل يد الذراع المفتولة ثمرات البرتقال . . نظر إلى الابن الذى جلس فوق أحد الزنابيل منتظرا دورته بين الأجساد المتلاصقة . . أصوات مختلطة تزاحمت فى رأسه . . شعر بالاختناق . . أطل برأسه من نافذة الباب المكسور الزجاج . . كل شىء يتحرك ببطء إلى الوراء . . القطار يتحرك نحو ذلك العالم الخلاب الذى قص له عنه أبوه ذات ليلة . . وانتفض القلب فرحة . . لمح أباه وهو يقف عند أول مقعدين فى القاطرة . . يثقل كاهلة زنبيل البرتقال . . امتدت فوق الأرفف لرتفعة أقدام (ميرية) وأخرى لا أصل لها . . نظر أبو زيد إلى هذا الحشد الضخم . . سأل الله العون . . وأن يعود إلى ولده وقد تخلص من زنابيل البرتقال . . يعرف أن الأمر شاق عليه . . ولكن . . تملص الفارس من فوق الذراع . . ضاق بتلك الأجساد التى تلتف حوله . . أراد أن يعمل فيهم سيفه الملصوق على البشرة السمراء . . أحس بالسيف ثقيلا فى يده . . عوى . . لم يستجب له أبو زيد ولا زنابيل البرتقال . . اشرأب لينظر إلى عينى الابن المقعى فوق أحد الزنابيل . . كان يعطيه ظهره . . ولكن صوت أبيه أعاد عينيه إلى جوف القاطرة :

ـ عشر حبات بخمسة قروش

وتردد صدى صوته فى أذنيه مفزعا ومرعبا

*

فوق ظهر حمار أعرج كان أبو زيد يجلس فى خوف . . الأب العجوز إلى جواره يشد من أزره . . التف حوله أولاد وبنات يصيحون بأصوات لايفهمها . . أراد أن يبكى ولكن نظرة الأب العجوز أزالت من قلبه الخوف . . داروا فى أزقة الحارة . . تجمع الناس . . تشبث بطاقة جلباب الأب العجوز . . ربت على رأسه مشجعا . . وداروا فى الأزقة بلا توقف . وكان الأولاد والبنات يصيحون فى أصوات متداخلة :

ياأبو الريش ان شاء الله تعيش . .

*

تثاقلت الروؤس . . تساقطت فوق الصدور . . مازال الزنبيل ممتلئا . . لم يهتم أبو زيد . . يدرك أنه فى لحظة ما سيبيع كل ما تمتلىء به الزنابيل من برتقال . . عاد إلى الابن ليسترد أنفاسه اللاهثة . .

. . قال فى أذن الابن :

ـ ألم أقل لك . . الأمر ليس سهلا . .

قال الابن فى نفس حماسه :

ـ ولكننى أريد أن أرى مصر . .

ـ مصر مازالت بعيدة . . والطريق شاق . .

ـ ماذا كنت تفعل بين الناس ؟

ـ أبيع البرتقال . .

ـ ولماذا لا تبيعه فى السوق مثل حمدان ؟

ـ السوق لا تصلح ـ والسعى مطلوب .

ـ ولكنك لم تبع شيئا . .

ـ الأرزاق بيد الله .

ثم عاد يسأل من جديد :

ـ متى نصل مصر ؟

*

فى فناء المدرسة الصغير . قال :

ـ لأبى ذراعان قويتان . .

قال الصبى الآخر فى ضيق :

ـ أبى مريض . .

ـ أبى يرى الدنيا كلها . . هل ذهب أبوك إلى مصر . .

ـ مصر بعيدة . .

ـ هل رأيتها ؟

ـ لا . .

ـ وعدنى أبى أن أذهب معه إلى مصر . .

التقط سعفا من نخيل وشهره أمام الصبى الآخر :

ـ أتبارزنى . .

ـ سأهزمك . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ أنا قوى مثل أبى . . أبى كان يهزم الرجال . .
ـ ولكنى سأهزمك . .
ـ مارأيك . . أكون أنا أبو زيد الهلالى . .
ـ ولماذا لا أكون أنا أبو زيد الهلالى ؟ .
ـ أبو زيد الهلالى كان صديقا لأبى . . وقد اشترك معه فى حروب كثيرة . .
ضحك الصبى الآخر . . قال :
ـ أبو زيد ليس إلا حدوتة . .
صاح فى غضب :
ـ أنت كاذب . . أبو زيد مرسوم على ذراع أبى . .

*

تصبب عرقا . . الحر شديد ومخلوط بأنفاس الناس النائمة . . ورائحة البرتقال أصبحت قوية ونفاذة . . لا أحد يسمع صيحاته المدوية . . والابن ينتظر أوبته من قلب القطار . . ماذا يقول له هذه المرة . . لم تبع شيئا . . سيتحطم أمله فى زيارة مصر وشراء ملابس جديدة له ولأمه وأبيه العجوز . . ما أقسى أن يعود خاوى الوفاض . . تذكر كم من الأعمال تنقل بينها . . لم يفلح فى إحداها . . كثير الثورة والغضب لأتفه الأسباب وكثيرا ما يطوى بطنه على جوع . . لم تصبح وحدك . . قفز فى عنف طاردا تلك الهواجس . . أحس بالزنبيل الثقيل كحمامة صغيرة فوق كتفه . . وهتف مثيرا لانتباه الناس :
ـ خمس عشرة حبة بخمسة قروش . .

*

وجهها كان قبيحا ومنفرا . . ابتسمت فى وجهه فصرخ وتعلق بذيل جلباب العجوز . . ابتسمت المرأة وداعبت شعره المجعد وربت الأب العجوز على رأسه . . رآها تفترس الحصيرة المتهرئة وتأمر الأب العجوز الذى يلبى طلباتها بخفة :
ـ تأكدت من غليها جيدا . .
ـ كل التأكيد . .
ـ أهى مرارة عنز . .
أو ما برأسه . . وأحضرت الأم قدرا يتصاعد منه بخار كثيف . . يصعد إلى سقف الحجرة . . قالت المرأة :
ـ أجعلها تبرد . .
راح يداعبه ليشغله عما يجرى فى الحجرة . . ثم أمسك بيده ودنا من المرأة المنفرة . . ابتسامتها سوداء . . أطلق لصرخاته العنان . . هدأ الأب العجوز من روعه . . شمر عن ساعده الصغير . . أمسكه بقوة كى لا يتحرك . . دنت المرأة منه وراحت تغمس يدها فى الماء الأزرق بجوف القدر . . قالت شيئا لم يفهمه . . وغرزت شيئا مدببا داخل لحم ذراعه . . صرخ . . حاول التملص . . لم يفلح . . واصلت غرز يده . .
فى الصباح رفع ذراعه ليرى أشكالا غريبة مرسومة على ذراعه . . فتساءل . . قال الأب :
ـ هذا فارسك . . ولتصبح مثله . .
لم يفهم ولكنه تأمل الفارس الذى يشهر سيفه فى الهواء . .

*

لا أحد يسمع . . لا أحد يرى . . لا أحد يتكلم . . والعشرون أصبحت بخمسة قروش . . وهو مازال يزعق فيهم . . ولا أحد ينتبه . . الكل مشغول عنه . . والصبى يحلم بمصر . . والحذاء الجديد والزنابيل مازالت ممتلئة . . استيقظوا أيها النيام . . وقال الفارس . . دعنى أوقظهم بحد سيفى . . ابتسم وقال . . هذا زمن لا ينفع فيه السيف . . وصاح بغرابة :
ـ الثلاثون بخمسة قروش . .

*

وكان صوته مذبوحا على سيف فارسه المعلق فوق ذراعه المفتولة . .

*

ـ هل تستطيع ياأبى أن تهزم حمدان ؟
ـ أنا أهزم الدنيا من أجلك . .
ـ حمدان اليوم تشاجر مع رجال كثيرين وهزمهم . .
ـ ولكنه أصيب فى رأسه . .
ـ لا أحد يستطيع أن يصيبك فى رأسك . .
ثم فى صوت واثق قال :
ـ هل يستطيع أن يصيبك أحد فى رأسك ؟
ابتسم الأب وازدرد همومه . . قال الابن مرة أخرى :
ـ لا أحب أن أراك مهزوما يا أبى . .
ربت على رأسه فى حنان . . قال الصبى :
ـ هل انهزم أبو زيد الهلالى يوما . .
قبل أن يجيبه الأب واصل :
ـ أعرف أنه لم ينهزم أبدا . . وأنت كذلك ياأبى . . لن تنهزم أبدا . .
ضمه إلى صدره ولم يدر ماذا يقول . . فلاذ بصمته المقهور
سرى خدر فى جسده . . أوشك على التهالك . . أسند زنبيل البرتقال على حافة ظهر أحد المقاعد . . التقط أنفاسه . . سيبوء كل شىء بالفشل . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بصوت خرج من أعماقه السحيقة هتف :

ـ الثلاثون بخمسة قروش . .

لا يدرى ماذا أصابه . . راح يردد فى نغم متراقص :

ـ الثلاثون بخمسة قروش . .

ولكن أحدا لم يعره اهتماما . . وضع الزنبيل على أرض القاطرة . . أخرج شاله وشده على خصره . . فى بداية الأمر لم يكن أحد يتصور ماذا يصنع هذا الرجل القادم من أرض بعيدة . .

قال فى صوت مرح :

ـ الكل ينتبه . . .

وأخذ يدق بيده على ظهر المقعد . . تراقص جذعه فى البداية . . تفتحت العيون واشرأبت الأعناق وغنى بصوت جاف :

ـ الثلاثون . . .

وردد الناس فى نغم متجاوب :

ـ بخمسة قروش . .

ودبت فى القاطرة الأخيرة حركة غير عادية . . سرى فيها نشاط كبير . . وأصبح أبو زيد محط أنظارهم . . لم يهتم بشىء . . ظل يرقص فى فرح وسرور . . تناسى كل شىء . . عليه أن يعود بلا برتقالة واحدة . . ضاق صدر الفارس المعلق على الذراع المفتولة . . وصهل الفرس . . رفع قائمتيه فى الهواء . . نفث زفيره فى وجه أبى زيد . . ما كنت أستطيع أن أفعل شيئا . .

ـ الثلاثون . .

ـ بخمسة قروش . .

لا يدرى ماالذى أخل بتوازنه فهوى على الأرض . . حين هم بالنهوض واجهته عينان قاسيتان . . اهتز كيانه . . تنبه لما يصنع . . أراد النهوض . . خذلته ذراعه المفتولة . . وصرخ الفارس . . حاول أن ينهض من كبوته لا يدرى هل لمح دمعتين تجريان فوق وجنتيه . . شهق فزعا . . أبصر ولده يتراجع ويخفى وجهه بين راحتيه . . اختفى ولده بين أقدام الناس المتشابكة . . صرخ . . تاهصوته بين غناء الناس .

ـ بخمسة قروش . .

رفع ذراعه لعل أحدا يساعده على النهوض . . انكمش حول نفسه . تخبط فى الأقدام . . انقلب زنبيل البرتقال . . داسته الأقدام . . فاحت رائحته . . لم يصدق الصبى الصغير ما يحدث . . كذب عينيه . . هذا ليس أبى . . شق طريقه بين الأجساد المحتشدة حول الرجل المقعى على الأرض . . رأى أباه مكوما بين الأقدام الغليظة و (الميرية) . . هز رأسه نفيا . . لست أبى . . وارتفعت يده المفتولة لولده الصغير . . تراجع إلى الخلف . .

وكان سيف الفارس مكسورا ومطروحا بلا فائدة إلى جوار زنبيل البرتقال الذى فرغ تماما . . .

الاسكندرية : سعيد بكر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصـــــة

ألـــــــــوان

فى الشارع الطويل النظيف . تحت سماء ندية وغائمة بالأبيض والأزرق ، بالبنى وبالأسود . توقف الولد الأبيض مترقباً سيارة والده ، ولمّا لم يجدها فى انتظاره كما تعّود ، ألقى بالحقيبة على مقعد الانتظار ، وشرع فى الجلوس . التفت إلى المسافة التى مشاها من المدرسة ، وكان زميله الولد الأسود قد وقف بجانبه يحمل حقيبته على ظهره معلقة على الكتفين . أكد الولد الجالس للولد الواقف أنه سيعطيه علبة حلوى كل يوم من أيام الامتحانات ، بعد أن يساعده فى حل الأسئلة .

أطرق الولد الأسود وقال :

ــ من غير حلاوة ! .

حدق الولد الأبيض فى جبهته العريضة اللامعة ، ثم فى صدره الواسع ، والخرزة المتدلية حول رقبته ، وسأله بخبث للمرة العشرين أن يعطيها له ، وهو موقن أنه سيرفض .

قال الولد الأسود :

ــ خد كل شىء إلا الخرزة ، ثم تمتم : بتاعت أمى . . .

نهض الولد الأبيض ضائقاً ، فقد فشلت كل الحلى والتمائم . . حتى القلب الذهبى الذى اشتراه له أبوه مؤخراً ، لم يفد بشىء ، ولا الخرزة العاج التى تشبه هذه تماماً ، ولما تأخر والده ، حمل الحقيبة فى يديه وهم بالسير قائلاً :

ــ أمشى معاك النهارده !

كانت الشمس قد غابت ، وتبددت بقايا النهار ، وارتفع صوت تنفس الولد الأبيض ، ثم أخذ ينهج وقد احمرّ وجهه . مد الولد الأسود يده فحمل الحقيبة عنه فوق حقيبته وسأله الولد الأبيض متعجباً :

ــ كل يوم بتمشى المشوار دا كله ؟

ــ كل يوم .

انتهز الولد الأبيض فرصة الضوء الشاحب ، وظلال الأشجار . أخذ يتلفت نحوه . يتأمل فى حذائه الكبير وملابسه القديمة ، وقامته المعتدلة ، وهو يسير بالحقيبتين فاتحاً صدره ، ونفس الابتسامة الغامضة على شفتيه ولما ضاق بصمته سأله باستدراج :

ــ نستريح ؟

قال الولد الأسود وهو يتابع سيره :

ــ لازم نكمل

ويتراكم الظلام ، وهما يشقان هواجس الليل المقبل ، فلم يوقفهما سوى شبح برز فجأة أمامهما ، استوقفهما وإشارة التحذير من إبهامه تسبقه .

جلس الولد الأبيض يبكى ، وحاول الآخر المقاومة فأمسكه اللص ، ولف ذراعه حول عنقه بقسوة كأنما يريد قتله . اهتز الجسد وقد غاض دمه فأسقطه على الأرض وانحنى على رقبته . لم يأخذ ساعته الرخيصة من يده ، ولم يفتش جيوبه أو حقيبته ، وإنما انتزع الخرزة ، وبعد أن تمكن منها ودسها فى جيبه ، انهال عليه ضرباً ثم اختفى ، وبعد أن أفاق الولد الأسود ، قال الولد الأبيض :

ـ نروح للشرطة

ورفض الولد الأسود مخافة تضييع الوقت ، وإحساساً بعدم الجدوى لكن . . أمام إصراره ذهباً وسألها الضابط عن اللص الذى كان يخفى وجهه بمسخ مشوه . قال الأبيض :

ـ طويل . شعره أحمر ، عينه مثل القطط .

ولاذ الأسود بالصمت .

وفى البيت ، فوجىء الولد الأبيض بوالده يقف فى الصالة . حدق كالحالم فى عينيه وشعره ، ثم انكسرت نظرته من أعلى الرأس إلى القدم ، وانتبه فاتحاً فمه بدهشة ليسأله ، ولكن الأب المبتسم تقدم منه . وضع سبابته أسفل ذقنه . رفع الوجه لأعلى ، وأمعن فى العينين ، وازدادت ابتسامة الأبيض الكبير وهو يقدم لابنه الأبيض الصغير الخرزة .

ـ هى التى تجعله متفوقاً عليك . . الآن لديك كل شىء .

ابتسم الولد وزالت دهشته ، تأمل الخرزة والسلسلة وتنهد بارتياح ، إذ تأكد أنها هى ، وبيدين راقصتين علقها فى رقبته فرحاً ، وأومأ الأب إلى الخادمة السوداء فحملته إلى حجرة النوم ، حيث تمدد على السرير مطمئناً هانئاً ، وقد استبعد بسخرية فكرة شراء علب حلوى للولد الأسود .

القناطر : ربيع الصبروت

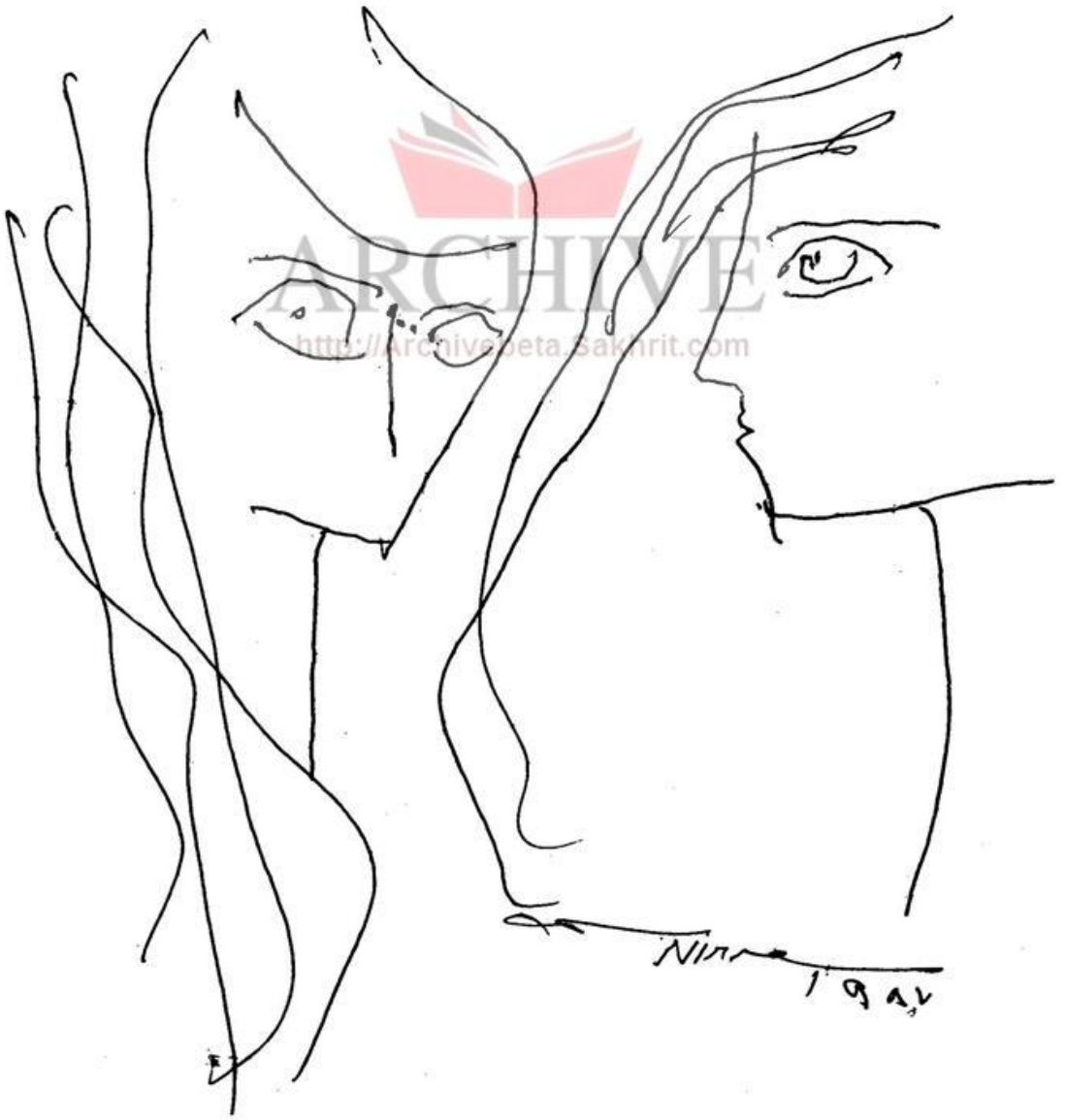

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عبد الرحمن أسماعيل الدرعان

قصـــــة

الوجـــــــه

قال كلمته فى ذلك المساء . . وبسط كفّيه بحذاء أذنيه دفعاً للمسئوليات التى قد تترتّب على ما سيأتى بعد ذلك ، طبعاً هو يقصد المسئوليات الإنسانية والوطنية . . ويعتذر عن تحملها فيما لو سقط أحدنا ميتاً نحن المواطنين الذين نأكل فى المطاعم المزدحمة معاً مثل الدجاج . . ونعتقد أننا فى آخر كل شهر سوف نكون أغنياء . . ونستطيع أن نشترى أشياء مهمة لأولادنا . . وأمهات أولادنا اللائى سنتزوجهن فى الصيف القادم !

أنا شخصياً أقول لنفسى : وما المانع ؟ . . هذا ليس تطاولاً . . وبما أننى أحد المعنيين فلماذا أتوهم العكس دائماً ؟ لماذا أتوهم العكس ؟ وحشرتُ صوتى بين قوسين حتى سمعتُ من يقول : هذه المرة سأضحك . . وأتفاءل . . وإذا سارت الأمور على ما يرام سأواصل اعتقادى بأن أكون غنياً . . وأنتقل من السجائر المحشوة بروث الإنجليز إلى سجائر فاخرة ذات نكهة أطيب وألذّ . .

حسنا !

حَسِبنا حِسَابنا أو بالأحرى أنا حسبت حسابى وتوكلت على الواحد الأحد وقدرت أن أستنفد ما خصصه لى الأستاذ القاعد فى التلفزيون من البهجة . . حدقت فيه لدقيقة . . ينظر إلىّ ويبتسم (كيف أهملته طوال الأسابيع الماضية !) كل التحيات الزائدة عن اللزوم موجهة إلىّ . . أعرف ذلك . . وخطر فى بالى سؤال خبيث : هل يلبس جوارب ؟ هل هى نظيفة ؟ وهو ألم يفكر قبل ذلك أن يتحدث إلى المشاهدين ونصفه الأسفل مكشوف مثلاً ؟ . . يستطيع هذا لو أراد ـ قلت ـ وخجلت من نفسى لأنه خلع نظارتيه وجعل يثبت نظراته باتجاهى أكثر من ذى قبل . . ويعِدُ بمفاجأة سعيدة وضاحكة . . كم مواطناً سيضحك بعد قليل ؟ ! وطوّفت بعينى أرجاء المطعم . . خمسون ، على الأقل واحدٌ وخمسون على اعتبار أننى أحدهم أيضاً . . مثل هذا ـ وأشرت إليه بخيالى ـ لابد أن نحبه لأنه لا أحد يزور أحداً هذه الأيام ليدسّ فى جيب قلبه طُرفة ، حكاية ضاحكة يستأنس بها ليومين قادمين ، رجلٌ يقوم بهذه المهمة يجب أن أحبه حباً جماً ، وَأَنبُتُ رأسى لأنه دائماً يفترض افتراضات غير مؤدبة وخصوصاً عندما يطلع الرجال الرسميون : من يُراهِن إن كانوا يلبسون جوارب أم لا ؟ يدخنون أم لا يدخنون . . يحبون زوجاتهم أكثر مما يحبون حبيباتهم أو العكس . . وهكذا .

مفاجأة ! وفتحت أبواب وجهى عن آخرها . . محاولاً أن أكون رزيناً . . وأقوم بردود فعل لا تثير ضحِك الزبائن علىّ . . فمن يدرى لو أن الرجل قفز عن شاشة التلفزيون وجاء ليشاركنى طبق الحمص بحجّة أن المشاهدين كانوا ينتظرون برنامج « الكاميرا الخفية » على أحر من الجمر أو أحر من الفلفل الهندى أو أحر من أى شىء آخر . . وأنه لم يتمكن من تناول وجبة العشاء مع حرمه فى البيت . . . ، أأقول له كيف قفزت ؟! هذا غير معقول . . غير معقول إطلاقاً . أزحتُ الكرسى المجاور وجلست على استعداد تام أن أصافحه قائلاً :

أهلاً وسهلاً . . أهلاً وسهلاً ياصديقى . . تفضّل ! . . وإذا حاول أن يمدحنى سأقاطعه : لا ، لا ياصديقى . . نحن عرب مهما يكن ونحافظ على مكارم الأخلاق . . ثم أوهمه أن جدى الخامس والثمانين هو « حاتم الطائى » .

ـ حاتم الطائى بذاته ؟ ! يقول ، وتكتسى عضلات وجهه بالتشنج والانبهار . .

ـ نعم ، نعم ، أجيبه . يقاطعنى : ـ الذى ذَبَح ؟ . .

ـ كم حاتماً لدينا ، ثم بسكينةٍ أقول له : نعم ياصديقى : هو حاتم الطائى الذى ذبح الحصان لضيوفه . . ما بك ؟ ألن تصدق ؟ !

فى تلك اللحظة سيهزّ رأسه . . أسلّمه قائمة المأكولات ليختار منها ما يشاء على حسابى . . وأعتذر له عن المرات السابقة التى لم أكن أتابعه فيها . . حتماً سيتأسف لهذا الأمر . . وبعدها لن يبخل علىّ بمشورة تكفل لى الحل الدائم . . هناك بالتأكيد ملايين من البشر بمشاعر واحدة الآن . . . وهذا الرجل صاحب الوجه الذى يبدو فى بعض اللحظات كتلميذ فى الروضة هو السبب . . ملايين بعد قليل سيضحكون . . هذا شىء مهم ، ولكن الأهم منه بالنسبة لى الآن الأبعاد الداخلية للمفاجأة . . أنا إنسان معقّد وأريد أن أنفرد عنهم بامتياز واحد على الأقل . . لا بأس . . هم سيضحكون أنا أريد أن أضحك أيضاً ولكن فوق الضحك !

مشطت الجالسين فإذا بهم صامتون . . ويتسمّون بالبلادة وعلى رؤوسهم ووجباتهم تدور الكائنات الصغيرة بانسجام . . أىُّ لص يستطيع أن يدخل يديه فى جيوبهم . . ليربح خمسين شقة (الاحتراف ليس شرطاً) ! . . اثنان احدودَبَ أحدهما فوق الطاولة بعد أن غرس مرفقيه بخشبها الوسخ . . وجعلا يأكلان النشويات كلاً لمّا ولا يستجيبان لأحد . أراقبهما ، يبدو أنهما مهنيان شرقيان ولعلهما جائعان جوعاً شديداً . . فكّرت أن أسأل عن شأنهما . . أن أقول لهما : إن اللقطات التى تُعرض فى العادة فى هذا البرنامج بالذات لا يلزمها ترجمان . . وفى مقدورهما أن يلتفتا نصف التفاتة . . نصف التفاتة لا أكثر . . وسيخرجان بنفس كمية السرور التى يحصل عليها الرجال المحليين ..فكرت أن أقول : أنا مثلكما فاتتنى الحلقات الماضية كلها . . لكن البهجة التى يقدمها المذيع غير مشروطة بأية بنود تتعلق بالمتابعة . . فكرت ، ولكنى انصرفت عنهما لأن لغتى الإنجليزية المكسرة كثيرا ما خيّبتنى أن أخدم الآخرين . . ، كما أن إحساسى بأننى سأخسر خسارةً شديدة ساعدنى على أن أنصرف عنهما إلى التلفزيون . . التلفزيون ـ هذا الذراع القوية التى نهمزها هَمزة واحدة ليتمثل العالم كله بين أيدينا . .

حولت بصرى بنفس السرعة التى كنت خططتُ لها . كانت يدا الرجل قد اختفتا . . ما زال مبتسماً ما زال مبتسماً . . ويعدنا بتسرية لم تحصل لأىّ واحد منا قبل الليلة . . إنه متأكد جداً جداً أننا سنموت من الضحك . . ولكنه ينصحنا ألا نفعل لأنه يتمنى أن يلقانا فى حلقات قادمة . . ياربّ ارزقنى الحياة إلى الحلقة القادمة إلى التى تليها . . والتى تليها . . و . . إلى آخره !

مذيع فى منتهى الرقة واللطافة والشفافية ، ولا يشكّل أى خطر على النساء . . ومع ذلك فهو غير محظوظ . . ياللأسف ، لا نتمتع بمشاهدته إلا فى السنة ، حسنة ! . . وفى بعض الأفلام يعطيه المخرجون أدواراً غير متلائمة بتاتا مع شخصيته الطفولية : محام . . قاضٍ . . مأمور سجن ، وغير ذلك . . مسكين . . الناس الطيبون كلهم بهذا الشكل . .

*

والآن ما رأيكم أن أصفه لكم ؟

لماذا يشغلنى هذا الأمر ؟ ! لأن ناقداً قد يأتى ويتهمنى بأنى لا أهتم بشخصيات قصصى وأننى أسلبهم حقهم فى البطولة . . يرد عليه ناقد آخر أكثر دقة قائلاً : لا يسلبهم وإنما يبخسهم ،

الأول : يسلبهم ! ـ يبخسهم

يدوخ القراء . . رؤساء التحرير يكلفون مصففى الكلمات بأعمال إضافية . . والموظف الذى لم يرزق بزوجة صبور ربما طلقها بسبب قصة قصيرة كتبها حضرة جنابى . . إذن لابد من وصف الرجل . . لابد ، وأما القارئة « ؟ » إذا لم تكف عن التكشير الآن فسوف أسلّط عليها الكوابيس هذا المساء بطريقتى الخاصة . . وإلى هذا الحد أعتقد أنها عرفت نفسها ، والآن ، هيا لأصف لكم الرجل الذى يطلع فى التلفزيون قبل أى سطر أكتبه . . أحب أن أنوه لكم بأن أية صفة خارج وجهه أرجو أن تعتبروها من قبيل الخيال . . إذ أنى حينما يكون جالساً لا أرى أكثر من وجهه . . وهؤلاء هم مقدمو البرامج المثالية عادة . . مبتسمون إلى أبعد الحدود . . لكنهم ينسون شيئاً ذا أهمية بالغة فى نظرى . . يتحدثون مع المتفرجين جلوساً !

عموماً . . هذه ملاحظة لم أكن قادراً على أن أحشرها فى صدرى على الرغم من أن الكثيرين من أصدقائى . . وزملائى فى العمل استنكروا علىّ . . أما الزملاء الذين تتعب نفسياتهم بمجرد أن يرونى فقد وجدوها فرصة رائعة للتنديد بأخلاقى وضيق نظرى . . وهوانى أمام صديقى الذى التزم الصمت . . وأخذ ينظر إلىّ من طرفٍ خفى . . ولعله كان هو الآخر يعيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النظر فى موضوع طفولتنا . . ، تداركته . . أشرت إليه بعينى . . أشار إلى بعينه دلالة الفهم . . وخرجت !!

أووه . . ياأحبائى . هـا أنذا لم أصف شيئاً بعد ! كأننى حلفتُ ألا آتيكم برأس صاحبى فى هذه الليلة المباركة التى أتناول فيها عشائى فى مطعم « علاء الدين » قبل المرور على أصدقائى وزملائى فى العمل أولاً . ماذا أصنع ؟ إنها عادة سيئة حقاً ، ولكن ماذا أفعل لكى أفعل أى شىء ؟

وهنا فى الحقيقة شىء آخر نسيت أن أقوله فى البداية بالإضافة إلى الإهداء . . على أية حال : الإهداء إلى صديقتى « هـ » مع التحية . . وأما الموضوع الذى نسيت أن أقوله فهو . . فهو . . . . . ! عفواً لقد فاتت المناسبة . . ولم يعد هذا السطر يشبه السطر صاحب المناسبة . . وبما أن الأستدراك فى هذا المكان سيمحو بركة ترتيب الأفكار فقد رأيت أن أؤجل هذا إلى الغد . . وإذا رأى أحدكم خلاف ذلك فلا يتردد فى مكاتبتى على أى عنوان يختاره هو ؛ الرسالة ستصل بالتأكيد وإذ ذاك سأفشى له بكل الملابسات الخاصة بهذا الشىء الذى نسيت أن أقوله لكم فى البداية . . مع الالتزام بهذا ، لمدة سنة من تاريخه . . وأعتذر بعدها عن أى استفسار لأن الشىء الذى كان يجب أن أقوله لكم فى البداية ونسيته سأكون نسيته بالفعل . . العنوان لا يهم ، الرسالة ستصل . . أؤكد لكم ، كيف ؟ هذا ليس شأنكم !! .

الحنان الذى نستشعره جعل جوّ المطعم الفاتر مقبولاً . . الزبائن يتزايدون . . الرجل برأسه الأصلع يتكلم بسرعة غير معقولة . . ضربات لسانه متواترة تواتراً غير عادى ، ينقّل عينيه الشبيهتين بخرزتين فوق الطاولات بنزق ، فوقهما حاجبان يوحيان بشىء من الهيبة والجدية أول الأمر . . ولكن ما إن يضحك حتى تتحول عيناه اللتان تصلحان للمعاينة وملامحه المصمَّمَةُ ليكون صاحبها خفيراً . . إلى طفل فى سن الأربعين ، وهذا ما فات على المخرجين ذوى العقول المتحجرة الذين يعمل معهم فى الغالب الأعم !

المشاهدون بفارغ صبر يترقبون أن ينسحب عن المشهد . . هذا حق من حقوقهم . . وأنتم تصيحون بى . . أسمع أصوات صمتكم ، وأرى نعالكم تضرب حائط الزجاج الخلفى للمطعم . . عجّل ، عجّل ، قد يختفى قبل أن تصفه ، أوّلاً أريد أن استشيركم بتبديل كلمة « الزجاج » التى مرت قبل قليل إلى « الدجاج » بحيث تصبح العبارة بعد ذلك « حائط الدجاج الخلفى » . . أليس هذا مناسباً . .

الزبون الجالس بإزائى مسرور ، ولا يدرى أنه يجلس على كرسى بثلاثة أرجل فقط . . وكما توقعَتْ القارئة « ؟؟ » التى أعتقد أنها عرفت نفسها . . كانت الشاشة الصغيرة تنطبق على بعضها مثل جناحى غراب . . الصوت يتبدل إلى خشخشة بعد أن توقف للحظات . . خطوط أفقية بيضاء وسوداء وخضراء تترجرج صعوداً وهبوطاً ، الرجلان الشرقيان يدفعان الحساب ويمرّان بين المقاعد . . ، دجاجٌ يأكل دجاجاً ويخرج ، دجاجٌ حىّ يأكل دجاجاً محمّراً . . ويطير . . لغطٌ آدمىّ يتفشى فى المكان . . يصعد إلى صدغى . . يحفر نقباً ويدخل مثل الدود . . أصوات العربات فى الخارج غير مسموعة تماماً . . ما هذا . . أحدق فى السقف يبدو أكثر اتساعاً من أرضية المطعم . . شاب ضخم يمشى باتجاه الباب الخارجى كأنه يريد أن ينسف شيئاً ، يناديه أحدهم ، لا يرد . . يكتفى بالوقوف ليسمع . . ثم يستمر . . يفتح الباب ، يشير إلى الجالس البدين بيده قائلاً : انتظر منى مكالمة ! ويمضى . . الزبون صاحب الثلاثة أرجل يشير إلى شاشة التلفزيون . . ويسأل رفيقه على الطاولة : ــ ماذا يمسح ماذا ؟

الخطوط الأفقية ذات الألوان تظهر فجأة . . ثم تصعد وتختفى ، زوجان من الذباب يتعاونان على القيام بعمليات تعبوية خسيسة ومضحكة . . حشرات ملعونة ، يَنبغى أن تظل جائعة على طول . . إذا شبعت فسقتْ !

ماذا يمسح ماذا ؟!

يتأفف الثانى . . وبحركة جنسية من يده باتجاه شىء ما يعبر عن عدم رغبته فى الكلام أتدخل بينهما : ــ زوجة السيد « . . . . . » تمسح بصلعته البلاط ! . . هل هذا سؤال يُسأل ؟! فينفجر الاثنان بالضحك البدائى والمجنون ، بينما تتوب الشاشة وتضىء على جسم أبيض شبه مستدير . . تفقس البيضة . . يبرز من خلالها مذيع من الدرجة الثانية . . ذو لغة جيدة . . « نأسف لهذا الخلل الفنى . . ونتابع معكم الإرسال . . »

الرجلان يضحكان ويحرثان لحم وجهى بنظراتهما . . أربع عيون تكفى لتدمير عمارة من طابقين . . اللعنة . . هل قلت شيئاً يثير قلة الأدب إلى هذه الدرجة . . وفكرت أن أضربهما لكننى خفت حينما وضعت بنيتى أمام الأمر الواقع . . وإذ اطلعت على هذه النتيجة التى تتنافى مع الاعتداد بالنفس أمام تلاميذ المدارس . . لم يسعنى إلا أن أسحب مسدسى ذا الخمسُ طلقات . . وأرديهما قتيلين برصاص خيالى . .

أطفأ القائم على شؤون المطعم الأنوار إلا قليلاً . . أقفل

رتاج الباب . . قلب اللوحة الصغيرة ومسح شوارب المذيع بضغطة خفيفة على الجهاز . . والتفت يعتذر مثل اعتذارات مضيفى الطائرات . . ، همست فى أذنه ، قال : لا ، الليلة لا أستطيع . تعال فى مساء الغد !

وهاأنذا بالنيابة عنه أقدم اعتذارى المقرون بأسف شديد لأننى لم أستطع عرض « البورتريه » بالشكل المطلوب . أعدكم أن أرسمه لكم فى لوحة (!!) ولكن اسمحوا لى أن تكون هذه القصة أيضاً بعنوان « الوجهُ »!!

الجوف ــ السعودية : عبد الرحمن اسماعيل الدرعان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فـــؤاد قـــنديـــل

قصـــــة

تـــوابـــيت مـــنـــصـــور

لم يتوقف القصف لحظة واحدة منذ الفجر . كنا نثق أن رداً عنيفاً سيبدأ مع أول خيوط النور . . منطقى أن يحدث هذا فى أعقاب الهجوم الشرس الذى قمنا به طوال نهار الأمس ، وتقدمت قواتنا فى القطاع الشمالى الصعب نحو خمسة كيلو مترات عزيزة . . أما اليوم فموعدنا الخنادق ، والوقوع بإرادتنا فى مصيدة البرد .

حين مددت يدى بالشاى لمنصور كان شارداً ، ولم يردّ قبل نداءين ولكزه . . قبض على كوب الشاى فى غير فرح ، وكان من عادته أن يبتهج له ويحتفل مردداً بعض كلمات الترحيب ، والشكر لله الذى خلق هذا المشروب العجيب وخاصة فى أيام الزمهرير (ونضحك لإصراره على استخدام كلمة الزمهرير) . . مؤكداً فى كل مرة أن كوباً من الشاى وسيجارة يكفيان كى يسود السلام كل أرجاء المعمورة (ونضحك لإصراره على استخدام كلمات مثل المعمورة) .

قلت له : ما بك ؟ . تبدو خائفاً على غير عادتك .

قال وهو ما يزال مكباً بشروده : تطالعنى صورة أمى بشكل مُلحّ وهى تضع رأسها على كفها وتبكى .

ساورنى القلق لغياب حيويته المعهودة . . لم أجد ما أقوله غير :

ــ قُل لها ليس هنا مكانك .

سألنى : مالذى يحدث إذا عَرَفت إحدى هذه الدانات العمياء طريقها إلينا ؟

زادت رقعة التوجس ، فقلت :

ــ لم تفكر فى هذا من قبل ؟

أجاب بلا تردد : الفرصة لم تسنح كى نفكر .

قلت ــ اليوم عطلة . . والفراغ ليس فى صالحك .

انطلق كالولد الشاطر المستعد للامتحان : عطلة من الجرى وراء الدبابات . . لكن التفكير . . حاولت أن أوقفه : التفكير أسوأ .

قال بحماسة : مهاجمة الكلاب أرحم من رؤية أسنانهم الشرسة .

تأملته لحظات . . اكتشفت أننى أنا الذى أستفزه ليقول هذه الكلمات الموجعة . . لاشك أنها تؤرقه وتزعجه حتى بدون أسئلتى ، ولكننى خشيت على نفسى منه . يمكنه بسهولة أن يضمنى إلى عالمه ، وأنا لا أميل إلى التفكير . . أنا هنا فى الحرب لأحارب ، لا لأفكر فى أمى وزجتى ــ السيجارة والشاى يكفيان الآن ليسود السلام كل أرجاء المعمورة . . قلت له ذلك . . فابتسم بطرف شفة . عثرت على لوحين من الخشب . أسندتهما مائلين على حائط الخندق ، وقفزت فوقهما بحذائى الثقيل ، فتخطياً ، أشعلت فيهما عود ثقاب ، ورعيته حتى مضت النار الوليدة تأكل فى الخشب ، وبعد أن وثقت بقدرتها على الثبات فى وجه البرد والريح قمت فملأت البرّاد من جديد وأعددت الأكواب لمن يريد ، ومددت يدىّ مثل منصور تقريباً داخل اللهب المتورد .

سألته بهدوء : ماذا بك اليوم ؟ .
ـ قلت لك أفكر فى أمى .
ـ أختك معها وأخوك الكبير .
ـ سيطول الوقت قبل أن يجف دمعها وتهدأ ثورتها علىّ .
ـ أنت لن تموت .
ـ لا يعنينى يا أخى أن أموت .

أخذت نفساً عميقاً وبدا علىّ أنى يئست من حالته . . قلت وأنا أمد له سيجارة .

ـ دخن واستمع إلى مطربك المفضل ـ وألق نظرة على صورة الفتاة التى تخفيها فى صدرك .

ابتسم فأكملت عليه « بزغزغة » فى جنبه ، فتقلب ضاحكاً . . لكنه عاد بسرعة إلى حالته وقال : أنا أفكر فى شىء .

ـ قلت لك لا وقت الآن للتفكير . . إلا إذا كنت مثلى تفكر كيف تستحم . . هذا ما يشغلنى .

قال : أريد عدداً من صناديق الذخيرة .
ـ الصناديق تُضرب الآن بكل عنف .
ـ الرصاص لا يسقط على الصناديق الفارغة .

قلت له : لن يسمح لك أحد بذلك .

قبل أن أتم عبارتى كان قد أسرع متجها إلى باب الخندق . . ناديت عليه بحدة . . لم يرد . . نادى عليه خيرى ورجب وعلى . . لم يعبأ ، لحق نجيب بساقيه بينما كان يصعد فوق أكياس الرمل خارجاً ، دفعه منصور دفعة قوية أعادته إلينا مقلوباً .

وقفنا نحن الأربعة على باب الخندق لا يظهر منا إلا أنصاف وجوهنا ، تابعنا حركته وهو يحاول أن يتفادى الدفعات المتلاحقة من دانات المدفعية . . ارتعد جسدى فجأة وأنا أطرد هاجساً أكيداً بأنه لن يعود . .

خيمات الدخان تظهر وتنتشر ثم تختفى ، وتعقبها أمواج الأتربة الساخنة التى تثيرها انفجارات قريبة ولم نعد نراه . . ها نحن جميعاً نعيش فى فرن هائل قادر على إحراق كل شىء . تنهدت عندما خطر ببالى أننا وقود هذا الفرن . . الآن لا أرى على بعد أمتار وكانت بالأمس تمتد المسافة أمامى عارية إلى ما لا نهاية . . القذائف اللعينة لا تزال تنقض على الأرض فتخرج أمعاءها وتُطيرها إلى كل الاتجاهات . همست وأنا أمضغ أسنانى :

ـ ضاع المجنون ! .

أسندت رأسى إلى يدى وتمنيت أن يتدخل خالق السماوات والأرض . . فجأة . . دوى صوت انفجار شديد ووجدنا أنفسنا على أرض الخندق ، حدق كل منّا فى الآخر برغم الظلمة التى سادت ، وبقينا نرقب الوضع لحظات ، ومع انقشاع الدخان والتراب المثار رأينا قدمين تهبطان إلينا . . كان منصور يحمل عدداً من صناديق الذخيرة ! .

لابدّ أننا فكرنا أن نهجم عليه ونضربه ، أما أنا فقد رأيت أن أحتضنه وأقبله بشدة بعد أن وُلِد من جديد وأعاد إلينا الحياة .

بدا عليه الارتياح وكأنه أدى واجباً ثقيلاً كان يجب أن يتمه . . سأله على دومة : لماذا أحضرت هذه الصناديق ؟ .

قال رجب : سيصنع مطبخا .
وقال نجيب : لا . . بل مكتباً وربما مكتبة
ثم قال خيرى : لا شك أنه سيصنع سريراً .

لم يعلق منصور ومضى بحذر يخرج المسامير . . مسماراً مسماراً . . والمثنى يعدّله بقطعة حديد . . كسر أحد جانبى صندوق ، وأحد جانبى صندوق آخر . . وضمهما معا وثبّتهما بالمسامير ، ثم قلبهما وثبّت فيهما قطعة عريضة من الخشب امتدت عليهما معا فصارت لهما قاعدة واحدة ، ثم عدلهما ، فإذا الصندوقان صندوق واحد كبير .

فجأة دخل فيه منصور وتمدّد وبقى ساكنا ، منتظراً ما يحدث . . ثم رفع جذعه بعد قليل . . وابتسم لنا :

ـ ما رأيكم ؟ .

نظر الجميع إلى الجميع . . أما أنا فقد انقبض قلبى . . نظرت إليهم . . لاحظت عدم الاهتمام . . مصمص رجب شفتيه وقال :

ـ أصحاب العقول فى راحة ! .

قلت لمنصور : أتعرّض نفسك للموت كى تصنع تابوتا تحسس التابوت بيديه وتأمله ، كأنه كرسى للزفاف . . طاف حوله بفرح . . وكأن هذا التابوت حصان طائر . . هَزّه ليتأكد من تماسكه .

قال : لابد أن أعود إليها ولو جثة . . لا أستطيع أن أتحمل منظرها وهى تتلقى نهاية ابنها مجرد خبر : منصور . . تعيشى أنت . . لابد منه ياشمس . . لابد .

انشغل من جديد فى إعداد غطاء مناسب ، وبعد أن انتهى منه ، دخل فى التابوت وغطى نفسه . . سكن لحظات ونحن نتفرج عليه . . كأنه يقدم عرضاً مسلياً ، ، تنبهت أن القصف توقف .

خرج وجلس إلى جوار التابوت يتأمله . . لم يتحدث إليه أحد ، وبقى هو على حاله . . تمدد البعض هنا وهناك .

بعد قليل جاء جنديان يحملان صندوقاً به شيكولاته ، أعطيا كلا منا قطعتين كبيرتين ثم غادرانا إلى خندق آخر . . تسللت أصوات اللاسلكى واضحة إلى أسماعنا . . أبلغنا الملازم أمجد بأن الأوامر قد صدرت بالصعود بعد نصف ساعة استعداداً لعملية هجوم سنقوم بها . . أشعل الجميع السجائر وكأنهم يتنفسون آخر الأنفاس ويستعدون للنهاية بلا تفكير أو غضب كأن الأمر لا يعنيهم .

نظر على ورجب إلى تابوت منصور وأطالا التحديق ، ثم نظر كل منهما إلى الآخر . . دار « على دومة » على جنبيه دورتين فأصبح إلى جوار منصور . . جلس صامتاً برهة ، ومنصور ينتظر . . أخرج على الشيكولاتة وقدمها لمنصور قائلا فى رجاء حزين :

ـ اصنع لى تابوتا مثل تابوتك .

نهض منصور متهللا وأخذ الشيكولاته وهو يقول :

ـ خذ هذا ياعلى . . وسأصنع لى غيره .

رقصت أسارير على فجأة ، إذ وجد له تابوتا جاهزاً . . وليس تابوتا عاديا وإنما هو « البِكْرى » . . احتضنه ثم دخل فيه وغطى نفسه كما فعل منصور . . خرج منه وجَرُّه إلى الركن الذى تعود أن يجلس فيه مع رجب . . شرع منصور يعمل فى تابوت جديد بينما غمس على قطعة من القماش فى قاع كوب الشاى وكتب بها على الصندوق بالبنط الكبير ، على دومة . . كفر سندنهور قليوبية » .

أعجبت منصور هذه الإضافة ، لكنه لم يجد الوقت ليكتبها ، إذ أمرنا الملازم بالخروج فورا . . وقبلنا اختطف منصور سلاحه وتقدم الجميع .

حين طلعنا إلى السطح استقبلتنا سحابات راحلة من الدخان ، أما الشمس فقد اختفت تقريباً ، ولكن الرؤية ممكنة . . كان مدهشاً هذا السكون الذى شمل المنطقة ، ولو أن ثمة فحيحا غريباً كان يتسلل بين عروق الصمت المرتعد . . وكأننا نجوس خلال أوكار الثعابين . . أو أن حيوانا أسطورياً يتنفس من حولنا . . آمنت أخيراً أنها أنفاس مدافع العدو المرهقة ، والتى كلفها بالعمل طيلة النهار .

صدرت الأوامر بمهاجمة مواقع المدافع التى عانينا من قصفها . . لقد جرَّب قادتنا طريقة المعارك الصغيرة وأساليب حرب العصابات ، ووجدوا أنها أصلح الطرق لتأديب العدو المتغطرس وتحقيق ضربات مؤثرة بأقل الخسائر . أمدَّتنا دوريات الاستطلاع بكل أسرار هذه المواقع وتجهيزاتها ، لذلك فوجىء بنا أفرادها وكانوا يستعدون للراحة . . تفجرت فى ملامحهم كل علامات الرعب . . لم يكن أمامهم من سبيل غير الالتحام المباشر . . أكره ما يكرهون . . سقطت عليهم القطط البرية وليس لديهم فرصة كافية لعمل شىء ذى قيمة . . حصدنا كل أفراد الموقع فى دقائق ، وعدنا بأربعة منهم ، ولم يُصَب منا إلا على دومة الذى أخذ ينزف بغزارة . .

اصطحب الملازم ومنصور الأسرى الأربعة إلى قيادة الكتيبة ، وأعددنا نقّالة سريعة لنقل « على » . . لم يُفِدْه اعترافنا الصادق بأنه أكثرنا شجاعة وخفة دم . . نزف بلا توقف وأكثر مما ينبغى .

قاسية للغاية لحظة دخوله إلى التابوت . . تحدث بعضنا عن حسن حظه ، وأنه تنبأ بموته قبل أن يموت فعلاً بنحو ساعة ، وها هو يعود ـ كما تصور وأراد ـ محفوظاً إلى تراب قريته ، وفى حالة أفضل بكثير من غيره من الشهداء .

زرع منصور فينا ـ الله يسامحه ـ حكاية التابوت وضرورة عودة الجسد ، وكأنه مادام الجسد قد عاد للأهل ، فإن الشهيد لم يفارقهم . . لابد أن يكون كل شىء متجسداً . . حتى الموت . . فمن تراه الذى غرس الفكرة فى رأس منصور ورواها ؟ . . وأيها أرحم بالأهل . . الموت/الخبر أم الموت/الجثة ؟ . .

قال منصور بعد أن عاد واشترك بالحوار فيما تسبب فيه : الموت الجثة ينهى الحُزْن تماما بعد لحظات ويحقق طمأنينة داخلية وأبدية . . أما الموت / الخبر فيظل مزعزعاً كطير فى السماء لا يستقر . . يسمح بالتخيل والتصور والأمل والوهم . . وتبقى الهواجس إلى أمد بعيد تؤرق وتعصف .

لاذ كل منا بركن ـ وإن لم ينقطع الحديث عن « على دومة » إلى أن جاء محمود سائق « الجيب » وأعطى منصور خمسة جنيهات قائلاً :

ـ هى التى معى .

راقبناهما فى صمت ، كان منصور يردّ النقود ومحمود يلح ، ثم أخذها منصور وخرج مع محمود . . تشاغلنا بالشاى وبعض البسكوت وفتحنا الراديو . . قال رجب نكتة . . لم يضحك أحد . . ألقى ثانية ، لكنها لم تكتمل لأن الملازم رفع صوت الراديو .

عاد منصور بعدد كبير من الصناديق ووراءه محمود يحمل هو

الآخر صناديق فارغة . شرع يخلع المسامير ويعدل المثنى منها . ولفت نظرنا لأول مرة أن منصور يدق المسامير بشاكوش حقيقى . . بدا لى غبياً وهو يصر على الخوض فى هذا المستنقع . . جاء إليه جندى لم أر وجهه من قبل وأعطاه خاتمه الذهبى ، وجاء آخر وقدم البسكوت والشيكولاتة ، أما عبد المنعم الشاعر فقدم قصيدة طويلة كانت قد أعجبت منصور ، واعتذر لأنه لا يملك غيرها . . فرح بها منصور وأخذ يتأملها ثم قال :

ـ خطك جميل ياعبده !

اهتز عبد المنعم بقامته الطويلة النحيلة وبدا عليه الخجل وهو يقول :

ـ وفيه حاجة ! .

سأله منصور بعينيه ، فقال عبد المنعم محاولا أن يتوارى :

ـ أنا كتبتها . . بد . . بدمى .

حدقنا جميعا فى المجنون الجديد ، إلى أن قال رجب

ـ هو أنت فيك يا « منيّل » ؟!

بدأ منصور العمل ونسينا كل شىء . . إنها الحرب . . طلب رجب أن يحصل كل منا على أتعاب مقابل الضجيج . . وقال الملازم أمجد :

ـ أريد إيجار المحل .

فقلت له : ليس من حقك تأجيره من الباطن .

أما سمير الذى لم نسمع له صوتاً ونحسبه بلا صوت فقد زعق فجأة قائلاً :

ـ وحدوو . . ه

جاء آخرون واتفقوا مع منصور الذى لم يكف عن الدق ، وكان قد طوّر عمله فطلب من الذى يريد التابوت أن يحضر هو الخشب ويدفع لمنصور أجرة يده .

بعد قليل قال سمير الذى نسيناه .

ـ الدوام لله .

وسألت منصور :

ـ هل ستجعل كل التوابيت متشابهة ، هناك من دفع لك خمسة جنيهات وهناك من لم يدفع إلا قصيدة .

ـ بدمه . . وهناك من دفع عشرة .

ـ إذن أكتب له عبارة خاصة على التابوت .

نظر منصور جادا إلى وسألنى :

ـ ماذا تقصد بعبارة خاصة ؟ .

ـ مثل ياناس ياشر . . كفاية قر .

وضج الجميع بالضحك ، وأضاف رجب .

ـ ما تبصوليش بعين رضية . . شوفوا اللى اندفع فيه وقال خيرى :

ـ ياناس ياعسل . . الجميل وصل .

بدا على منصور عدم الرضى فتنهد وهز رأسه أسفاً على سوء أخلاقنا .

تناهى إلينا غطيط بعض الزملاء فتذكرنا النوم الذى لم يزرنا منذ أيام قررنا ـ ما عدا منصور طبعاً ـ أن نغلق الراديو ونختطف من النوم ساعات قليلة .

قبل أن أنام خطر ببالى خاطر أجّل نومى بضع دقائق . . لقد لاحظت أن أحداً من زملاء الخندق لم يطلب تابوتا ، مع أنهم كانوا قد فكروا فى ذلك بعد أن حصل « على دومة » على تابوته . . كل من طلبوا التوابيت كانوا من الخارج .

قمت فزعاً من نومى ، ربما بسبب الهدوء الشامل فإذا الخندق يسبح فى بحيرة من الضوء الصافى . . الجميع مثقلون بالنوم . . بحثت عن منصور إلى أن وجدته خلف أحد التوابيت . . دنوت من باب الخندق فطالعنى القمر المزدهر . . وجها من الفضة المتألقة . . شاركت فى ثلاث حروب كان القمر حاضراً فيها جميعا . . قلّبت المسألة قليلا دون أن أجد تفسيراً . . كان يكبر فجأة ويطلع علينا كل ليلة ويبقى معنا دون نقصان إلى نهاية الحرب ، وكأنه يحرض على عمليات الليل . . خفت على نفسى من التفكير ، فقررت اللحاق بزملائى ، لكن الضوء البهيج والسلام اللذيذ اللذين سادا ونفذا إلى قلبى أغرياني باليقظة لاستقطار سحر اللحظات النادرة .

شن العدو هجوما مجنونا شمل كل القطاعات وكأنه قرر أن ينتحر . . كان كل شىء يشتعل وينفجر وينقلب تماما . . وبين الحين والحين كان هناك من يأتى ليسحب تابوتا حتى انتهت جميعها ومنصور قابع فى ركنه شاحب الوجه يرقبها وهى تنفذ واحدا فى إثر واحد . . يحدق فى الجندى الذى يأتى يسأل بعينيه فيشير إليه منصور بإيماءة مصرحا بحمل إحداها . . ينحنى الجندى ليحمل التابوت وعينا منصور عليه ، تتبعانه باهتمام حتى يمضى .

انتهت . . فتحولت إلى منصور . . ألفيت الحيرة على وجهه وأصابع يديه . . الهجوم لا يزال ضاريا برغم الغروب الوشيك ، وهو لا يستطيع أن ينهض ليحضر الصناديق . . قررت أن أهجم عليه وأضربه بعنف إذا أقدم على الخروج .

دنوت منه حتى لا يفلت منى . . سألنى خيرى عن علبة الثقاب فألقيتها إليه وعينى على منصور . . رأيت أن أسأله حتى أسهل على نفسى المهمة ، وكانت السيجارة قد سقطت من بين شفتيه : - ماذا بك يا منصور ؟

قال وهو يبتلع ريقه وينظر إلى الخارج ويحك رأسه :

- ألا ترى . . إن القصف لا يتوقف

- اطمئن سيتوقف بعد قليل

- حقا ؟

- وهل سيستمر إلى الأبد ؟

تنهد وقال :

- شمس . . أريد أن يكون لى تابوتا . . لى أنا . . ولا أبيعه أبدا

- عمر الشقى باق . . أنت لن تموت

- ولماذا لا أموت ؟

- يريدك الله أن تبقى لتصنع التوابيت للذين سيموتون

تحول عنى وبدأ يقضم أظافره ثم قفز خارجا . . طِرْت وراءه ولحقت بقدميه وتشبثت بهما وجررته إلى الخندق ، فكرر المحاولة ، ولكنى وجهت إلى فكه لكمة عنيفة ، ألقت به على الأرض ، فغاب عن الوعى لحظة ثم فتح عينيه ونظر إلى فى عتاب وكراهية .

صرخت فيه بكل قوة : لن أسمح لك . . هل تفهم ؟

أحاط به خيرى ورجب ومسحا نقطتين من الدماء أطلتا من شفتيه . أما أنا فجلست أحرس باب الخندق متربصا به .

بعد قليل مر بى الملازم خارجا يستطلع ، ثم عاد إلى الخندق واستمع إلى اللاسلكى لحظات . .

- « قول » من الدبابات سيعبرنا بعد قليل ولابد أن نتصدى له . . هيا بنا قبل أن ينهى الملازم كلماته كنا جميعا بالخارج ، وكأننا نَفِرٌ من سجن مظلم خرب .

عزمت على أن أصيد أكبر عدد ممكن من الدبابات اللعينة . . لقد كشفت لنا توابيت منصور بمنتهى القسوة مقدار ما فقدناه اليوم من أرواح . .

ظهرت على الفور الجبال المتحركة تتقدم نحونا خلال الدخان . . لقد خرجنا إليها فى الوقت المناسب . . وبدأنا فى الضرب . . أصاب منصور واحدة فأستبشرنا وأعقبه رجب ثم خيرى لأنهم كانوا يسبقوننا نحو مائة متر .

- الله أكبر . .

لم تمر أى دبابة منها . . الدخان يرحل والساحة تنكشف . .

كانت بعض الدبابات تهرب ببلاهة إلى الشرق لتدور خلف التل . . بدت الدبابات وهى تحاول الفرار كالفيلة الهائجة . . فجأة سمعت صوت الرصاص ينهال من مدفع رشاش على منصور ويثقبه فى كل موضوع والرجل يتقلب بعنف هيستيرى ، ثم سقط كقطعة غالية من بناء مقدس انتفض جسدى كله كأنى أصبت بالحمى وكاد « الأربى . جى » يسقط من ذراعى وتعثرت بأحد الكثبان الرملية الصغير . . شىء ما ينهش قلبى . . منصور . . لا

أَحَسَّت بعض الدبابات أن الطريق أصبح مفتوحا . . هَرْولَت مندفعة مرت إحداها على جسد منصور . . آه يا منصور . الكلاب لم يرضهم موتك بالرصاص . . صفعة أخرى لى أن تمزق جسدك الشريف جنازير الدبابة . . كيف أجمع الآن لحمك ؟ . . كيف أجمع الآن لحمى ؟ . . كيف ترى الآن وجهك أيها العالم ؟ . . أفقت من إطراقه الذهول . . وجهت الصاروخ بنظرى المجرد ثم حَدَّقْت من خلال المنظار فى المنطقة التى يلتقى عندها البرج بالهيكل ، قمت بعمل حساباتى بسرعة قياسية لم تستغرق خمس ثوان ، وضربت . . انطلق الصاروخ كما رسمت . . وانبجس عمود اللهب من جسم الدبابة . . ثم سقط البرج فجأة . . أسرعت إلى أخرى فأصبتها ولحق زملائى بمعظم الدبابات ، وأفلتت اثنتان وتجاوزنا مواقعنا . . لكن تقدمها لم يستمر دقائق إذ فوجئنا بواحدة تنفجر وتعقبها الأخرى ويسرع طاقمها بالهرب ليعود إلينا فتتلقفه ، وكان معنا ثلاثة من أسرى الأطقم السابقة .

انتهت مهمتنا . . شعرت أنى وحيد وأجوف وجزء حقير من المأساة الإنسانية . . . واجهنى منصور يبتسم فى رعب ويبكى ، تنتقل صورته كشظية فى إثر شظية تمزق قلبى وفكرى . . صورته بعد أن لكمْتُه وطرحته أرضا ، وكان ينظر إلى أنا الصديق بكل غضب وقسوة ، ثم صورته والدبابة تسير فوقه بعد أن انهمر عليه مطر الرصاص . . تتكرر الصور والشظايا . . وأخيرا قال لى :

كنت أريد تابوتا لى وحدى . . لا أبيعه . . أبدا تقدم منى رجب وسألنى عن حالى . . قلت له :

- أحفر لمنصور .

القاهرة : فؤاد قنديل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصـــــة

الأحـــــــــــراش

نفس الـدرب القـديم ، بـالتـواءاتـه الكثيـرة ، ونـدويـه المـزمنة . . من ينسى درب شغـلان ؟! من لا يذكـر إبراهيم السروجى وطالب الكـوثر ؟! تهـدج الصوت ثم احتبس . . ملأت الغصة الحلق وتداعت الأحزان . . هل يدع السكين الثلمـة تشق الصدر ، تغـوص فى القلب ؛ فتتحرك المواجع القديمة ، لا تهجع إلا إذا توضأ واستعان .

أطلت عليه اليافطة الزرقاء ، على طرف الجدار ، اليافطة القديمة بعينها ، وإن كانت متربة ، يكتنفها الصدأ ، وتعلوها السنون . . قرأ بلا صوت : « حارة صايمة » .

هبطت عيناه . . تغيرت البنايات ، وضاعت المعالم . لم يبق منهـا شىء ؛ مجرد أطيـاف باهتـة ، تعبر الـذاكرة كـالومض الخـاطف ، ثم تغيب . . عزاؤه الآن فى طيب المسعى ونبـل المنشود .

« انطمر الفعل الوحشىّ تحت سجوف كثيفة . رانت عليه البلادة . هوى فى قاع الذاكرة السحيق ، تباعدت به السنون المتعاقبة إلى وراء بعيد ؛ فلم يعد يُواتيه إلا فى أحلام متباعدة . فمن أحياه ؟ من نكأ الجرح الملتئم حتى انبلج ؟ من آثار الكامن حتى اهتاج ؟» .

ثقل عليه الحمل فناء به القلب . . سرى إلى العقل فكاد يجن ؛ يضرب فى المتاهات البعيدة ، كجمل شرود ، لا يعود إلا بصحبة كوكبة من الأهل والخلان . . طلبوا له العافية . ولما أعيتهم الحيل نصحوه أن يجاور آل البيت وأولياء الله ردحاً من الزمن ثم يعود ، فلبى واستجاب ؛ تزود بالمال وشدّ الرحال .

ولج الحارة بعزم صادق ؛ لا راحة إلا فى التخفف ، ولا برء إلا فى الصفح ، غابت عنه سكينة النفس ، وجـافته راحـة البال ؛ فلا مبرر لوسيلة ، ولا جدوى من غاية .

تجاوز بيتا وآخر . . الرحبة . هنا كانت . . .

« . . . تلعب نطة الحبل ، فتتراقص ضفيرتها الطويلة . . تراه فيمتلىء وجهها بالدم ، يعرف لماذا تعبث بضفيرتها وتغض الطرف ؛ صدرها يوشـك أن ينهض . . تتجنب فيبتسم . . صغيرة على كل هذا . لا تندمج من جديد إلا إذا تأكدت أنه قد غادر الحارة ، أو غاب داخل البيت . هل كانت تعمل حسابا له ؟ » .

دار مع الزاوية القائمة ، كما كـان يحلو له أن يسمى هـذا الانكسار الحاد من امتداد الطريق . . طوت عيناه الشـرفات المتراصة فى لمحة خاطفة وحطّت عليه . . من دون البيوت جميعاً عانقته النظرة ، واحتواه الصدر . . النافذة . . مغلقة كأنها لم تُفتح طيلة هذه السنوات . . الحجرة الوحيدة على السطح ، ترنو إليه ، استأجرها من الأم الأعوام الأربعة ؛ سنىّ الدراسة وصحوة القلب .

هل يمضى أم يعود ؟

يأتى من آخر الدنيا ؛ من ذلك الوادى الـ . . . لا يدرى لماذا وسموه بالجديد . قطع الفيافى المترامية . . هبط أرضاً وركب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أخرى . . رمى وراء ظهره العديد ــ لا يدرى كم ــ من البلدان والعشائر . ثم يأتى اليوم ليقول لنفسه : هل يمضى أم يعود . هل ناله الخبل ، كما يدّعون ، أم أصابته عين ؟

هو ــ وحده ــ الذى يعرف وجيعته . وهو ــ وحده ــ الذى يعرف فيم يكمن الداء وفيم يكمن الدواء .

الصباح . . الضوء الهين اللين ، كفجر ندىّ . . المداخل الأليفة ، الحميمة ، كصدر أم . . ياااه . القلب سعيد والفرحة طاغية ، اللهم استر .

« كانت تأتيه فى الزمن القديم ، بروحها الطليقة ، تقتحم عشه الهادىء بلا « إحم » ولا « دستور » ؛ فينفجر الصخب ، ويتوالى النزق . تعبث بحاجياته ؛ فتلبس نظارته الطبية السميكة ، تفرد ذراعيها ــ على آخرهما ــ وتتلمس الجدران . تحاكيه ؛ فتعمل لنفسها شاربا خفيفا ، كشاربه ، ثم تتأمل نفسها فى مرآته الصغيرة ، وتموت من الضحك . عندما تكف يرى بريق الدموع ، تمسحها بظهر يدها ، وهى تلهث ، وصدرها الصغير يعلو ويهبط ، فيقول فى نفسه ، اللهم اجعله خيراً . تدفع بيدها الرقيقة داخل جيبه ؛ فتنتزع منه ما تشاء ، كأنه أبوها الذى لم تره ، أو أخ كبير ضنّت به الأيام . ترتمى على سريره السفرى ، يغفل عنها ، فتنام . يغطيها فى ليالى الشتاء . . قبل أن يتأخر الوقت يلفها بمعطفه الثقيل فى إحكام ، ثم يحملها فى حنو ؛ يدع رأسها الصغير يتوسد كتفه اليسرى ؛ فينهدل شعرها الغزير على ذراعه ، يهبط بها فى حرص بالغ . تأخذها الأم فى الحضن محرجة . . تغيب قليلا ــ وهو واقف ــ ثم تعود ، تدفع إليه بالبالطو معافى ، وتطلب منه أن يحمد الله ؛ فلم تعملها هذه المرّة » .

توقف قليلا . رأى المربع الأزرق الصغير على صدغ البيت ، وسبعة فى وسطه ، بيضاء لا تكاد تبين فقال فى نفسه : دوام الحال من المحال ؛ فى هذا البيت ؛ فى هذه الحجرة الأرضية ــ على يمين الداخل ــ كان يسكن داود . فى هذا الطابق العلوى كانت تسكن أم نادية ببنتيها الجميلتين ، طالبتى العدل . الكبيرة خطبها طالب سودانى ــ نسى اسمه ــ أما الصغيرة ؛ قطعة السكر ، فقد تعلقت بحبل « ذائب » ؛ ساعة الجدّ فص ملح وذاب . . الغبىّ ! لو التقى به الآن . . . لكن كيف ؛ وقد تباينت الطرق ، واختلفت المشارب ، وأصبح الممكن كالمحال ؟!

هل يمضى أم يعود ؟

« فى أيامه الأولى صعدت إليه ، لم تأخذ نفسها ، وتجلس على الكنبة العارية التى وضعها فى فناء السطح الرحيب . قالت له ــ وهى واقفة ــ إنها أرملة ، ثم أشارت إليها وقالت : إنها فى القبول ، وأنها من أجل ذلك أتت إليه . لم يتكلم ، فاقتربت منه ، ووضعت يدها على كتفها اليسرى ، وقالت : إنها لا تحب أن يدخلوا بيتها ؛ فكلهم خنازير » .

مرقت قطة صغيرة من بين ساقيه ، ثم غابت ، لم يدركها الكلب الضخم . اكتفى بنبحة مبتورة ورجعة خائبة . استراح لهذه النهاية . تمنى لو أمسك بحجر صلد ، ودشدش به رأس هذا الكلب ؛ فالقطة صغيرة ؛ صغيرة للغاية ، ولا قدرة لها على هذه الهجمة المباغتة .

كان قد وصل إليه فقال فى نفسه وهو يحدجه بنظرة حانقة : إن رحت أو جئت فأنت كلب ، وشىء طبيعى أن يبدر منك هذا ، ولم يزد ؛ فقد بدا له الكلب غبياً وبليدا .

« لا يبقى شىء على حال أبدا : عبّ الجسم الصغير من نبع العافية حتى شبّ عن الطوق ؛ تفتحت أكمامه ، وباح بمكنونه ؛ ثقل الصدر ، ونطق النحر ، اكتسى الوجه بطبقة دهنية ، وأبان عن حاجة . هل كان الشبق ؟» .

أبطأ الخطو ، يود أن يعود ؛ طالت القطيعة واهترأت حبال الصبر ، فماذا يبقى له فى القلب ؟ نوى ، وعقد العزم ، سعى ، وجدّ فى الطلب ، لكنه لم يعمل حسابا لهذه اللحظ ؛ لحضة المواجهة .

« كان عليه ــ وهو الكبير العاقل ــ أن يُراعى كل هذا ؛ أن يلفت نظرها ــ بطريق ما ــ أن الظروف قد تغيرت كثيراً ، وأن ما كان مقبولا فى البداية غير مستساغ الآن ؛ فلم تعد الصغيرة بنت القبول . ولكى تصدق كلامه عليها أن تقف أمام هذه المرآة ، وتدور حول نفسها مرّة أو مرتين . لو فعل هذا لكفت من تلقاء نفسها عن أفعالها الطفلية ؛ فلا تتعلق برقبته وتطلب منه أن ينهض بها ، أو تتسحّب دون أن يراها ثم تباغته بتغطية عينيه براحتيها الطريتين ، فيضطر ــ لعن الله الشيطان ــ أن يمسك بيديها الممتلئتين . يحسّ بدفئهما ، فيتمادى حتى تنغرز أظافره فى الزند . تصرخ يفيق . لا يدرى منذ متى استطاب ملمسها ، ولا منذ متى اختلطت عليه الأشياء » .

وجد نفسه أمامه من جديد . من أين طلع له ذلك الملعون ؟ هل ينهره فيمضى ؟ أم يدعه لحال سبيله ؟ الغريب أنه لم يعد يشعر نحوه بحنق أو ضيق ، فهو ــ وإن كان ضخم البنية والقطة صغيرة ــ يبدو مسالماً إلى حد كبير . ودّ لو يربت على ظهره ، لو يهش له ويبش ؛ ليعرّفه ــ على الأقل ــ أنه متفهم لظروفه تماما ، وأنه ــ الكلب ــ لديه ، بالتأكيد ، دوافعه الخاصة ومبرراتها المقبولة .

« رأى عشبا نديا ، وكان حافيا ، فأقدم ، جاس واستطلع . استطاب ملمسه الحميم فأوغل . مضى حتى ابتلت قدماه وتحفّزت مجامعه. لاحت له الأشجار الظليلة ولامس الثمار الشهية . رأى الطيور الخضراء وسمع الأصوات الشجية . أسكرته الرائحة ، وحلقت به الأهازيج . . ركضت به الخيول البرية وحملته الأعاصير الشتوية . تمرغ فوق المروج الخضراء ونهل من الأنهار السبعة ؛ حتى ارتوى ، وثمل . أخذته الغفوة الناعمة بعيدا ؛ فغاب . . عندما أفاق لم يجد غير أحراش شوكية ، وطيورا سوداء ، وغصّة مُرّة تملأ الحلق » .

لا ينبغى أن يترك الحرج يثنيه عن العزم ؛ يجعل رحلته بلا جدوى أو غاية. تزوّد بالأمل وتقوّى بشرف القصد ؛ فأمكنه أن يتخفّف . واتته الجرأة وتلبسته المعونة ؛ فاستسهل ما صعُب ووصل ما انقطع .

« ظل شهورا عدة ، يتربص بالبطن القابع طيلة النهار . وفى الليل ــ إذا غفا قليلا ــ تمضى به المخاوف إلى أبعد مدى ؛ فيحلم بقباب شاهقة ، تتفتّق عن كائنات حية ؛ غريبة وطفلية ، تعمد إلى أثدائه الضامرة ، تستحلبها دون جدوى . تظل تمص الحلمتين العصبيتين ، حتى يسوخ ويسحب عليه قلبه . يحاول أن يدفعها بعيداً ، لكنها تتمادى فى وحشية وشراهة ، إلى أن ينبجس الدم فى النهاية . يكون هادئا وشحيحا فى أول الأمر ، لكنه لا يلبث أن يندفع كالنافورة . . لا يفيق إلا إذا رأى بعينيه خيط الدم الأحمر ينزلق فوق الفراش الأبيض ، فيفزع ويصرخ ، ويهب من غفوته مذعورا » .

هل يميل فيسأل عن الشيخ رضوان ؟ قد لا يذكره . عشر سنوات ، ولدت ناس وماتت ناس . . الشيخ رضوان . . الرجل المبروك . . كم حيره أمره ! يغيب حتى يعتقد الناس أنه لم يكن موجودا أصلا ، فإذا عاد بدا كأنه لم يبرح الحارة أو يغادر البيت .

« أضاء بقايا شمعة ، وأجلسه . . قال له :

ــ نور محدود وظلام غالب .

ــ لا بأس .

ران الصمت حتى ابتلع المكان .

ــ القلب سلام لكن العقل ينفث الحمم .

ــ معلوم .

ــ يبتعد المرء فيقترب .

ــ لا أفهم .

ــ ولكلّ أجلٌ وساعة .

ــ . . . .

ــ فمتى تبدأ ؟

ــ . . . .

لم يعد كلام الشيخ مفهوما كعهده به ؛ يغرقه فى الحيرة أكثر مما يهديه » .

من كان يصدق أن رجليه ستأتيان به ــ ثانية ــ إلى هنا . من يراه وهو يغادر الحارة ليلا وقتها لا يراه اليوم ! أحسنَ كثيرا إذ بكّر فى الصحو ، وأحسنَ أكثر إذ عمد إلى مبتغاه من فوره دون انتظار . . فى مثل هذه الحالة تقطع العرق يسيح ، وهو الآن على استعداد تام أن يسترضى الصخر اليابس ؛ أن يغسل القلب الصغير ؛ ينزع منه الحزن المزروع فيه من زمان .

« ما صدّق لقى المسألة عدّت على خير وأن الله سلّم حتى لعب لعبته ؛ أرسل لنفسه برقية عاجلة : احضر فورا والدك مريض . تعمد أن تستلمها الأم . . أحس بحرج بالغ وهو يشهد أمارات الجزع ــ من أجله ــ صادقة على وجه الأم ، وإن كانت الصغيرة فى شغل آخر . . لملم حاجياته على عجل وودع على أمل فى لقاء قريب . . ماذا يبقيه ؟ دراسته وأنهاها ، وما كان يفزعه تمخض عن لا شىء ؛ مجرد جرح طفيف ، لا يلبث أن يلتئم ، ويا دار مادخلك شر » .

تجاوز بيت الشيخ رضوان . . رآه حسين السيسى ولم يعرفه . حدق فيه طويلا ، قطب ما بين حاجبيه وشرد بعيدا ، كما لو كان يتذكر : هذه السحنة أين رأيتها ؟ أحسن ؛ لا ينبغى أن يبين عن نفسه قبل أن يعرف رأسه من رجليه ؛ قد يخيب مسعاه ــ لا قدر الله ــ وفى هذه الحالة يكون من الأفضل له أن يخرج كما دخل .

لو وقف أمام كل بيت هكذا ؛ يستدعى الماضى ويستحضر مافات لانصرم النهار بلا فائدة ، وعاد كما كان ؛ الحارة مديدة لكن البيت قريب . قطع المسافة الباقية فى نفس واحد ، ثم توقف . فى مثل هذا الموقف يحسد ذوى الدم البارد ؛ فلو كان واحداً منهم لدلف إلى الداخل فى منتهى البساطة ؛ لا يخجل ولا يتردد ، لكن ماذا يفعل فى وجه مثل وجهه ؟ يُحرج ويكسف ، لا يقدم ولا يؤخر ، وجه مثقل بحاجات لا يعرفها . . تنشق الأرض وتبتلعه أهون عليه ألف مرة من أن ينظر فى وجهها أو تلتقى عيناها بعينيه . . أبعد هذه القطيعة . . .

هل سيظل واقفا هكذا ؛ فيثير الفضول ويدعو إلى الريبة ؟ اندفع إلى الداخل . . تلكأ قليلا لكنه لم يجد مفراً من الصعود . دور . . اثنان . . هذا هو الثالث . وهذا باب الشقة الصغيرة مغلق كالعادة . . طرق الباب . . هل فُتح ؟ أكيد ؛ فهو يرى

ولا يرى ، لماذا لا يقول شيئا ؛ كأن سهم الله نزل عليه . انسحبت إلى الداخل . . ارتمت على أقرب مقعد فجلس ، أسدلت الثوب على الساقين وأطرقت . . سأل عن الأم فأجهشت . السكين الثلمة مرة أخرى .

ـ متى ؟

كفت عن البكاء . رفعت رأسها وجففت دموعها . . جميلة كسابق العهد . قالت بصوت واهن وعيناها على الصورة المؤطرة .

ـ العام الماضى .

صمت طويلا ثم قال :

ـ هل كانت مريضة ؟

ـ لا

قال وهو يغالب شعورا بالخوف :

ـ هل كانت تعرف ؟

ـ طول الوقت .

سكت برهة طويلة فنهضت ، فتحت الباب الموارب ، على آخره ، وثبّته « بالشنكل » ، ثم عادت،جلست على مقعد آخر بعيد . وضعت راحة يدها على ظهر الأخرى ، وسكتت .

ـ وأخبار دراستك ؟

رفعت عينيها إلى الإطار الذهبى ، وقالت :

ـ ليسانس حقوق .

لم يكن يعرف أن عينيها بهذا الاتساع ، وأنهما جميلتان أيضا :

ـ أخيراً وجدت الواحات من يدافع عنها .

استطرد فى رضا :

ـ وأخبار العمل ؟

ـ انتظرُ القوى العاملة .

اندفع فى ثقة من يملأ يده مما يقول :

ـ لن نكون فى حاجة إليها .

ملأت الدهشة الوجه الصغير برهة قصيرة ، ثم أسفرت عن راحة .

واصل مستطلعا :

ـ مفهوم ؟

فأجابت بوجه ضاحك :

ـ مفهوم .

القاهرة : الداخلى طه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصـــــة

حكايـــة الحيـــلة .. وقـلة الحيلـــة

(١)

هب الرجال من نصف رقادهم ونوم الآذان المفتوحة فى نزلة المصـاروة حين بلغهم وشيش اللورى . أسرعـوا يلملمـون أشياءهم ويعقدونها صُرراً . وقبل أن يكتمل صحوهم كـانوا مقتعدين أرض اللورى يدخنون ويغمغمون بالسباب ليوم أسود جديد . أحكم السائق إغلاق باب الصندوق وانطلق بالركب تتبعه سيارة الكفيل غطيسة السواد « أمّ جناحين » قاطعاً صمت البـدريـة بـوشيش اللورى الـذى يـروح ينشـال وينحط مـع المـطبـات ، وهم يتخبـطون ويتشبثـون وتنفلت إلى الهـواء أيـاديهم ، ينحرف الـركب إلى هذه النـاصية فتهـرع أورطـة رجال ، وأورطة من عند الناصية تلك ، حتى امتلأ الصندوق صرراً ووجوهاً صفراء آفلة . من شق فجاج الأرض جُلبوا ومن يد إلى يد هرولوا اوفى كل مرة ينادَى فيهم فيترصصون صفوفاً غير التى كانت،حتى تسلمتهم يد الكفيل . وما بقى عليهم غير تعقب إصبعه الغليظة وهو يشير هنا وهنا فيكون الرزق . كلمة من هنا وكلمة من هنـاك صارت لهم لغـة منطوقـة خليط من لغاتهم جميعاً مستعينين إشارات الأيدى . .

استصعب الفـلاح « العِشَرى » وحـدتـه وزنقتـه فى ركن اللورى فقـال فى نفسـه الأريب . . أنشىء معهم الحـديث وأتعرف رفاق الشقا . . والناس بالناس . فقال زاعقاً بلغتـه بعدما تنهد : الله يهون دى غربة ! . تشجع وأردف : ولاّهم الدنيا فلوس . عاجله الولد الزنجى أبو راسين ضاحكاً ضارباً فوق جيبه . . ريالات مصرى . . ريالز . وضحك هذا الركن من العربة ثم ران صمت ، خرقه الفلاح إذ التفت إلى اليمين وقـال للولد بـارتللو . . عـاشت الأسـامى يـاسى بـارتللو . وخاطب الذى عن شماله فلم يفهمه فأشار له الفلاح الذكى بسيف يده فى الهواء علامة السفر . . منين . . بلد . . فاميليا ؟

ــ فلبينو .

ــ أجدع ناس .

ابتسم البعض للبعض وسريعاً تآلفوا وراحوا يرددون أسماء لبلدان وأشخاص وموانىء وأرقام رحلات وينتسبون إلى وقائع مؤلمة قريبة وبعيدة ، كأن أبو الناس كلها واحد ، وأمهم واحدة معروفة ومسالكهم واحدة وحوادث الدنيا واحدة مكرورة . . هى أن يموت أحدهم ، أو تنزل بآخر مصيبة . سرت الألفة ونفـدت السجائـر . أحكموا لف الشيـلان ضد لفـح الهواء البارد . رمى الفلاح القرارى بناظـريه ذات اليمـين والخلف وذات كل الاتجاهات فتراءى له امتدادا عريضا قاحلا موحشا إلا من صفرة ضاربة لصحراء ورمال تنتأ منهـا دمامـل جربـة الخضـار لأعشاب بـرية كثيفـة الأشـواك . . ثم لا شىء ! . واندفع ينفض زغب الزهور البرية الصفراء المشوكة وقد ذراها الهواء فى وجهه وقفاه فعلقت . ظل ينفض ويهرش . . ويغمغم ساخطاً .

أمـا الرجـل ذو الغترة والعقـال الذى يتكىء فى الكـرسى الخلفى لسيارته السوداء يرمق عربة الأنفار بارتياح ورضى ،

فقد أخرج آلة حاسبة جعلها فى راحته وجعل ينقر عليها حتى لمعت عيناه وانبسطت أسار ير وجهه وطاله سرور القلب فغمغم شاكراً . وشوَّر من الشباك إشارة فهمها الهندى النبيه سائق اللورى فمضى يبث الفضاء نفيراً صاخباً جعله متقطعاً وجعل ينغمه بب . . بى ى ى ب . . بب بب . . بيب . . لتنبث فيهم البهجة وتصحو الرغبة فى العمل . وسرعان ما تلاحق زمْر النفير الأجش وعلا لهاثه لما بانت تتوسط الصحراء على البعد بقعة معمورة كالمرشوق فيها أعمدة . وكانت شمس الصبح أفصحت قليلاً . فإذا المرشوق فيه موقع العمل الجديد ، وإذا المرشوق أبراج الموقع وخوازيقه ، وإذا الراشق ــ ثمن الرجال ــ هو الثرى يبتنى قصره الجديد . فما طابت للفلاح فى اللورى وقفة ولا هنأت له ركوبة حتى يخبره أحدهم . . ولو وصل الأمر إلى الثرىّ ذاته . . كيف سيطيب له هنا مقام لا يشرف منه إلا على بور ضارب وصفرة وأحراش شوكية ولا شىء ! .

شوَّر الرجل ذو الغترة والعقال إشارة أدركها الهندى النبية فجعل ينغم النفير الأجش بطريقة ثانية فيوصله ويقطعه ويصمته ثم يطلقه ، ليحرضهم إلى مجاويته بالتوقيع على صاج العربة . سُرَّ الرجل ذو الغترة والعقال من فهامة الهندى الأعجم الموفور مليح الوجه ، وسُر من اللحن الجديد . فأمر له حباب الخير فى نفسه بمكافأة . وأمعن ضجعته فى طراوة الكرسى ، وسار براحته على قطيفة كسوته الداكنة ، ناعماً حالماً فى دعة . ثم لينقر مسايراً إيقاع موسيقى النفير ويدندن .

وأما الفلاح الملجىء ظهره إلى صاج العربة ــ وكان ريفياً حنوناً تهيجه الغربة ــ فقد نهز الفرصة وأخذ يستخرج حافظته من جيب الصديرى . . ومضى يفتش بين ضفافها على صورة بليت حوافها . سحبها وقربها إلى عينيه . . وراح يطيل فيها النظر ، بينما كان الرفاق يشرئبون بالأعناق ويحاولون أن يستجلوا تفاصيل الموقع الجديد ويمهمهون . نكسوا الرؤوس فجأة وأحكموا الشيلان إذ سفعت وجوههم ذيول ريح رأوا دوّامتها تجتاح المدى . وأخذت تُسِف عيونهم وحلوقهم الرمال وتوزع . . كما توزع الريالات آخر الشهر العربى .

وأما الفلاح الطيب فلم يدر أحد ما اعتمل فى نفسه الرهيفة حين أهوى بطوله خائراً بين سيقانهم . ليرفع ذيل جلبابه إلى وجهه ويكمش . . وينهنه ويمخط ويترجرج جسده الضخم فى بكاء الرجال المكتوم وزمر النفير يتلاحق بب بيب . . بب . . بيب . . بيب .

(٢)

أما أخو نا الصعيدى الشارد فلم يمط عنقه مثلما فعلوا . إنما قالت له نفسه لما سمع بيب بيب : آه لو كانت البنت بطة معنا ! هذه البحراوية أم وسط سايب ، لرقصت الكل حواليها . . لها فى كل ترحيلة فرحة ترد الغربة . . وكانت شالت عنا سخائم كثيرة . . على الأقل تغدّى الرجال . . فوّقته فرملة مفاجئة فاختل توازنهم . وقع من وقع وطارت إلى الهواء أيدى ، وهوت كف أحدهم على قفاه من غير قصد . سريعاً انتظمت وقفتهم وأعادوا التثبت ، وعاد يحاكى نفسه . . روحى تهفو بى إلى أكلة سخنة . . أكلة سخنة تغرف فى أطباق . . تطبخها امرأة ــ ثم تنهد ــ هنا شغل وفى بر مصر شغل . . كلها بلاد ربّنا وأيام ربنا المتشابهة . وهذا حال الكل لا وندى وإجريجى . أعجبته الكلمات فكررها ملحنة بصوت مسموع .

ــ لا وندى وإجريجى . . وقرندلى . ثم انفجر ضاحكاً صفق الولد الباكستانى العملاق الواقف جنبه وأخذ الخبيث يحاصره مازحاً ويحمله فى الهواء ويضعه ، صائحاً بجملة أتقن عربيتها :

ــ هى ى ى لا مصرى . . قشطا بالهبا اال .

ضحكوا وعادوا يتطلعون الصفرة الضاربة حولهم يتمطى فيها شريط الأسفلت كالثعبان . من بين بتاب الرمل أقبل ركضاً كلب هزيل جربان جذبه صوت اللورى فانطلق بمحاذاته بكل عزم ساقيه ، وهو ينبح ويهجم برأسه . صاح فيه الماليزى الناعم .

ــ كام هيردوج . . ريالات .

ضحكوا وراحوا يشاكسونه . أعاد الصعيدى العبارة ، إنما جاءت باردة لا تضحك . فتعجب هؤلاء الأقوام . وهبهم الله قلة الحجم فإذا هم طول واحد ، وشعور مسدلة مقصوصة جميعاً بمسطرة فوق عيون كشقوق الأزرار ، وألسنة تلهج بما يفهمونه وحدهم . . ولهم مثلنا كلام حرّاق يُضحك .

شوَّر الرجل ذو الغترة والعقال ففهم مراده الأسمر النبيه وأبطأ اللورى ليعطيهم إلى مشاكسة الكلب فرصة فيسرى عن أنفسهم الكليلة ويوقظ فيها نشاط الصبحية . ظل الكلب يلاحقهم حتى أدركه التعب فوقف يائساً يشيعهم بنباح واهن عبيط . تعب الكلب . . خذلته عافيته فأقعى وحيداً فى هذا الخلاء الموحش ، وكانوا قد قربوا موقع العمل الجديد . فأومأ الرجل لسائق سيارته ــ وكان أوربياً متورداً أشقر ــ فأطلق نفير العربة الفارهة . وكان نفيرها ناعماً قوياً منغماً بطبيعته . تا اام . . تررون . . تراررم . . تام تام . . عقد الرجل يديه

خلف رأسه الحالم وتنفس عميقاً ممداداً ساقيه لطيفاً مفعماً بالرضى . تقدم الركب مثلما زفة العروس فى حين أخذ يتحسس كومة جوازات السفر التى بجانبه كما يتحسس المرء وجه طفل عزيز عاد .

أما أخونا فقد كف عن حديث الكرامة والفعل الأنكر . . إذ انشغل خاطره بشبح الكلب الهزيل الأجرب الذى صار نقطة تهتز فى المدى فقال . . إن يمت الواحد هنا تنبش عليه وتنتش العقارب والسحالى . . حتى دون باك أو نائحة ، ولا طلعة خميس أو عيدين . شملته الكآبة فهرب بخاطره يتفحص الموقع الجديد وقد بدا كغابة من الأشجار مقطوعة الشواشى . أبراج شاهقة وأوناش وخوازيق على قممها يروح الرجال ويجيئون برشاقة فلا تزل قدم . كأنهم عليها تربّوا وعاشوا منذ مولدهم . ارتعد الرجل . . حل الرعب مفاصله وأسرع دق قلبه وعصفت به الدوخة من رأسه إلى مداسه ــ وكان بلا مداس ــ فتدلت عيناه عشيانتين إلى شريط الأسفلت تسرقه العربة . . يجرى يجرى كبساط سحرى يسحبه عفريت والزمير يخترق عظامه مثل طبل الزار . فعل به الوهم فعله ، وفى لمح العين كان مكوماً على الأسفلت تتخبزه عجلات السيارة السوداء أم جناحين . أدركه الرجال مبعثر الطاقية مرخى الشوارب مشلوح الجلباب عن ساقين سقيمتين وعورة بائنة وهمهمات ورطن تأس بالسنة عجاب . جثا فوقه أحدهم ليسند رأسه إلى صدره ليربت ويؤاسى . بينما كان يخايل عينى المسكين شىء مثل غمغمات تعازى الرجال خفيضة الصوت ، وعويل نسوة متشحات بالسوداء غرفن من وحل الطريق ويضربن رؤوسهن ويولولن تتوسطهن عجوز فصيحة تقول ويوصلن أقوالها . . نايم على فرشته بعينو . . ياكبدى ى . . وبنات السلطان ناضرينو . . ياعين أمو . . فرشته وممدد المسكينى . . ياخيبتى . . ومجطعا السكينى . . ياحازانى ى .

(٣)

أما صاحبنا الأفندى وكان كاتب أنفار وجلسته دائماً جنب السواق ، وله أن يخاطب كل ذى غترة وعقال ويخاطبه ، فحكايته حكاية . إذ فى عودته المسائية طابت له الرجعة عبر الشوارع الواسعة النظيفة والعمايز الملونة . ولم تطب له النسايم لأنه لم يكن ثم نسايم ترف ولا عصافير تطير . بل مصابيح فاجرة تحاصره على جانبى الأسفلت تعرى خبيئته وتودّ لو تنزع عنه سروال مؤخرته . قال لنفسه : أتمشى بعض الوقت . . هذه الشوارع أشبهت شوارع مصر . . انما تنهد وقال . . فينك يازحام ! . ولأن الشوارع خالية من البشر ولا فائدة عاد وقال : أبيت والصباح رباح ! فتبرك لأقدامه الطريق تلج شوارعاً وتفوت أخرى . وظل يدخل ويخرج حتى بلغ تفاريع معتمة لها بنايات واطئة على الصفين . . وإلى واحدة منها وتدعى نزلة المصاروة . . والنزلة غرفة على براحها لا يلوح فيها من ضوء غير مقدار رفة عين ، ربما هو من فعل أحدهم يحلم . تفغم المرء على بابها رائحة بول ورائحة عطنة معبقة برائحة السجائر . على باب النزل لا يقول « إحم ولا دستور » ، بل يبصق ويتأفف ويقول . . أعوذ بالله من هذا نهار شمسه كافرة ! وحين لا يرد أحدهم يتلمس فى الظلام طريقه فيبول جنب الحائط ويقذف عقب سيجارته ويستوى مخنوق القلب بين أعمدة اللحم المتراصة وشخير النيام . فيروح يتمتم . . ربنا يهون دى غربة ! لا يتقلق أحدهم فيتنهد ويغمض عينيه ويروح يتنفس من ذات الحلم الذى سد على الروح مسالكها . . الولد اخضرّ شاربه وكبر . . والبنت صارت عروسه ، ونطق رمانها . . وتضحك المرأة ضحكة فرحانة فيها تكلف الخجل ، فيضغط على زر المسجل ويقلب إلى وجه الشريط الآخر ويعيد السمع قائلاً لنفسه . . الله يقسى قلوب الشبان عليها لحد أن أرجع .

يظل الحنين يُلاحِيه ويلاطمه ، وسيجارة من سيجارة يضرب الشوق فى قلبه كما السوس فى الخشب ويتأبى عليه النوم . رفس الغطاء وقال . . أنزل وأتمشى لحد أن يجىء النوم . جرّب نكنة . . لماذا لا يستوردون النوم . . أو يصنعونه « محلى » ! سار مستغرقاً ثقيل الخطى يتطلع الشوارع الخاوية والعمائر الصامتة مغلقة الشبابيك . لضمت الساعة الساعة . فمضى يوغل فى تلافيف الليل ذى المصابيح المشهرة حتى عض فى قلبه ناب الوحشة فقال . . أمشى ناحية السوق السهران . شملته رعشة كالكهرباء . . تراءى لعينيه أولاده يتشاجرون فى تكتم تزجرهم امرأته أم جلباب بليل متسخ عند امتلاء الساقين وبدن مجهد . يعاتبها فتصده وترده ثم تلقفه فوق الحصير وتذوب كالزبد فى ملوحة عرقه .

كل الدكاكين مغلقة . خطف البصر منه عند الناصية (كلوب) مضاء فوق عربة فاكهة حواليه أقفاص عامرة وأكوام مرصوصة وصوت أم كلثوم يصدح من مسجل ضخم . والفكهانى البدين ينثر ماء من كوز بيده فتتندى خدود الثمار وتلمع تداويرها . إليها مال صاحبنا ، وإلى تحسس وشميم راح ينتقى ويعيىء هذا فى أكياس وذا فى قراطيس . . هذا تحبه البنت وتلك يغضب عليها الولد . أما تلك الفراولة فله ولأم العيال الحلوة طيبة القلب . . وهذا . . فللعجوز أمه .

هنا القلب منه وأحس دقاته عبر ساعديه فأحكمهما حول اللفائف . . ومضى يذكر نفسه أن الولد طلب منه كراسة

مربعات ومنقلة . وطلبت البنت كراسة رسم وألوان ، فقال لنفسه . . عسى أن أجد مكتبة عم شحاته سهرانة . وسرى فى بدنه دبيب حلو فحث الخطى منه وغمره النشاط . ومضى يحك سلات ذقنه الخشن فى تدوير الثمرات الفواحة ، ويعرج من شارع الجامع الكبير إلى المزلقان . . عبره إلى حارة الشونة المزحومة بشرفات خشبية متداعية بها أصص زرع تمتلىء بالغسيل المنشور ترف فيه نسائم الليل . . ومن حارة طالعة إلى حارة نازلة لها بيوت غاطسة الأعتاب عليها نسوة تدلقن ماءً مرغًى بصابون يُفز رشاشه كلاباً نائمة فترفع رءوسها متثاقلة لتحتج بنباح كسول ثم ترتخى متثائبة . يشاكسها أولاد عليهم مزق وسخة فلا تأبه . عن آخر سور المدرسة مال ليلقى التحية على سهارى القهوة وربما وجد نسيبه فيعاتبه ويقول له . . لم كان هذا الكلام كله . . نحن أهل . . عيب نحن أهل . ثم إلى حارة المصرف . . من هنا المعدية ، عبرها وحيا فتحية القابلة وكانت فى ضوء القمر تدعك يديها وقدميها وتصب الماء وتتمتم . المدى إلى سكون وهو إلى رفيف القلب الفرحان . طلعت عليه جحافل من كلاب سائبة تتنابح فتدبر ثنيات ودروباً غير مدقوقة ومطالع ومنازل ، يغلق منها هسيس الليل النوافذ الخفيضة التى تبوح بضوء باهت من خلف خصاصها . فراح يمتزج فى أذنيه الأزيز المعشش فى الأركان الرطبة بالهمهمات بالسعال بنقيق الضفدع بصفير قطار بعيد يعجنها جميعاً صوت أنفاسه ووجيب قلبه .

على دخلة الزقاق ستتعرف المرأة أقدامه وتسأل . . لم تأخرت يارجل ؟ وتهرع لتحمل عن ساعديه وتقول له خجلانة . . نام الأولاد . . فيرد . . صحيهم ليتعشوا . ثم تروح وتجىء داخل الدار كنحلة بينما يعلو صوت الوابور .

استعدل صاحبنا الأكياس والقراطيس إلى صدرة واندفع قلبه يبث كل الدماء فى قدميه ويحرك لسانه بأغنية أحبها . عند دكان سليمان الحلاق حاصره ثانية تنابح الكلاب وراح يتعقبه كما لو كان غريباً عن الناحية . فأسرع داخلاً حارة الفرن إذ أنس أصواتاً ونوراً خلف الشبابيك الواطئة ، وبكاء رُضع . . وهدهدات أم وطرطشة صنبور مفتوح ، وتشاجر صغار . . وصوت طفلة تذاكر نشيداً وراديو يخرفش بأغنية لعبد الوهاب ، وتأوهات مخجلة وكلمات مهموسة . صار عليه أن يتعرف بيته من كومة البيوت الآتية طلعت عليه ثانية جحافل الكلاب . . فلم يزل يطوق المكان ويواصل الطواف ويتدبر دروبا ومسالك إلى أن ارتبك حاله وزلقت قدمه ووقع . انفرطت الأكياس والقراطيس وتدحرجت الثمار وانهرست حبات الفراولة فوق أسفلت الشارع ونزّت سائلها الأحمر ملطخةً يديه وهدومه . فقرفص فى موضعه فى عرض الأسفلت يبكى ويبربر كالأطفال .

المنصورة : رضا عطية البهات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصـــــة

قصتـــان قصيـــرتـــان

١ ــ بطولة من كارتون

خرجتُ من قاعة المسرح بعد عرض موحش . البرد كأنه الماء البارد يسيل على ظهرى فتقعشر له أوصال جسمى فيرتعش .

رفعت ياقة معطفى الصوفى الأسود وأقفلت أزراره . تأبطت حقيبتى اليدوية الصغيرة وشرعت فى وضع القفازات الجلدية السوداء الناعمة .

انـدفعتُ نحو الشـارع الطويـل المكتظ أبحث عن مكـان خال ، بعيدا عن جمهرة الناس . رفعت رأسى أمشى بخيلاء ، محاولة تقليد بطل المسرحية فى مشهد ما ، تسلل إلى خيـلائى صوت شحاذ أطل من الشارع الضيق الذى يطل على الشارع الكبير ، كان يـطلب فرنكـا واحدا . ينـظر بعينيه إلى السـماء فلا يراها ولا هى تراه .

تجاوزت الشحاذ وصوته وواصلت المسير . كنت أحس أن خطواتى صارت تتثاقل كأنها تجرنا إلى الخلف بإعياء .

وجدت رأسى الذى كان مرفوعاً بخيلاء ينخفض ووجدتنى أتوغل فى الحشد الهائل من الناس الذين كنت أحاول الابتعاد عنهم .

ظللتُ أواصل السير . .

وظل صوته .

٢ ــ الزمن والألوان

بالأمس قبل أن أنام ، قررتُ أن أستيقظ فى الغد على غير عـادتى . أغـير سـريـرى ، ومكتبى ، وحتى طـريقـة تنـاول فطورى ، وأضع مكتبتى الصغيرة فى الجهة المقابلة للسريـر ، وأغير الرفوف وأوزع فيها الكتب على نحو مختلف . ثم أضع لوحة مجهولة أحبها منذ سنين بمواجهة النافذة حتى يتسرب لها الضوء أكثر . هكذا صار لون البحر أشد زرقة وصفاء وبدت الشمس التى تستحم فيه عند الأفق أجمل بلونها النارى . وهناك شجرة وحيدة تقع على جانب الشاطىء أظنهـا شجرة زيتـون مكللة بثمارها السوداء . تنتظر قطاف خريفها .

اليوم فقط عرفت زمن اللوحة : الخريف . وتساءلت عن شدّة زرقة السـماء المنعكسة فى البحـر والتى تدل عـلى فصول أخرى مشرقة .

ظللتُ طول اليوم أفكر فى أمرين : هل وَضْع الشجرة غلط فى إطار اللوحة أم هل يمكن إضافة سحب لسماء اللوحة حتى يصدق فيها الزمن .

أو لعلّنى أرجع اللوحة إلى مكانها الأول فى الظل .

وهل أكون قادرة على ذلك بعد أن اكتشفت حقيقة ألوانها المتناقضة إذا لم أقل المزيفة ؟

بغداد : رشيدة التركى

فريد محمد معوض

قصـــــة

ثقـــوب فى الســـقف الوحيـــد

سنوات عدة وأبى يتنقل بين دارنا وحوض الدنيبة ، ولا أحد يحس به ، حتى حفظ الطريق والطرق المتفرعة عنه ، ويستطيع أن يسير فوقه دون الاعتماد على عينيه اللتين بدأتا فى الأفول .

كيف ارتضى لنفسه أن يركب الحمارَ فى صحبة اثنين من البشر ــ يمشيان على الأرض ــ واحد عن اليمين والآخر عن اليسار ؟ .

ذات مرةٍ قالت أمى لأبى : نشترى الحمارَ يحملك ويحمل عنك الفأس فقال لها : ثمن الحمار نكسى به الأولاد .

كيف هانت الفأس على أبى ؟ وكيف يحملها الذى هو عن اليسار بينما يميل أبى ناحية الذى عن اليمين ، ثم ما الذى أتى بأبى الآن ؟ وهو الذى اعتاد العودة عند غـروب الشمس . . تروح الشمسُ ويأتى أبى ، هكذا دائماً منذ وعيت الدنيا، وها نحن فى وضَح النهار والشمس تلمع على جبهةِ أبى بينما تزاورت عن وجوههم .

اقترب الموكبُ من الدار ، رمى الرجلُ الفأسَ ، سمعـوا صوتَ ارتطامِها بالأرض ، تجمع الناسُ حول أبى ، حملوه ، أنزلوه من فوق الحمار ، لم يتكلم ، دخلوا بـه الدار ، حنـوا رؤوسَهم لحظة مرورِهم من الباب ، دخل أبى الدار ، لأول مرةٍ دون أن يتنحنح ، أو حتى يـطرح جلبابـه على جَـرّة الماء أو يقول شيئاً ، أقعدوه حين جاءت أمى من الداخـل مشمرة اليدين ، همّت أن تصرخ ، وضع خالى يدَه على فمِها ، دارت تبحث عن صوابها ، ثم رفعت رأسَها وهى تقترب من أبى ، ومن سقفِ بيتنا المكشوف مسحت السماءُ بعينيها ، وارتعش بدنُها وهى تمسح يديها المبللتين وصار وجهُهـا مثل وجـه أبى وقالت : يارب .

وقفت أرقب أبى والناس حوله مجتمعون ، كنت أريـد أن أقول لهم : اذهبوا . أبى لا يحب أن تقفوا هكذا ، أبى يقول لى دائماً : كن قوياً أمام الناس . وقال لى أيضاً : أمسك القلم كما أُمسك الفأس بإخلاص . . لماذا لا يقول هكذا الآن ؟ . . إنه ينظر إلىَّ ولا يتكلم ولا يبتسم ، وعلى جبهته العريضة تلاحمت الخطوط الملتوية ، عادت أمى مضطربة ، نادت على ، انتحت بى جانباً ، همست فى أُذنى :

ــ تعرف دار فلفلة ؟

ليست المرة الأولى التى سمعت فيها هذا السؤال ، أعرف سببَه وما يأتى بعدَه ، سأذهب لفلفلة المقاول من أجل النقود ، زملاء أبى يتقاضون منه عن الأسبوع ، أما أبى فيجرُّ اليومَ بيومِهِ وغالباً يقبض مقدماً يوماً أو يومين أو أسبوعاً ، هكذا منذ وعيت الدنيا ، وأبى يرسلنى لأطلب منه نقوداً أعرف كيف يتجهم ، وكيف ينهرنى ولا سيما إذا كان يتناول طعامه ، وكيف يلعن أبى إن اقتضى الحال ، وكيف أهبط حزيناً الدرجـات القليلة من السُلّم بينما تلاحقنى لعناته للزمن ، وللذى نصبه مقاولاً كل هذا رغم الكلام الحلو الذى أطالعهُ به لحظة دخولى عليه ، والذى لقّنه أبى لى ، ورغم أن أبى يعمل معه منذ سنين وهو الذى كان يجلب له الأنفار . كَثُر الكلامُ حـول أبى عن البصل الجـاف

والتعويذة وصلاة النبى ؛ تبدّل لونى وتبلّد ، أدركتنى أمى بصوتٍ فيه رجاء لمّا وجدتنى سكت

ــ عشان خاطرى !

قطع خالى حدثّينا بعد أن سمع :

ــ انتى ناسية . . فلفلة لسه فى الغيط .

ثم أردف :

ــ أروح أنادى الدكتور .

كانت أمى قد حارت بين وصفتين ــ الملح والماء ، والسكر والماء ، وعين أبى متعلقة بى ، ينظر إلى ، وأختى الصغيرة تقف قرب الباب ، لا تبكى ولا تضحك كعادتها . .

عادت أمى بكوب الماء ، وبيدها الأخرى حفنة من الملح ، ووجهها مبلل . . طالما حَلُم أبى بقطعةِ أرضٍ يزرعها ــ جنة الدنيا ــ هكذا يصفها لو كانت ملكاً له . . . سعل أبى فأدار الجالسون وجوههم وانتفض الذى بجانبه ، تناثرت على ثيابهم قطراتٌ من الدمِ وبقية التصقت بشفتيه ، قال أحد الجالسين :

ــ لو يشرب مُر الصبّار يبقى زى الحصان .

تقول أمى إنها وأبى يشربان المُر كل يوم ، إذن لماذا يمرض أبى ؟!

اقتربت أمى لتمسح الدمَ العالق بهما ، أمسكها أبى من جلبابها ففسردته والدموع تتوالى على وجنتيها ، دلق أبى فى حجرها دماً .

يمرض أبى كثيراً فى الشتاءِ ، وهذه الوعكة الأولى فى صيف ، كان يدخل المستشفى ويبقى بها أياماً ، ثم يفر منها إلينا ويقول :

ــ أكره المستشفى ياولاد .

ويعود إلى المقاول ثانيةً . فى العامِ الماضى غاب كثيراً فى المستشفى ، تمنيت لو أراه لكن أمى رفضت وقالت إنهم يمنعونَ زيارات الصغار ، وانها لن تذهب إليه قبل أسبوع ، وعملت أمى مع المقاول يوماً واحداً ، وعادت تبكى آخر النهار ، عادت تسب المقاول وتلعن أباه وقالت إنها لن تذهب معه ثانية ، وبالليل جاء إلينا . إنه يريد أن يشرب الشاى ، ثم أدخل يدَه فى جيبه ، أخرج نقوداً كثيرة ــ أكثر مما كان يعطينى بكثير ، أعطاها لأمى ، لكن أمى بصقت على الأرض واحمر وجهها . . دفعت بيدِه وطردته من الدار ، سألتها : لماذا لم تأخذ النقود ؟ فربتت على وبكت . .

وساءت حالتُنا وساءت حالة أبى ، لكنه كان يعرف الطريقَ فبصم لهم على ورقةٍ كُتب عليها : أخرج تحت مسؤوليتى . .

كان قد عاد إلينا بلهفةٍ ، أخذنى بين يديه ، قبّلنى ، قال لأمى وهو يشير إلى الفضاء إنه سعيد وقال إنه سيبعثر عظامَه فى الأرض . من يومها ما تخلّف أبى يوماً عن المقاول ، بل كل من يراه يقول إنه بالعمل أحسن حالاً ، فقد استدار وجهُه ، وصار أبيض مثل الحليب .

صبّوا الماء فوق رأس أبى ، وغسلوه بالصابون ، ونزعوا عنه الصديرى الذى امتلأ بالدم ، ودخلت إحدى الجارات بكوب من السكرِ والليمون ، وصدر أبى يعلو ويهبط ، ونقطة من الماءِ ترقد فى الحفرةِ الراقدة أسفل رقبتهِ ، يمنع نزولَها جذعٌ من عظامِه يرقد أسفل الحفرة ، وترتعش رقبته وهو يبلع ، بينما يرقد ــ فى سكينةٍ اسم أبى المحفور على ذراعهِ واسم البلدِ ويوم وُلد . كنت وأنا أتعلّم كتابة اسمى كاملاً أراه وقد شمّر عن ذراعهِ ولا يملّ حتى أنتهى . . دخل خالى يحمل حقيبةً سمراء وخلفه دخل طبيب الوحدة الصحية . . . يحلُم أبى أن أكون طبيباً ــ أقتل كل أمراضَ الدنيا فى البطونِ والصدورِ . . « البلهارسيا والسخونية والكُحّة والحُزن الكامن فى كل العيون » . . أُلملم عظامَ المتعبين ، بينما تحلُم أمى أن أكونَ طياراً كالذى يركب طائرةَ الرشِ ، يرش القطنَ فيموت الدود وتموت الحشرات ويموت الناموس ، تقول أمى إنه بطل ، وسألنى الأستاذ : ماذا أحلُم أن أكون ؟

قلت : أحلُم أن أكونَ طبيباً كى أقتل مرضَ أبى ، وأكون طياراً مثلما تحب أمى . ضحك وهو ينظر إلى الأستاذة التى تجلس بجانبهِ وقال :

ــ وأنا أحلم أن تحضر القلمَ الرصاص .

فضحك التلاميذ ، وضحكت الأستاذة . وسأل الطبيب أمى عن البداية فأحضرت له أوراقاً صفراء وورقةً من البلاستيك مرسوم عليها رئة واختفت الأخرى ــ كما يقولون ، وأحضرت له عُلَب الدواءِ الفارغة وسعلتْ وهى تقول : ربنا يخليك .

تأمّل وجَه أمى فأدارت أمى وجهَها ، ثم أدار وجهَه ناحية أبى ، ثم نظر إلىّ ، وإلى سقفِ الحجرةِ . . كان الجميعُ يرقبون الطبيب ، وأبى ينظر فى صمت ، يمسح بعينيهِ طوله الفارع ، ورأيت امرأتين تتغامزان ، وأخرى تنظر إلى وتمصمص شفتيها ، وكان الطبيب كلما مشى بالحجرة علا صوت حذائه اللامع . ، . بعد ما مسح الحجرة بعينيهِ صرخ فجأة :

ــ ليس للحجرة نوافذ ؟ . ثم ما هذا الدخان ؟ الحجرة عتمة فى عز النهار .

ثم اقترب منى : حتى أنت . . ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ منذ متى يكح الولد ؟

قالت أمى : منذ أيام .

لماذا نكح ؟ أبى يحكى لى إنه كان قوياً ، كان يعمل « مجعولية » رجلين ، ولم يكن يعطيه المقاول أجرين ، كان يزيده بمقدار رُبع أجرة ، تقدّم خالى وقال : قلقتنا يادكتور .

همس الطبيب فى أذن خالى ، ثم نظرا إلىّ وهمس ثانيةً ، فسحب خالى أختى من حِجر أبى،قالت أمى لخالى : خير ياخويا ؟

رَدَّ خالى : لابد يروح المستشفى ياسعدية .

انتحت بخالى جانباً ، وأمسكت أنا بجلبابها ، ولاحظت أن الطرحةَ بلونِ السقفِ وبها ثقوب ، تمتمت شفتا أبى ، وتحشرج صوتُ أمى : منين ؟ .

رَدّ خالى بسرعةٍ وهو يكزُ على أسنانِه :

ـ قلت لك اتنازلى عن حقك وخدى اللى انتى عايزاه .

ثم أردف خالى :

ـ وبعدين حيعملوا فحص عليكى والأولاد من بابِ الاطمئنان .

سكتت أمى قليلاً ثم أومأت بالموافقة ، تنهد خالى مبتسماً وانصرف مع الطبيب الذى قال لأمى أن تذبح لأبى شيئاً ، ورأيت أبى ما يزال مستنداً إلى الحائط ، وانفضّ الجميعُ من حوله فيما عدا أختى التى عادت لتلعب بجانبِهِ ، وأبى يتابعنى تارةً ويتابعها تارةً أخرى ، أتت أمى بالطعام ، جلست إلى جِوار أبى ، ناولته ملعقة ثم ملعقة وقالت : باسم الله . وبلع أبى وأكل قطعةً من الديك الصغير ، وأشار لنا أن نأكل الباقى ، خطفت أختى المتحفزة قطعةً والتهمتها فابتسم أبى وناولها أخرى ، وأكلت أنا الجناحين وقال :

ـ أنام يا سعدية .

بعد ساعةٍ تقلّب أبى وسألته أمى عن الحال فقال :

ـ خير يا سعدية

بالليلِ انزلقت أمى بجواره ، وهمست فى أذنه سائلةً وقال :

ـ الحمد لله ياسعدية

وفيما كنت نائماً سمعت صوت أمى وهى تتوسل :

ـ بلاش يا ابو محمد .

وأبى يدفعها غير عابىء بكلامِها ، وعندما فتحت عينى لأرى الصبح ، قبلنى أبى ، وقبّل أختى وقال لأمى التى حاولت منعه من الخروج :

ـ استهدى بالله ياسعدية .

وسحب الفأسَ ، وحنى رأسَه لحظةَ مرورِه من الباب وراح .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سامول . . مركز المحلة الكبرى : فريد محمد معوض

صبـــاح محمد حسن

قصـــــة

خـــارج أســـوار العـــزلة

منتصف النهار مضى . هبت الريح من هناك . أتت من الشمال باردة. أسقطت بعض الأوراق فى حفيف خفيف الى الأرض . المكان كله ممدد على البحر . يتلقى برجفة هبوب الهواء المبلل . اختلط رأسه بالفراغ الذى يكاد يعمى البصر . وجه ثقيل لرجل أبيض اللحية أبيض الشعر . رمال تفضى الى بحر وسكون . الشص يهتز فى يده يطلقه نحو جميع الاتجاهات ، يعيد تشكيل ذرات حديثها سويا . الموج يبدد الصدى ، يضرب الأسوار والعزلة ثم يخفت ويبدأ بالتنامى . تعاوده أطياف ملونة تتناثر على صفحة البحر . رفع الصنارة من الماء ثم أعادها بضربة قوية . دائما يشهد نور الفجر ومولده . تلك الهواية والمتنفس . الجدران من حوله رفعتها يد مخلصة ، قوية .

تركت له أزهاراً ثلاثاً . وبدون مقدمات رحلت . تداعت أحلامه وراحت الأشياء تضمحل حوله كندف الثلج . منذ فترة لم يأت ساعى البريد برسائل . البحّار الرحّال . منذ بعيد منذ سنين عديدة لم يطأ اليابسة ، يطارد البحر ، يطوف منذئذ على مياه باردة . لم يكن يزمع العودة من البحر . سآتى قريبا . مجرد كلمات فقط . يسأله حفيده الصغير :

ـــمتى يأتى أبى ؟

يربت على شعره :

ـــ ألأتنوى البقاء معى حتى يأتى ؟ حتما سيعود قريبا .

هبطت عليه سكينة وهو يراقب البحر . الأشياء تثب وحشية متشابكة . بدا من الصعب التركيز على أى منها . شعر بوحدته فى المكان . أحلامه كالبرق تومض وتنطفىء .

على صفحة اللمعان الفضى اهتز الشص فى يده.بقوة رفعها لتسكن الرمال سمكة كبيرة . وضعها بجانبه وأعاد الشص مرة أخرى الى الماء .

حملق فى صفحة الماء . رأى وجها متموجا تهزه هبات الريح :

ياعزيزى . لنخرج على دروب الحدائق . هناك العديد من المتنزهين فى ثياب العيد .

الربيع دافئ تحت الشمس ، لنسمع صيحات الفرح من أفواه الصغار .

ظلال الأغصان تمتد على المكان ، وموج البحر يتشكل فى هامات عملاقة وينحط متحطما ثائرا على رؤوس الصخور . صيده انتفض كأن تيارا كهربائيا مسه . هاله صخامتها وهى فى السلة . ظلت تنتفض ، ومن ثم قذفت بنفسها خارج السلة واقتربت منه . حدثته

– نحن نحيا فى سكينة . ننصت إلى همهمات الريح ، إلى ارتجافات البحر ، إلى أصوات العصافير . هناك من يستحث عودتى ، يجب أن تتخذ فورا قرارا بإعادتى إلى البحر ثانية رفقا بأولادى . وراحت تتمتم بضع كلمات لم يتبينها .

تعلقت أنظاره بها . .ةقف متحيرا . ماذا يفعل ؟ أخذ لحيته بين أصابع يده واستغرق فى تفكير صامت .

– هيا جميعكم إلىّ فى صدر أمكم ، فأنتم لا تحتملون البرد . إننا نعيش من أجل ثلاثتكم . تعال أنت أيها الصغير . . إنك ترتعش .

تذكر الوجه الصغير ذا العينين اللتين تشبها ثمرة البندق . وجه الإبن الصغير ، لم يره منذ عام . رسائله صارت قليلة . ولمع وجه الابن الأكبر على صفحة الماء ، ينهر أخته لإهمالها واجباتها المدرسية . منذ صغره يهتم بالعلم لكن دراسة الطب أخذته بعيداً . قالت له بنته فى آخر محادثة تليفونية (سنزورك قريبا يا أبى) البيت صار هادئا ، خاليا والمدينة مظلمة . قلّب صفحات كتابه . كان كتاباً كبيراً أصفر ذابلا بين قائمتين من القوائم فى مكتبه . عثر على اسمه بخط باهت على الصفحة الأخيرة .

لا يجد من يراسله من يقرع بابه من يحادثه . بعض الموتى عيونهم مفتوحة وأيديهم مبسوطة ، ولكن أغلبهم يرقدون فى هدوء . فاحت رائحة زهور ذابلة وأرض تحمل فى طياتها ذكريات قديمة وغردت العصافير . حاول أن يشعل سيجارة لكن الريح اطفأت عود الثقاب . غمرت المياه صيده فى مد وجزر ، انتفضت السمكة ، صدرت عنها همهمات ، ارتجف قلبه . هدر البحر بصوته الداوى . تضطرب أنفاسه تقتل فى رأسه بقايا أحلام . توهج الفضاء بالتماعات بدت غريبة . بوثبة متحمسة اندفع نحوها . رفعها بين يديه . سمقت أشجاره العالية الضخمة . كثيرا مالح طيفها . وجه عاشره سنوات طويلة . ارتجف قلبه ، لكنه ارتجف باطمئنان . تبادل النظرات وصيده . امتدت خطواته بين الغيوم . خلفه أقدام مسرعة . إنه ساعى البريد . يحمل رسالة من بلاد بعيدة يقطنها ولده . شرع فى القراءة ، راح صوته يتلون ويتبدل . وحين اقترب من نهاية الرسالة ، صارت أنفاسه فى قوة الريح . .

حمل له الجو الضبابى البارد دفئاً نادرا وأصداء حديث يختلط داخله. تحركت أصابعه تعمل خارج منطقة نفوذه . انزلقت أصابعه داخل المياه ، مطلقا سراحها احتواها البحر بعذوبة . ترك الشص يسقط فى القاع . عاوده الحنين الى مرفأ مفقود . تنامت إلى سمعه أصوات ممزوجة بالشكر والامتنان . استدار ، رآها وأولادها يحيطون بها ، يتقافزون على السطح اللامع . هبطت الشمس للمغيب . ظهر ظله أكبر منه على الرمال . ثم عاد البحر من جديد إلى تنفسه الهادىء وعزلته المعهودة .

الإسكندرية : صباح محمد حسن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

الحلم فى زمن السيل

يتدفق الماء على درجات السلالم الرخامية ، يغسل الأرصفة والشوارع ، ينحدر فى الطرقات ، يحتضن الأشياء الملقاة فى الطريق . وكانت رياح قد هبت ، طوت الأشرعة ، وقذفت بالمراكب ، واغتالت أوراق الشجر ، حتى أسراب النوارس طارت بعيداً حتى لا يغمرها السيل . .

تقف الفتاة كطفل مرتعش ، يدور رأسها الصغير بأنحاء المكان ترى هضبات غاطسة ممتدة سحابات هلامية تلمع أطرافها ، أرضاً شاسعة تغمرها المياه . يرتعد من حولها الهواء ، وطحالب الماء . تدثر بالأطراف الممزقة من ثوبها وكأنها وسط لوحة وحشية لا نهائية . . . تتعجب . . فمن غير أن تدق الأجراس توقوف فى الكون رايات الغضب . وكم يشقيها اليوم طائر الأماق وهو يطير محلقاً فى الأجواز لا يستطيع أن يحط على قمم الشجر .

ها هو ذا النهر ، صديقها القديم تنقل منه الماء تباعاً إلى بيتها ، مع صديقاتها ، وهن يمشين متجاورات ، تقذفه بالحجارة . . يضحك ويبتسم يحزن قلبها الصغير ، وهى ترقب المراكب المسافرة حين يتلمها عمق المسافات . . تركب القارب القديم ، مع أبيها الذى كانت حرفته « صيد السمك » ، ونقل العابرين إلى الضفة الأخرى .

لم يعد النهار نهراً ، هجرته الأسماك وخلت منه المراكب ، وانداحت الغوارب الصغيرة بعد أن قذف بها التيار بعيداً .

غدا مستنقعاً تطفو على صفحته البقايا والحيوانات التى نفقت . بانت لحوم الطير ، بعد أن تطاير ريشها وانطوت مناقيرها على أعزوجة لم تكتمل .

اليوم تمشى إلى جواره صامتة ، انطمست معالم شاطئيه ، تعبر الحفر الممتلئة بالمياه ، ترفع ذيل ثوبها كيلا تتعثر :

ـ ترى أيها النهر ، الذى لم يعد نهراً ، أألتقى بأبى وأمى وخلاّنى ، وهل نستطيع أن نعيد بناء بيتنا من جديد ؟ .

وانسابت دموعها ، وكأن أمواج النهر تمور ، تضرب بالصخور ، توقد المشاعل فى جوف الماء . . تحدق فى الأفق . . كانت هناك ربوة عليها ظلال منتشرة ، مشت فى اتجاهها ، يحرك ساقيها الأمل . . اقتربت ، بانت ملامح البيت ، تحيط به حديقة ، تمنت ألا يكون مهجوراً ، حلمها لقيمات ، أقعدها الوهن إلى جوار أسواره الواطئة . . إشعاعات هاربة تتسلل إلى كيانها الواهن ، لا تدرى لماذا انسابت أحاسيسها وتدفقت . . تركت كهفها المظلم (بعد بيات شتوى طويل . . خرجت لتمرح فى الوديان ، بعد أن انصهر الجليد .

هذا البيت بيتها ، كانت تحلم به . هذه الشرفات المليئة بالزهور البيضاء ، تقف بها لتستقبل عطر الصباح . وهذه حديقتها ، تجلس تحت أشجارها ، وتهب الريح قوية ، وتغير أسراب الطيور فتسقط الثمار إلى جوار قدميها الممدودتين .

كثيراً ما كانت تحلم بفارسها الذى يحملها إلى العش ، والأكف تلوّح والحناجر تهتف والنجوم مصابيح تنير أرض الطريق .

ـ ليتنى أحظى بيوم كيوم زفاف شقيقتى الكبرى !

لكنها تذكر اللحظة الأخيرة حين وصل موكب الزفاف إلى البيت . **وقفوا من حوله** ، وعلى الأعتاب ، وفى الشرفات المجاورة ، وجوه صامتة وعيون تحدق . . وصمت ثقيل . ومن بعيد تأتى حشرجات الريح ، وحفيف أوراق الشجر . أصوات منتظمة لحشرات ليلية . وأبوها ينتظر اللحظة المرتقبة حتى يعلو رأسه إلى السماء . وخرج الفارس يحمل قطعة قماش مغموسة بالدم وكأنه المنتصر . . تحول الصمت إلى عاصفة ، دوت الطلقات أنارت سماء الليل . . دقت الطبول والدفوف ، ورقصت على إيقاعاتها أقدام الخيل . . .

وقفت وهى تستعين بالسور ، اقتربت من الباب الحديدى المفتوح على مصراعيه ، خرجت منه فتيات يشبهن قططاً برية ، ثيابهن ممزقة ، **تظهر** أماكن من صدورهن وسيقانهن . . لا يأبهن بذلك . اكتست **أقدامهن الحافية بالطين** ، شعورهن كأعشاب برية رواها الصقيع . يلوِّحن لصاحب الدار الواقف فى الشرفة ، يضحكن فى توحش ، يقضمن طعاماً .

قالت إحداهن : ربما تأتى المعونة فى الغد .

قالت الأخرى : من يدرى ؟

نظرت إليهن الفتاة ، ثم رمقت صاحب الدار ، وبجواره كلبه الشرس ، المتحفز دائماً . . فى ركن رأت الأبقار وهى تأكل الأعشاب البرية المكومة فى نهم .

تحدق فى السكون .

ـ لماذا تتغير الصور كثيراً عما فى مخيلتى ، ها هى ذى الثمار تتدلى من الفروع ، لو حاولت أن أقطف واحدة ، ستكون فرصة للكلب أن يستبيح دمى ولحمى ، ويمزقنى ، فتتجمع حول أشلائى نسور تأتى من غابات نائية . . لابد أن أجد طعاماً وإلا قتلنى الجوع .

تحدق فى صاحب البيت وهو يضحك بأسنان لامعة ، يداعب كلبه .

ـ ما أشبه الكلب بسيده الآن ! .

يلوِّح لها . تنظر إلى الوراء . . كان طائر الشفق يرفرف ، يطوى بقايا الأضواء تحت جناحيه الداميين سابحاً نحو عشه الذى نسجته الظلمة .

تلوذ بأحد أركان الحديقة ، تتقدم خطوات ، كأنها تسمع جلبة ، **تأتى من كل الاتجاهات** ، تحاصرها . . ترتفع المشاعل . ينبح الكلب اللاهث بشدة ، تقترب الجموع ، يشتد نباح الكلب ، يثب يشب أنيابه فى لحمها ، تسيل منها الدماء ، يلعقه الكلب الشرس ، **يقهقه** صاحب الدار .

تشتد ضربات الطبول والدفوف ، تلملم نفسها . .

ترى والدها بوجه غاضب ، قست عليه التحاعيد ، إلى جواره فارسها المقهور بسيف مكسور ورأس منكس ، ترتفع فوهات البنادق ، تتراجع . . .

ترتفع يداها المرتعشتان أمام عينها المذعورتين ، ينطلق الهدير العاصف فى الفضاء الواسع .

المنصورة : الشحات سند محجوب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عبد الغنى السيد عبد الغنى

قصة

طقوس خميس رجب

هذا الصباح يختلف . . الناس يتدفقون نحو المدافن كالنمل يثيرون الضيج والفوضى . . نداءات باعة عطور وليمون وفل . . صراخ أطفال وأبواق مركبات ودقات طبول . . يتراءى عن كثب خلال السور الممتد الفاصل بين الحياة والموت عمود السوارى العملاق بلا معنى . . فى الداخل تتصاعد مع الأتربة من مباخر بائعى التراتيل والدعوات أدخنة هلامية بيضاء تحول الوجوه إلى ملامح ممسوخة صفراء . . هذا الخميس يختلف وهذه هى الأيام الأولى من رجب . . موسم المقابر والزيارات الهمجية للأموات . . ما عليك الآن غير أن تغيرى جولتك الصباحية المعتادة . . من المأوى الذى يضمك بين جدرانه الأربعة بمساكن الطوبجية . . إلى شارع سوق التوفيقية . . إلى اللبان ـ وأحياناً حتى الجمرك ـ ثم المنشية . . وعند رحلة العودة تسلكين الحوارى الفرعية . . وكثيراً ما تؤثرين شراء حاجاتك من أسواق بعيدة .

هذا الصباح يختلف . . لست وحيدة فى هذا الحشد الضائع مثلك . . أيامى وأرامل وأطفال شاردون يبحثون عمّن يبحثون عنهم . . من بين هذه الملايين يزور (عبد الباقى) ؟ . من ؟ . . سبع سنوات مضت كالرياح . . لا شىء الآن يقتلعك من أسوارك ومازلت حبيسة الوحدة والألم . . عزاؤك الوحيد الذكرى . . ومأواك ذاك الذى تحتمين تحت سقفه الموازى للأرض هو أيضاً حبيسك . . سجنك وسجينك ذاك المأوى . . تقول لك جدرانه الهشة

ـ لن يعود عبد الباقى

ولولت وضربت رأسك فى الجدران بعنف . . كانت صرخاتك المدوية عند الفجر تهتك الجدران الأخرى . . لكنها لم تهتز هذه الجدران المهترئة التى تحيط بك . . وحينما التفوا حولك والنوم مازال عالقاً بأجفانهم لم تفلح محاولاتهم لمنعك . . اظافرك شقت ثياب النوم من الصدر إلى القدم . . وصراخك صرخات أخرى مزيفة لا تبتغى سوى المشاركة الوهمية . . فكف صراخك . . تنبهت حولك إلى وجود وجوه لا تعرفينها ولم تدر كيف تتصرفين فافتعلت إغماءة لا إرادية . . لكن سرعان ما مرق من بينهم ابنكما المحامى . . اخترقهم وأقعى فى أحضان الجسد المسجى . . كيف بلغه الخبر بهذه السرعة . . ظل ينتحب بحرقة ويغسل جثة (عبد الباقى فراج) بدموع الفراق الأبدى . . همهمت بعض أفواه

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله

ربتت على كتفه بعض أكف تخلصه برفق عن أحضان أبيه . . ازداد الصراخ واختلط الصدق بالزيف . . تسلل (طارق) المحامى من المأوى إلى الشارع إلى مكتب الصحة لاستخراج شهادة الوفاة ممهداً لإجراءات الدفن بمقابر العمود . . ها هو ذا العام السابع يكاد ينقضى ولكن أين قبره بين هذه المقابر ؟ . أين (عبد الباقى) الذى تطؤه الآن ألف قدم . . أين طارق والسمرة والعمة (نجية) والوجوه التى ألفتها .

الابنة الكبرى هى (السمرة) . . بعد أربعة عشر عاماً أنجبت (عزيز حمدان) (طارق) لم تنجب غيرهما أقامت (السمرة) إقامة دائمة هناك بعد أن تزوجها ذاك الليبى العقيم الذى سرعان ما كرس لها الجنسية والاستيطان والحياة معه . . يعلم الله . . ربما هى العاقر . . كانت (عزيزة) تنظر الأحفاد من (السمرة) . . لكن يبدو أنه لا أمل وربما هى اللعنة المحيقة بنساء (آل فراج) . . ان العمة (نجية) هى الأخرى لا تنجب . . بعد السنة الثانية من الزواج جاءت (السمرة) فى زيارة لم تدم سوى أسبوع واحداً آتية من ليبيا الهدايا الاسطورية . . كان أول تليفزيون عرفه أهالى مساكن الطوبجية هو الذى دخل مأوى عبد الباقى فراج . . توقعت (عزيزة حمدان) أن ابنتها سوف تأتى يوماً بلا هدايا وسيحتويها المأوى مرة أخرى . . أجل توقعت طلاقها يوماً ما . . تمنت ذلك فى داخلها حتى لا تغيب عنها . . تمنى أيضاً أبوها (عبد الباقى) طلاقها من ذاك الليبى الذى لم يره سوى مرة واحدة فقط . . لكن توالت الهدايا والرسائل والنقود اللازمة لطارق حتى يستكمل دراسته . . والزيارة تقتصر أسبوعاً ـ وربما أقل ـ كل سنتين . . إنها تخبرهم فى رسائلها وشرائطها المتوالية بالتأقلم والعشرة الأبدية لزوجها الحبيب الذى ارتضى حياة هادئة بلا أولاد . . الزمن لا يعنى شيئاً بالنسبة لعبد الباقى فراج وعزيزة حمدان . . الأيام تمر ثقيلة عليهما بلا سعادة أو حزن أو أمل أو يأس . . أصبحا الآن وحيدين . . يضمهما بين جدرانه الأربعة المأوى المختنق . . لا تعنى شيئاً كل هذه الأجهزة التى يحفل بها . . أصبحا الآن جهازين خاملين بينهما . . نزحت (السمرة) هناك . . تبعها أيضاً (طارق) . . كانت السنة الأخيرة بكلية الحقوق ترغمه على النزوح من المأوى . . العمة (نجيبة) تقيم وحدها فى « شدس » . . تزوجت عاماً واحداً فقط . . طلقها زوها فور علمه بعقمها . . قاضته بحقوقها فامتلكت الڤيللا وبعض العقود والصكوك ونفقة شهرية . . تقول دائماً :

ـ لا أمان للرجال .

تقول :

ـ لن أسلم نفسى لرجل

قال لها طارق :

ـ سأقيم معك ياعمتى

احتوته العمة (نجيبة) . . تبنته بكل كيانها . . تخرج بتفوق . . علقت العمة (نجيبة) بروازاً كبيراً بمدخل الڤيللا يحمل صورتى التخرج بزىّ المحاماة الكلاسيكى وشهادة الليسانس . . التحق باحدى ادارات الشؤون القانونية بشركة تأمين . . توالت الأيام وأدرك بالخبرة والاحتكاك بالمحاكم قضايا الاستئناف العالى والنقض والتعويض . . خصصت له العمة جناحاً صغيراً بالڤيللا لاستقبال الزوار والقضايا التى تمرس فى مرافعاتها

كان يخصص يوم الجمعة كله لوالديه بالطوبجية . . يزورهما دائماً بعد صلاة مغرب الخميس حتى عشاء الجمعة . . وذات يوم فاجأهما بترك ڤيللا (نجية فراج) . . قالت أمه عزيزة حمدان .

ـ هذا مأواك

قال طارق

ـ حصلت على شقة متواضعة

قال عبد الباقى

ـ مباركة إن شاء الله .

همهم بعد فترة صمت قصيرة

ـ العروس أيضاً . . تعد نفسها الآن لوقت مناسب

كرر أبوه مرة أخرى

ـ مباركتان إن شاء الله

قالت العمة (نجية)

ـ الشقة لا تصلح سوى للراحة فحسب

استدركت

ـ هنا المكتب والعملاء

حاولت (نجية فراج) مراراً إقناع أخيها وزوجته بالإقامة معها . . وأنه لا جدوى من تشتيت الأواصر والانعزال . . قالت (عزيزة حمدان)

ـ لا أقطع برأى صائب دون المشورة

قالت نجية

ـ هاقد تركنى وترككم (طارق) . . وأنت أكثر تأثيراً على (عبد الباقى)

ـ أنت أخته الوحيدة .

رمقهما (عبد الباقى) بنظرة حادة تعنى نهاية الجدال والزيارة . . انسحبت نجية على مضض وغادرت المأوى باكية . . همهم عبد الباقى فراج

ـ أرفض الإقامة فى مكان لم أكِدّ من أجله .

قالت أم السمرة

ـ ابنك فى واد . . وابنتك فى واد . . ونحن وحدنا . . وأختك تقتلها العزلة أشاح زوجها بيده بعنف

ـ لك بعد موتى أن تقيمى معها .

قال :

ـ لك أيضاً أن شئت الآن .

أطرقت (عزيزة حمدان) فى خجل لكنها لم تستطع كتمان فرحة تبشير كانت تعتمل بداخلها وتصاعدت إلى الوجه المجعد .. الأحفاد سيأتون من (طارق) .. (سارة) زوجته تبشر بذلك .. أصبحت تلك الغريبة هى الأمل فى سحق اللعنة الموغلة فى أرحام نساء (آل فراج) .

●

هذا الصباح يختلف .. لا تتشردى الآن بين هذه الحشود الزاحفة بلا انقطاع .. عليك أن تكفى عن الدوران حول أسوارك أو داخل أسوار هذا التيه .. الأقدام تدهس القبور بلا رأفة .. تدهسك .. لم يمت ذاك الذى تبحثين عنه .. إنه بارك زواح ابنك .. بارك الحفيد الأول .. تيمت (سارة) زوجة الابن بدعواته فأتت له بالحفيد الثانى .. كانت طفلة هذه المرة .. لم يلحق الثالث الذى يوشك على الخروج تقريباً .. إنه كان يدرك هذا الأمر .. كان يلفظ وصيته بالكاد .. قروش المعاش القليلة لا تكفى .. ضحيت بتلفزيون السمرة .. ثم الثلاجة فالمروحة .. تفاوضت إحدى جاراتك بعد ذلك على شراء الغسالة .. تجرد المأوى من كل شىء .. لا يهم مادامت زيارات (طارق) وشرائط ورسائل (السمرة) قد انقطعت .. احلف كل شىء .. اختلفت بالتالى الأيام والطقوس .

أحسست (عزيزة حمدان) بصواعق الشمس تنفذ داخل رأسها .. الأتربة تغمرها .. تكومت تحت ظل سور أحد المداخل .. حجبت وجهها قليلاً بغطاء الرأس الشاحب .. تقوقعت داخل الشال المترب الكالح .. أخرجت منه احدى كفيها باصابع مترددة .. ظلت الكف ممدودة .

الاسكندرية : عبد الغنى السيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

حصة رسم

الساعة السابعة صباحاً

● فى برودة الحجرة الدراسية المكتظة بالأطفال . الرؤوس المسترخية على الكراسى الخشبية تبدو على وجوهها ملامح كسل صريح ورغبات عميقة فى النوم تختبىء خلف ستار ثقيل من الخوف والحزن .

جدران الحجرة صفراء يتساقط جيرها من آثار المطر . ومن السقف تنزل خطوط حمراء لطين جف منذ زمن . وفى الزوايا تبرز شروخ سوداء كأنما هى أنهار جارية على كف أرض رطبة . وبين الزوايا والأنهار . فى مساحات الجدران الصفراء تقرأ تواريخ وذكريات وكتابات متقاطعة . وترى رسومات لوجوه مشوهة .

الصباح جميل وغائم .
صاح المدن ـ أيها الأطفال . .
صباح مواويل الشتاء . .

صباح غائم يميل إلى الظلام . . يذكر بأيام الأمطار وأصوات الرعود وسقوط البيوت . والهواء البارد يدخل من نافذتى الفصل . يذكى مشاعر الأطفال الصغار أو يؤذى أجسادهم الضعيفة .

يدخل الاستاذ . يسرع إلى اللوح الأسود ويكتب فى الزاوية اليمنى العليا :

المادة : تربية فنية
الموضوع : اختيارى

ويعم الفهم بينهم بنزق الطفولة ورغبات الصغار فى الحركة الشقية رأى الاستاذ الذى يعتمد على مكتبه الخشبى بفترة مدوية . . وفعلها فورا . فاهتز نعاس الصغار ، وأيقظ الصوت فيهم من جديد تلك المشاعر المريبة فى صدورهم منذ زمن . بالخوف .

يرفع الاستاذ عصاه من سطح المائدة . ويطلب من كل واحد أن يرسم فى كراسه ما يشاء . وأن يستخدم من الألوان ما يشاء . وأنه أخيرا لا يريد أن يسمع صوتا .

ثم إنه رمى جسده على كرسيه . . وأسبل جفنيه على نومة صريحة .

كان الهواء البارد القادم من النافذة يلفح وجهه فيبدو السيد مدرس المادة أكثر قدرة على الاحساس بلذة الاسترخاء والشعور بها بعمق . يأتى التيار سريعاً . يطعن وجهه وكامل جسده فينام . بينما تراود كل الأطفال رغبة ليست أقل حدة من رغبة أستاذهم فى أن يغمضوا أجفانهم الصغيرة مستسلمين لهذا التيار البارد ومستريحين من تعب الحارة والركض الطويل . .

وبعد دقائق . . .

راح الفصل بكامل نجومه فى نومة جميلة . . ما عدا طفل صغير مازالت عيونه اللامعة تبحلق فى المكان بتوجس مريب .

خالد طفل شقى . . وفنان . ولكنه يكره النوم .

ينام كل يوم أربع ساعات فقط . ويقضى بقية يومه فى حماس سخى يبلغ ذروته فى الصباحات المدرسية . خالد يكره النوم ويكره أن يرى النعاس المسيطر دائما على وجوه زملائه وعلى المحيا الغامض لاستاذه . وفكر فى هذه اللحظة أنه يتعين عليه فعل شىء

نهض خالد من كرسيه بهدوء . يختلس الخطوات إلى لوح الفصل فى مشية صغيرة حذرة وحلوة لا يملكها إلا هو . تناول أصبع اللون الطباشيرى الأبيض وكتب على اللوحة بخط عريض : خالد طالب مجد . . . ثم التفت إلى الفصل . . وعجب بفرحة غامرة . كيف أن الجميع لم يحسوا به . . وأخذته نشوة الاحساس بالوحدة والحرية إلى ما لا نهاية . التفت إلى أستاذه . فرأى وجها مدورا وسميناً . عيناه مسبلتان على نومة واضحة . وعاد ثانية إلى اللوح . تتلألأ عيناه ببريق الفرحة الموصولة التى يكتمها فى صدره منذ أحس فى البدء أن الجو موات ليمارس على لوح الفصل ما يشاء . مسح ما كتبه ورسم شكلاً لاستاذه النائم جواره . كما بدا له هيئته المثيرة للشفقة . وجه مدور سمين . وجسد أخذ شكل الرقم (٢) على كرسى خشبى صغير وكتب خالد أسفل الشكل . وهو يكتم ضحكة منسلطة : مدرس الفصل ٥/٣ . . ثم عاد إلى كرسيه مبهورا بإنجازه . وهو يعقد عزمه على نقل مارسمه إلى كراسه .

(الساعة الثامنة إلا الربع)

● الأستاذ يفيق بكسل على صوت جرس الحصة . ينظر إلى وجوه طلابه فلا يرى إلا ظلالا وأخيلة فيحس أنه لا يملك القدرة على تمييز وجوههم فيوقن تماماً أنه أكثر تعباً مما يظن . يقف متثاقلا . يلتفت إلى لوح الفصل . يتأمل الوجه المرسوم ببراعة . فيخيَّل إليه أنه رأى هذا الوجه من قبل . يعرك حدقتيه بيديه . يأمر عريف الفصل بجمع الكراريس ويخرج . . مصحوباً بالغموض ,

الرياض ـ فهد العتيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فـــوزى شـــلبى

قصـــة

تغـــريـــد

العصافير تحط فوق الشجرة الوحيدة وسط الشارع ، وعند حواف النوافذ . تزقزق وتهز أجنحتها لتُسمع هى وضجة الطريق .

و« تغريد » فى يد أمها . تتواثب كرفيف الحلم . تركل الهواء ، وقد أضاءت قسماتها أشعة الشمس التى تدلف ببطء . ويبدو وجه الأم بلون الشروق حيناً ، ولون الغروب حيناً آخر ، وثمة مزيج من الفرحة والألم يتساقط من عينيها . ورائحة الآخرين تلتصق بثوبها الأسود ، وتتسلل إلى جلدها . والطفلة الهشة ترتدى فستانا بنى اللون ، يتشرب وجهها بحمرة مشرقة . . تتدحرج وتحجل ، وتحجل وتتدحرج . تردد كل ما تسمع . تخرج كلماتها مبتورة . أغلب حروفها مقلوبة ، تضحك حتى تدور الأرض ، وتستجم فى رذاذ الشمس . ترفع ساقها ويتدلى الحذاء ! تتشبث أصابعها بباطنه ؛ فلا ينخلع ! تقفز قفزاتها الحية . تلمع عيناها وهى تتطلع إلى كل شىء . تلقنها أمها الأسماء والأشياء .

تتلقف « تغريد » الكلمات وترددها كالببغاء . وقدمها مرفوعة بين خطوة وأخرى ، بينما الحذاء يثقل القدمين ؛ فتحجل !

وبدهشة تشير إلى سيارة وقد وضعت يدها فى وسطها ، واهتز رأسها وهى تقلد الإعلان التليفزيونى :

- ع . . ل . بية ، ع . . ل . بية .

يبتسم المارة وهى تركض ، تردد نداءات الباعة بنقاء وشقاوة ، تضرب الأرض بقدميها ؛ فيتهاوى الحذاء فجأة ، ويسقط ؛ فتجفل !

تتوقف « تغريد » منطفئة ، وتجتذب ذراع أمها صائحة :

- ت . . ل . . يمة ، الدزمة انحنت « كريمة » ومدت يدها إلى فرده الحذاء ، وأطرقت ساهمة .

وكانت العصافير قد طارت ، ثم عادت تحط فرادى فوق أماكنها القديمة ، وقد غاب صوتها تماماً ، ودارت الأشياء البراقة والباهتة بسرعة أمام عين « تغريد » ثم تناهى إلى سمعها الهمس المجروح مبشراً :

- ح نجيب واحدة جديدة

رفت الفرحة ، واهتز القلب الصغير طرباً .

تلون وجه « كريمة » بإيقاع الخطوات الغضة . طافت بوجهها ابتسامة شاحبة و« تغريد » فوق الرصيف تسير ، تحجل وتسير . يقذفها الموج البشرى فتصطدم بالحضن الصامت . يهوى القلب حتى القدمين ، يرفع الطفلة إلى الصدر . وتعبر الأم الشارع ، تدلف إلى السوق بوجل . تغوص فى باطن الهواء ، ترمى ناظريها عبر الزحام ، ترى قرص الشمس الخجلان فى عينيها . وتتماوج حول رأسها أمواج ، وأمواج لزجة .

تزم « تغريد » شفتيها ، وتضرب الهواء بقدميها ؛ فيطير الحذاء ثانية ! يقع على أحد المارة . تمرق نظرة الاعتذار من عين الأم الأسيانة ، وتنزل الطفلة متبرمة ، تنتعل حذاءها عابسة

ينبلج فم « كريمة » عن بسمة واعدة وهى تشير إلى (فترينات) الأحذية ، ثم ينمحى طيف الابتسام مسرعاً :

تتملص « تغريد » وتفك أسر كفها ، وتكاد أقدامها لا تمس الأرض ونظرتها المتوهجة تشق الزجاج وتلتصق بالأحذية الملونة :

تمد الأم روحها وتبسطها على الأرصفة ، فتتسرب إلى الطرقات ، وتتسلل فى الحوارى تحس بالبرد يملأ جسدها كله ؛ فترتجف . ترتعش عيناها وتصيران بلون ازحام . تذوب داخل نفسها وتقف فى صبر واستسلام أمام البائع ، الذى يرتدى ثياباً أنيقة ، زاهية الألوان ، وتتدلى من عنقه سلسلة ذهبية يحسن استخدام تقاطيع وجهه غاضبا ، ناهراً أحد الزبائن . وبصوت يحمل تحذيراً قاطعاً يرفض (الفصال) .

يلملم (الزبون) ملامحه المنهزمة ، ويبتعد .

و« تغريد » تبتهل بعينيها البريئتين ، وقد لون البائع صوته وراح يداعبها ويبتسم وامتدت أطراف أصابعه فى مهارة إلى اكثر من حذاء وبفرحة دست رجلها عاجلة فى واحد أصفر ، بدا متسعاً . نظرت إلى أمها وفى عينيها تساؤل ربتت « كريمة » على رأسها مطمئنة :

- نجيب غيره دا وحش .

تخلعه ، وتردد بتناغم :

- وهش .

أشار البائع إلى آخر ذى جلد أبيض موشّى بزخارف عديدة ووردة براقة :

- دا حلو ، للبنات الحلوين .

انسجم الحذاء فى قدم « تغريد » وتفتحت كل زهور العالم فى عينيها وهى تهتف :

- هلو يا أمو ، هلو يا ماما .

وملأت وجهها ابتسامة ظفر . وابتسم التاجر ، وعاود استخدام تقاطيع وجهه وحدد الثمن .

غاصت الأم إلى حافظة نقودها ، ألقت نظرة وأحصت ما بها . ثم تسلك أصابعها إلى قدم طفلتها ، وقد ملأ العرق راحتها ، وتلاحقت أنفاسها وهى تقترب من أذن ابنتها ، وخرج همسها منكسراً وحسيراً :

- إديه لعمو ، دا وحش .

أسبلت الطفلة الجفن عن النظرة الآمرة المستعطفة فى آن معا ، تقلصت الأصابع على الحذاء ، ثم طوحت به وقد خرجت حروفها صامته :

- و . . . ه . . . ش .

فوزى عبد المجيد شلبى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

قصتان قصيرتان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ ــ ما لم تبح به العصافير

فى الليل ، أطلق الفتية الضاحكون الرشات من بنادقهم على الشجر كى يُسقطوهن قتلى بين أقدام المارين فى الشارع المزدحم بالنيون والناس .

تتحرك العصافير ــ بعد الضرب الكثيف ــ حركات خفيفة مُحدثة فى أعواد أعشاشها الهشة الساكنة حفيفاً هينا . يزيد الفتية فى إطلاق الرشات من بنادقهم ؛ فتستكين العصافير نازفة الدم من حوصلاتها ومناقيرها وصدورها الهينة ، فتتساقط قطرات الدماء النازفة على البيض والعصافير الصغيرة العارية من الريش ، فتتبلل بعض الأعواد الساخنة ــ تحت البيض وأجساد الصغار ــ بالدم .

وفى أى يوم عاصف من آخر أى شتاء يجىء ، تتطاير الأعشاش متناثرة مع الريح ، وتسقط العصافير ــ على الأسفلت ــ يابسة .

٢ ــ المذارة

أكلت الجمال العاقول الناشف جداً ؛ فعطشت ؛ فأنّت ؛ فقذفت بعراً بدم .

ولأنها لابد أن تمشى مُحملة ، بالأحمال للبلاد البعيدة كى يرضى عنها أصحابها ، مشت بتعب ، ثم تلكأت ، ثم بركت ، فماتت ، فتعفنت جلودها فوق الرمال والأحجار ، وبذلك لم يستفد « الغرابلى » من جلودها ، وبذلك لم يجد النجار قطعة من الجلد كى يشدها على أصابع المذارة ، وبذلك لم نستطع فصل حبات القمح عن التبن وخاصة عندما عزّ الهواء ، ومن حسن الحظ ، أن فى أيامها جاءنا القمح ــ مع الزبد ــ على ظهر سفينة مختومة الأجولة ؛ فحمدنا الله .

عبد الحكيم حيدر

مسرحية

الطيور المجهدة

رجب سعد السيد

« المسرح يمثل حجرة كبيرة مقسمة إلى قسمين : معمل صغير به مكتب خشبى ، والقسم الثانى ـ الأكبر ـ مزوّد بطاولة خشبية كبيرة فى الوسط ، محاطة بعدد من المقاعد القرصية . بين القسمين حاجز قصير ، نصفه السفلى بناء ، والأعلى زجاجى . يتصل القسمان بفتحة بابية فى الحاجز .

الزمن نهاراً ، وضوء الشمس يغمر النوافذ العريضة . هدوء تام . . جو عمل . الباحث الشاب « أحمد » يجلس إلى معداته فى الجزء الكبير من المعمل ، منصرفاً تماماً إلى عمله ، لا يكاد يتحرك . باحثة شابة « هدى » تجلس إلى المكتب فى الجزء الأصغر من الحجرة ، تقلب أوراقاً أمامها ، وتدون بعض الملاحظات .

أحمد : (يغمغم . . يتضح صوته شيئاً فشيئاً ، كأنما يحادث شخصاً أمامه) يووووه . . غير معقول . . لا تزغ منى يـاملعون . . ابق قـليـلاً . . أرجـوك . . أرجـوك . . يووووه . . فى ستين داهية ! (ينفخ متبرماً وهـو يرفـع رأسه) ! (يـدوّن فى كراسة بجانبه) أربعون ثانية ! .

هدى : (فى مكانها) مالك ياأحمد ؟ . . هل عدت إلى محادثة نفسك ؟!

أحمد : تصـورى . . الزمن يتنـاقص بشكل غـير عـادى . . لا تكـاد البيضـة تفقس حتى تنقبض اليرقة مرة أو مرتين ثم تنقلب جثة هامدة !!

هدى : (تترك أوراقها وتتجه إلى مكان أحمد) أريد أن أرى هـذا الجنين المجهض . . هـل رفعته ؟ .

أحمد : لا . . (يفسح لها مكـاناً خلف المجهـر) تفضلى . . ولكن الذى يستحق أن يرى هو لحظة الفقس ذاتها . .

هدى : (نـاظرة فى المجهـر) إنها عشرات ، بـل مئات . . هل كلها ميتة !؟

أحمد : وهل تجدين فيها أى حركـة ؟ . . اليرقـة الحية لا تكف عن الحركة . . قانون حياتها الحركة المستمرة . . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هدى : (تترك له مكانه) معنى هذا أن هذه المنطقة خالية من الحياة !!

أحمد : وتلك هى المأساة . . فهى أنسب الأماكن لوضع البيض . .

هدى : ترى . . هل ستفطن الحيوانات الكبيرة للتغير وتهاجر لتبحث عن مكان آخر نظيف تضع فيه بيضها ؟ .

أحمد : لست أدرى ، وعلى كل حال فالأمر يحتاج إلى وقت طويل ، وهو محفوف بالمخاطر بالنسبة لبقاء هذا النوع من الحيوانات . . وأيضاً ، لا نعلم إلى أين ستهاجر . . فإذا تركت سواحلنا ، ستصبح المنطقة مثل المراعى القاحلة . . ستهجرها كل الأسماك إلى حيث تجد مصدراً آخر للغذاء . . وهذه هى الكارثة الحقيقية ! .

هدى : ولماذا لا نتحرك ونساعد هذه الحيوانات المسكينة ؟ .

أحمد : من تقصدين ؟ .

هدى : كل الجهات المسؤولة . . شركات المصايد ، السواحل ، الصرف الصحى . . وكل هؤلاء الذين يتحدثون عن الغذاء ومشكلته . .

أحمد : (يأتى بحركة تشى باليأس والسخرية) هدى . . أرجوك ــ لا تضغطى على الدّمّل !

هدى : ولكن . . ما الذى يغتال حياة هذه الحيوانات فى أول خطوة لها فى الحياة هكذا . . ماذا بالضبط ؟ .

أحمد : لا أستطيع أن أخمن بدقة . . هذا الجانب يختص به أصدقاؤنا فى قسم الكيمياء ، إنهم يدرسون كل أنواع المخلفات التى تلقى فى المنطقة . . ويوماً ما ستكتمل الصورة . . ولكن المؤكد أن تلك المنطقة لم تَعُدْ تصلح إلا للبكاء عليها !! .

هدى : ياساتر !! . . على كل حال ، أدّ دورك ولنترك الآخرين لضمائرهم . (أحمد لا يعلق) . . كنت أتمنى أن أحصل على نقطة بحث كهذه . . إنها حكاية متعددة الأبعاد ، وهذا يقربها من اهتماماتك . .

أحمد : (يستقر فى جلسته أمام أدواته) وفى هذا بعض العزاء . . ! .

هدى : (مداعبة) ولكن ، بصراحة ، أنت لم تعد تعمل بنفس الحماس الذى بدأت به والمعروف عنك . . سامية صارت لك . . (تضحك ضحكة صغيرة) صحيح أن الزواج لم يتم ، ولكن الحكاية انتهت كما ينبغى ، ولم تبق إلا خطوة . .

أحمد : (يلتفت إليها مبتسماً ، ينهى المناقشة) ولكن تلك ــ كما يقول اللغويون ــ حكاية أخرى ! .

(يضحكان . . يعودان إلى أعمالهما . . تمر فترة قصيرة ، ثم . . . فجأة ، يقتحم الجو صوت طائرات نفاثة حربية . ينتفض الشاب فزعاً . يختل توازن مقعده ، فيسقط على الأرض . . يتعثر الشاب فى المقعد . . تتدحرج آنية زجاجية كانت أمامه وتسقط حطاماً . يشد تتابع أصوات الحادث انتباه الفتاة . ترفع رأسها وعلى وجهها ملامح القلق . تهب فزعة مع صوت تهشم الوعاء الزجاجى .) .

هدى : (تنظر فى اتجاه مكان الشاب خلال الحاجز الزجاجى) أحمد . . ماذا حدث ؟ (لا يرد ، ولا تراه فى مكانه) أحمد . . أين أنت ؟ (تترك المكتب وتهرول إلى المعمل الكبير . . تراه على الأرض محاولاً أن يسند ظهره إلى الجدار) . . ياساتر ! ما هذا ؟ . . أووه (تظل واقفة مشدوهة تنظر إليه فى جلسته وسط فوضى الحادث ، وهو صامت ، جامد الوجه . . تألف لديها من هذه الجزئيات ما يدعو للضحك ، فانسحبت دهشتها أمام موجة ضحك بدأت مكتومة ، ثم لم تلبث القهقهات أن تصاعدت) .

أحمد : (يشده من ذهوله صوت ضحك زميلته . . ينظر إليها وهو لا يزال جالساً . . ثم ، فجأة ، وكأنه أدرك

أخيراً أن ضحكها لا يليق) كفى ! كفى ! ماذا يضحكك ؟ .

هدى : (يتوقف ضحكها . . تظل واقفة فى مكانها . . يغزوها الإحساس بالذنب . . تبدو مرتبكة . . تحاول أن تتقدم لمساعدته وهو ينهض متجهما . . تتراجع . . يقف . . يتجه إلى مقعد من مقاعد الطاولة . يجلس مسقطاً رأسه على سطح الطاولة معتمداً على ذراعيه . . تمضى لحظات قبل أن تتغلب الفتاة على ارتباكها وتتقدم متخطية حطام الإناء ، وتقف خلف أحمد تحاول الاعتذار) آسفة . . أحمد . . لم أكن أقصد أن . . ولكن . . إنى أعتذر (كأنما تكتشف أنها تحادث نفسها . . أحمد لا يزال يحتضن رأسه بين ذراعيه على الطاولة) ولكنى لا أعرف . . ماذا حدث ؟ . . ما الذى جعلك . .

أحمد : (يرفع رأسه ويتحدث فى عصبية واضحة) أرجوك . . أرجوك يا هدى . . لا تتكلمى . . لا تعتذرى . . لا أريد أن أسمع . . لا أريد أن أرى أحداً . . أتركينى أرجوك . . .

(تتراجع هدى مندهشة ، تدخل إلى المعمل الصغير ، ولكنها لا تلبث أن ترجع وكأنها قد اكتشفت شيئاً . . تمر بأحمد وهى تخرج من المسرح خلال باب المعمل . يبقى أحمد على وضعه للحظات . يرفع رأسه . يعتدل فى جلسته . ينظر إلى مكان الوقعة . ينظر إلى السماء عبر النافذة الزجاجية . ينادى هدى بصوت واهن . حين لا يجد رداً ، ينهض متثاقلاً ، ويخطو إلى باب المعمل الصغير . ينظر فى أرجاء المعمل ، وإلى المكتب . . لا يجد زميلته . يرجع إلى مكان الحادث . ينظر إلى أدواته على منضدة المعمل . . ينحنى ويقيم الكرسى . يدخل فى نفس الوقت عامل النظافة سويلم . يرى أحمد وهو يلتقط الكرسى . .

سويلم : (داخلاً) مهلاً . . مهلاً يادكتور . . لا تتدخل فى عملى (أحمد لا يلتفت إلى محاولة التفكه ، ويلتقط الكرسى) .

أحمد : (بصوت لا عاطفة فيه) جفف الماء وللم قطع الزجاج وضعها فوق المنضدة . .

سويلم : (ينظر فى وجه أحمد المكفهر . . يعاود ممارسة المرح) أمرك يا دكتورنا العظيم (يعمل بهمة واضحة) ألا ترى يادكتور أحمد أننى أصلح للعمل معكم فى هذا القسم بالذات ؟ . . أنتم تدرسون تلوث البيئة وأنا أنظف البيئة ! (يضحك وحده بصوت عالٍ . . يتوقف عن الضحك عندما يرى تجهم أحمد وعدم استجابته للمرح) .

أحمد : (لا يلتفت إلى الدعابة) انته بسرعة واخرج ! .

« . . . ينتهى العامل من تنظيف المكان المبلل . يضع حطام الإناء فى كومة فوق الطاولة . يحمل أدواته ويخرج . يرجع بعد لحظات قليلة ليفتح الباب لتدخل منه فتاة أخرى ترتدى ملابس العمل . « سامية » . تدخل مسرعة ، وفى لهفة واضحة تتجه إلى أحمد الواقف يتأمل السماء خلف النافذة . . .

سامية : (تقترب من أحمد وتلمس كتفه بشكل يشى بدرجة الود بينهما) أحمد . . ماذا جرى ؟ .

أحمد : (يلتفت إليها ولا تزال على وجهه ملامح الانفعال العصبى الشديد . . يحاول أن يبتسم) سامية ! . . أهلا . . .

سامية : (تجلس فوق أقرب مقعد متخلصة من انفعال اللهفة والقلق) ياه . . هدى هذه لن تكف عن طريقتها السخيفة فى المبالغة . . جعلت من الحبة قبة . . تركت كل شىء ونزلت السلالم قفزا . . (تدقق النظر فى وجهه) ، ولكنك تبدو شاحباً ! .

أحمد : (محاولاً التهوين) لا شىء . . مجرد انفعال عارض . .

سامية : (تلمح كومة الزجاج على الطاولة) ما هذا ؟ . . حطام ؟! . . إنه إناء التربية . . (تعاودها حالة القلق) إذن لم تكن هدى تبالغ ؟! . . (تقترب منه ثانية) . . أحمد . . ماذا جرى ؟ . . هل

عـاودتك حـالة اليـأس ؟ هل عبث أحـد بأشياء التجربة ؟ . . لابد أنك عدت إلى حالة القلق المميت ! .

أحمد : (يجـلس ويـدعـوهـا إلى الجـلوس) اجلسى . . لا تبـدئى فى توزيـع ظنونـك واتهاماتك . .

سامية : (تجلس) ولكنك لا تقول شيئاً .

أحمد : (قبل أن تسترسل) كل مـا فى الأمر أننى كنت جالساً أرقب البيض يفقس فى التركيز الجـديـد مـن المحـلول . . ثـم مـرت الـطائـرات . . (تنتهى الكلمـة الأخيـرة بشكل حاد) .

سامية : (فى انتبـاه من وجـد التفسـير . . تختلج عضـلات وجهها ألماً . . تـدق بقبضتهـا سطح الطاولة) أوه . . لقد مرت فعلاً . . سمعتها ! .

(. . . تمر فترة صمت يبقى خلالها أحـد حاملاً رأسه على كفيه ومعتمداً بكوعيه على ظـهـر الـطاولـة . . وجـهـه مجـهـد حزين . . سامية أيضاً صامتة حزينة لا تكاد تعرف ماذا تقول . . أحمد هو الذى يقطع الصمت الثقيل محاولاً أن يزيل حزنها) .

أحمد : وأنا فى الحفرة البرميلية كنت أتخيل أن طيار الفانتوم على بعد آلاف الأقدام منى يسعى ورائى أنا بالذات . . ــ والآن ، وفى هذا المكان فى آخر المدينة والحرب قد انتهت هل انتهت الحرب حقاً ؟ إذن ، لماذا لا تريـد الطائرات بهديرها الملعون أن تتركنى ؟ لماذا لا تحلو لهـا المناورة إلا فـوق دمـاغى ؟ (يحاول الضحك . . ضحكة صغيرة تخرج جـافـة متشنجـة) السـاعـة الآن الثـانيـة عشـرة . . دعينا نلحق بـالزمـلاء لنأخـذ الشاى معهم .

(. . . ينهض ويقف خلفها ويمس كتفيها بيديه . تلتفت إليـه وهى لا تزال جـالسة وتلتقى عيناه بعينيها المتسـائلتين القلقتـين الحزينتين . . كأنما يلخص لقاء العيون هذا شريطاً طويلاً من الأحداث ، وحديثاً فيه دفء الحـزن . تنسحب يـداه من فـوق كتفيها ، وتنسحب عيناه أمـام عينيها . . وينسحب هو فى خطوات بطيئة إلى أقصى الغـرفـة محملقـاً فى الخـارج من خـلال النافذة . تتابعه سامية بعينيها حتى بعد أن وقف وظهره لها . . .) .

سامية : (فى نبرة حزينة بطيئة) ما زالت هذه الحالة تهاجمك ؟ .

أحمد : إنها تكوى أعصابى . . تهدم كيانى وتلقينى كورقة ممزقة !

سامية : مضت ثـلاث سنـين . . ظننت أنـك نسيت ! .

أحمد : (لا يـزال ظهـره لهـا) أنـا أيضـاً ظننت ذلـك . . حـاولت . . لم أملك . . هـذه رابـع مرة . . أخفيت عنـك أن الصـوت صـرعنى مرتـين أخـريـين غـير المـرة التى تعرفينها . .

سامية : (فى حيرة) وإلى متى ؟ .

أحمد : لست أدرى . .

سامية : (مندفعة) لمـاذا رفضت فكرة العـلاج فى وقتها ؟ (لا يرد) . . مجرد حالة عصبية ، وكـان يمكن أن تنتهى فى مدة قصيـرة . . حالات أكثر تعقيداً تزول بالعلاج . . .

أحمد : (بهـدوء ظاهـرى . . لا يزال ظهـره لها) سامية . . أرجوك . . لا تحاولى أن تقنعينى كطفل . . تحدثنا فى هذا كثيراً . .

سامية : (بنفس الانـدفـاع)نعم . . تحـدثنـا مـراراً . . أثـقلت عـليـك بحـديـثى السمج . . وأنت رجل تعمـل فى البحث العلمى ولا تريد أن تقتنع بضرورة اللجوء إلى الطب لعلاج حالة مرضية ليست أكثر من . . .

أحمد : (ملتفتا ومقاطعاً بحدة) أنت التى لا تريدين أن تفهمى .

سامية : (تقـاطعه أيضـا) بل أفهم . . أكـثر من هذا ، أكاد أحفظ أفكارك . .

أحمد : (فى حـدة) بـل لا تفهمـين . . إنـك تتجاوزين أشياء كثيرة لتصلى بى إلى عيادة طبيب أو مصحة لأرقد مسترخياً ، وأثـرثر بكلام فى اتجاهـات شتى ، ثم أسلم

نفسى لأسلاك كهربية تصدم شحنتها رأسى فتمحو من ذاكرتى دوى محركات النفاثات المقاتلة ! .

(تتغير الحدة فى الصوت إلى ليونة مشروخة متوترة) للأسف . . أنت زميلة الدراسة ، وزميلة العمل ، وخطيبتى ، ومع ذلك ، تصرين على معاملتى كواحد من مشوهى الحرب ! .

(. . . . . يتخلف عن الحدة وتتابع الحوار السريع صمت مفاجىء يطول . . يركن الاثنان إلى حالة من التفكير . . يلتفت إليها أحمد . . ترفع إليه رأسها . . الحزن يملأ وجهها . . يتقدم ناحيتها . . يقف بجانب مقعدها . . يحاول أن يتكلم . . يتراجع عن لمس رأسها) .

سامية : (تكتشف ما يعتمل فى نفسه) لم نكن بهذه العصبية من قبل ، ماذا يحدث لنا ؟ ، لماذا تطول خلافاتنا ونحتد فى المناقشة ونفتقد المنطق ؟ « إما أقنعك أو تقنعينى » . . لماذا ننسى اتفاقنا منذ البداية ؟

أحمد : الشىء المؤكد أننى أحبك . .

سامية : أيضاً لم أكن فى حاجة لمثل هذا التأكيد . . .

أحمد : ما الذى تريدين أنت أن تؤكديه ؟ .

سامية : لست بحاجة إلى التأكيد . . واضح تماماً أننا لم نعد كما كنا . .

أحمد : يبدو أن هذه هى النتيجة التى تريدين أن تبرزيها وتؤكدى عليها دائماً ليس معنى أن نختلف أننا تغيرنا . . ثم إننا اختلفنا كثيراً فى الماضى . .

لم تكن آراؤنا دائماً واحدة . . فلماذا تتوجسين الآن من الاختلاف وتحاولى أن تثيرى حوله الريبة ؟ .

سامية : (بعد فترة صمت) هل تسألنى أنا ؟

أحمد : (بصوت صارخ) نعم . . أنت . . أنا لا أحادث الهواء . . لم أصل بعد إلى هذه الحالة . . ألم أقل لك ؟ . . دائماً تلفين وتدورين لكى تصلى إلى نفس النقطة : الأعصاب ، الحالة . . الجنون . . الطبيب ! ! (تؤخذ سامية من ثورته ، كأنها لم تكن تتوقعها . لا ترد . يرتكن أحمد إلى الحائط مكدوداً . . تدخل هدى ، تتحسس بعينيها ملامح كل من أحمد وسامية ـ خطواتها مرتبكة متحسبة . . تحاول أن تستكشف الحال وأن تنثر فى الجو بعض المرح) .

هدى : إحم . . إحم ـ ها . . كيف الحال ؟ هل نظف سويلم المكان ؟ . . أين حطام الإناء ؟ لابد من وجوده مع محضر الكسر حسب القوانين المقدسة التى ينفذها عتاة مخازننا كما يجب . . (تتوقف لحظات . . تتجه داخلة إلى حجرة المكتب الصغيرة) قبل أن أخرج ، اسمحوا لى أن أسهم فى رش بعض ماء الورد ، هل سمعتم عن تشايكوفسكى وسيمفونيته الرائعة ؟ .

أحمد : (مقاطعاً فى حدة) هدى . . أرجوك ، لا طبل ولا زمر ، دماغى مشوش !!

هدى : (وقد فاجأتها كلماته) معذرة . . معذرة ، اسمحا لى ، سأذهب بعد أن آخذ علبة السكر . . سيكون اجتماع الشاى اليوم فى معمل الدكتور يوسف . مرة أخرى . . أعتذر . . (تلتقط علبة السكر مسرعة ، ثم تكاد تهرول إلى الباب . تخرج وتغلقه خلفها بهدوء . تقف سامية بعد خروج هدى . يبدو وجهها محايداً ربما تكون مستغرقة فى التفكير ، تواجه أحمد واقفاً فى ركنه . . تتحرك خارجة) .

سامية : أنا أيضاً أزعجتك ، ويجب أن أنسحب فى هدوء . .

أحمد : (متحركاً وقد أحس بصدق عزمها على مغادرة المكان) سامية ، لا تتركينى هكذا . .

سامية : بل يحسن أن أتركك الآن . . تفكر وحدك قليلاً . .

أحمد : (يقف قبالتها) لا . . لا . . المفروض أنك هنا لتساعدينى . .

سامية : وما زلت أريد هذا .

أحمد : إذن ، دعينى أريح رأسى المحموم على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتفك . . أنا أحبك ياسامية . . أحبك ، إن الضباب الكثيف يعمينا عندما ننسى — أنا وأنت — هذا الحب . .

سامية : دائماً تقول هذا ، ودائماً أنت الذى ينسى . .

أحمد : أنا لا أنسى ، لأننى أحتاجك .

سامية : بل تبتعد عنى شيئاً فشيئاً ! .

أحمد : فعلاً لم نعد نلتقى كثيراً ، شغلنى عنك العمل هذه الأيام .

سامية : حقاً ، ورئيس القسم ، أستاذك المشرف على البحث الذى يسعى وراءك وكأنه هو المحتاج إليك . . يصعد إلى خصيصاً ليشكو لى من كثرة تغيبك . .

أحمد : (محاولاً التملص) إننى أحضر إلى هنا فى آخر النهار لأعمل فى هدوء . . وأنت مشغولة بعملك طيلة النهار

سامية : (مستمرة فى عرض فكرتها الأساسية) وعلى كل حال ، أنا لم أقصد عدد مرات اللقاء ، إنك تقضى معى معظم الوقت منسحباً إلى داخلك ، صامتاً كأبى الهول ، كأنك لا تشعر بوجودى . .

أحمد : أنت تعرفين حالى عندما يهاجمنى القلق .

سامية : القلق ، الهموم ، القلق ، الهموم ! هل تضبط هذه السحب السوداء موعد هجومها مع وقت لقائنا ؟ .

أحمد : لا أعتقد أننى أصبحت سيئاً لا أطاق إلى هذه الدرجة ! .

سامية : (كمن نفد صبره) أحمد ، بصراحة ، هذه الأفكار التى تسيطر عليك ، أخذتك منى ، أخذتك من كل شىء ، حعلتك تركن مستسلماً بينما زملاؤك يتخطونك .

أحمد : (نافدا صبره أيضا) أعرف ، أعرف . وأنا فى مكانى أتخبط ولا أعرف كيف أحقق الشرف العظيم بالحصول على درجة الماجستير العصماء ! .

سامية : هذا حقيقى . . للأسف !

أحمد : أنت ستحصلين على دكتوراه فى العلوم بعد أيام . . دعينا نتقابل بعد تغيير الدرجة الوظيفية ، وبعد زوال التأثير الوقتى لقفزه المرتب الضئيلة . .

سامية : أحمد . . أرجوك . . أسكت . . لا تستمر . . لا تدعنى أصدق أنك أنت الذى يتكلم . .

أحمد : لماذا نخفى الحقيقة ؟ فى كل معمل من هذا المبنى ثلاثة أو أربعة دكاترة عظماء . . دعينا نبحث عن القيمة الحقيقية للأشياء !

سامية : ولكنك تبخس الأشياء قيمتها . .

أحمد : ألم أقل لك إنك لا تحاولين الفهم ؟ . . قولى لى ، أين بحث الماجستير الممتاز الذى أنفقت فى إنجازه أربع سنين ؟ . فى المكتبة متروك للتراب والرطوبة . . هل تذكرين أحلامنا المشتركة حوله ؟ ، هل تذكرين كلمة أحد المتحنين فى تقريره عن البحث ؟ أنا أتذكرها (كأنما يتلو) « إنه بحث أكثر من ممتاز ، ييسر بعودة مصايد السردين المصرية التى فقدناها بعد بناء السد العالى » . . هل تذكرين الحماس الزائف على وجوه مديرى شركات المصايد التى زرناها نعرض عليها أن تستغل نتيجة البحث ؟

سامية : أعرف ، ولكن ما صلة هذا بما نحن فيه الآن ؟

أحمد : المسألة ليست أكثر من حالة فقدان حماس . . أنا أعمل ، ولكن بتثاقل من على وشك أن يفقد كل الأمل . . .

سامية : ولكن الصورة لم تصبح قاتمة إلى هذه الدرجة !

أحمد : ربما ، ربما أنا مصاب بعمى ألوان فى البصيرة كعمى الألوان فى الرؤية الفيزيقية . . ولكنى أملك حججى ومبرراتى . . لقد علقت كل آمالى العظيمة على الحرب . . والغريب أن خطاباتك لى فى الجبهة كانت تحمل مشاركتك !

سامية : أنت متسرع ؛ أنا ما زلت أحلم بالتغيير ، ولكنى لا أتعجله ، سيأتى ، لابد . .

أحمد : مضت عشر سنين على الحرب ، ليست مدة قصيرة ، والثمن لم يكن هينا !

سامية : عشر سنوات لا تعد زمنا

أحمد : ولكن انتصاراً حدث ، كان يجب أن يكون ذلك دافعاً لأن تتحدد ألوان الأشياء ،

وكان يجب أن يكون قسطاسا يتوزع به دفء الحضن على الذين أرهقهم الثمن الباهظ . . (فى عتاب ومرارة) ولا تريدين لى أن أقلق وأتوه فى دوامات المستقبل ، والحلم بالحد الأدنى من معيشة كريمة ، والتخبط فى العجز عند حساب مدخراتنا فى مواجهة الأرقام الفلكية للخلو وثمن الأثاث و . . . (يتوقف مرهقاً) أتعرفين ؟ . . أحياناً أفكر فى أننى أصرّ ـ لا شعورياً ـ على الاحتفاظ بهذه الحالة العصبية لكى لا أنسى ! .

سامية : (لابد أنها تأثرت . . فقد زالت عصبيتها وأصبح صوتها لينا) كل ما أريده أن يذهب عنى الإحساس بأننا نتباعد . . إننى أعيش فى رعب كلما هاجمنى هذا الإحساس ، أصبحت أخاف مناقشتك فى هذا الموضوع . . أنت متشبث بآرائك المتشائمة التى يمكن أن تلقى الظلال وتثير الظنون حولك . . يزعجنى إحساسى فى كل لحظة بأن شيئاً ما يمكن أن يتهدم !

أحمد : (فى رنة إشفاق) لا تخافى ، ليس سهلاً أن ننزوى بحديثنا فى حدودنا الضيقة ، كل شىء أصبح متشابكاً داخل نسيج معقد . .

سامية : (تكاد تبكى) ولكنى أخاف ، أخاف . . بل أرتعب ، تأتى أحياناً لحظات تجعلنى أترقب أن كلمتك التالية ستكون قرارك بالافتراق !

أحمد : الافتراق ؟ (ضاحكاً) أنت التى تحتاجين الطبيب ! (بدفء) فى وسط هذه الكومة من فوضى الأفكار التى قد أكون مصيباً فيها أو على خطأ ، فى وسط هذه الأمواج المضطربة ، لا توجد سوى حقيقة واحدة أنأى بها عن كل الشكوك ، وهى أنك أنت . . قدرى !

سامية : (من خلال دموعها . . مواصلة الاعتراف بشكوكها) منذ قليل ، كنت على وشك أن أتهمك بأنك تختلق وسيلة للتنصل منى . .

أحمد : أنا الذى فكرت فى أنك ربما نال منك الملل نتيجة الانتظار الطويل . . (راداً على اتهامها) أنا أتنصل ؟ ، وإلى أين يذهب كهل مثلى بهمومه وقلقه وعقله المختل ؟

(. . دقات على الباب . يدخل سويلم حاملاً صينية عليها كوبان مملوآن شايا ، وطبقاً به قطعتان من كعكة . . لا يفوته أن يستطلع وجه أحمد قبل أن يضع الصينية على الطاولة) .

سويلم : (وهو يخرج) مع تحيات الدكتورة هدى (يخرج) .

أحمد : (مؤنبا نفسه) أخاف أن تكون هدى غضبت .

سامية : إنها تحترمك جداً . . يجب أن تعتذر لها .

أحمد : ولك أنت أيضا .

سامية : لا . . لا تعتذر لى . لا تنس : الحب معناه ألا تجد نفسك مضطراً إلى أن تقول أنا آسف .

أحمد : سأحاسب نفسى كثيراً على ما سببته لك من مخاوف !

سامية : سيجعلنى ذلك شقية !

أحمد : (مبتسماً ، فى حب) هل نشرب الشاى قبل أن يبرد ؟ ، لقد قامت هدى بالواجب تماماً !

(. . . يجلسان متقاربين متقابلين . تناوله كوبه وقطعة كعك . يمد يده بقطعته إلى فمها . تقضم قضمة . . تطعمه من قطعتها . . تتسع ابتسامتهما . . تتراجع قليلاً) .

سامية : يجب ألا ننسى أننا فى معمل !

أحمد : لا مكان محدد للحب ! . . قولة حكيم قديم !

سامية : اسمه أحمد سليم ! (يضحكان)

أحمد : (متذكراً) مازلت أحس بنفس الأحاسيس الأولى عندما أصعد إليك فى معملك الآن . .

سامية : وهل تغيرت الأحاسيس ؟

أحمد : هل هذا السؤال مقصود به الاستفهام حقا !

سامية : (تضحك) اشطبه من المضبطة !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحمد : كنت عسكرياً جافا ، أدخل المكان تحاصرنى العيون المتسائلة . . وحين أفتح باب معملك الصغير وأراك تغمرك أشعة الشمس ، ووجهك الدقيق مغسولاً بها ، تخف إليك روحى قبل أن تلتقط كفاى كفك المتقنة الصنع . . أحس كأن شيئاً بداخلى يترقرق وأن جفاف الحياة فى الجبل يذوب ، وأسمع لكل ذلك خريراً ورفيف أجنحة !

سامية : كنا سعداء برغم جفاء الظروف . . كان انتظار إجازاتك الميدانية يعطى للحياة معنى . .

أحمد : كانت كل الأيام انتظاراً ، انتظار الإجازة لأهرع إليك هرباً من حضن الجبل . . انتظار اليوم الذى سينتهى فيه كابوس النكسة . . انتظار نهاية الآلام ، وانتظار أن تنتفض بلادنا بعد الحرب لتعرف طعم الحرية الحقيقى . .

سامية : كنت دائماً متشائماً ، حتى خطاباتك خلال الحرب كانت متشككة فى الانتصار . . رغم أنك من الذين صنعوه . .

أحمد : لم أكن متشككا فى الانتصار . . كنت أسيراً لسنوات النكسة السوداء ، كنت متخوفا من ضيعة قيمة الانتصار بعد الحرب . . .

سامية : لعل الأيام القادمة تتكفل بتخفيف حدة تشاؤمك . .

أحمد : إننى أحسد أولئك الذين لهم قدرتك على التجاوز وتهوين الأمور !

سامية : إذا كانت الحال سيئة الآن ، فلن تكون أسوأ فى المستقبل . .

أحمد : هذا تفاؤل أعمى . .

(. . . دقات على الباب . يدخل رئيس القسم)

رئيس القسم : (داخلاً) من ؟ تلميذى النجيب وحبيبته ؟ . . أقصد وعروسه . . أى ريح طيبة أتت بك اليوم ؟ . . عاش من شافك يا رجل !

أحمد : (مبتسماً ، مدركاً التأنيب المستتر فى كلام رئيسه) أهلاً يا دكتور ، تفضل ، أنا آسف ، لم أستطع حضور اجتماع الشاى . .

رئيس القسم : يا سيدى . . لا يهمك ، وهل يعقل أن تترك اجتماع الشهد من أجل اجتماع شاى ؟ . . (ملتفتا إلى سامية) وكيف حال العروس الجميلة ؟ . . . أقصد كيف حال الشغل ؟ ، علمت أنك تنتهين الآن من تجهيز الرسالة . .

سامية : الحمد لله يا دكتور ، سأنتهى من ذلك فى الأسبوع القادم .

رئيس القسم : مبروك يا ابنتى ، هكذا الشغل وإلاّ فلا ! . . ها ، هيا يا تلميذنا الهمام . . ما آخر أخبار الكسل ؟ ــ هل يرضيك ياسامية حال هذا الرجل ؟ أرجوك أن تنضحى عليه قليلاً من نشاطك . .

سامية : الحقيقة أننى أنا السبب . . اشتغل وأتركه يحمل هموم المستقبل وحده

رئيس القسم : ولكنه بهذا الشكل لن يصل إلى حل أو نتيجة !

سامية : كنا نتناقش الآن فى أنه يغالى قليلاً فى تشاؤمه . .

رئيس القسم : ولكن ليس إلى حد أن يترك كل شىء ويهرب . . هل توافقينه على هذا ؟

سامية : أعتقد أنها مجرد غيمة ستذهب حالاً . .

رئيس القسم : ولكن ، هل درستما الأمر جيداً ؟ ، هل ستسافران معا ؟

سامية : (متعجبة) نسافر ؟

أحمد : (متدخلاً) نسيت أن أخبرك . . كنت سأوضح لك . . سامية لا تعرف يا دكتور . .

سامية : (متذكرة ، وقد اتضح لها الموقف) ولكننا انتهينا إلى استبعاد فكرة السفر تماما . .

رئيس القسم : والغريب أننى آخر من يعلم . . فجأة أجد الطلب أمامى ، تلميذى يطلب إجازة لمدة سنة ، وأنا لا أعرف . .

سامية : ولا أنا ، ولكن . . ماذا أقول ؟ (لأحمد) كيف تفسر هذا الأمر ؟ ألم نناقشه معا لمدة أسبوع كامل ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رئيس القسم : أنا آسف لأننى أثرت هذا الموضوع الآن . . وأرجو ألاّ أكون متطفلاً عليكما . .

سامية : لا يا دكتور . . يجب أن تبقى إلى جانبى الآن . . قل له ماذا يعنى هذا ؟

أحمد : (فى حدة) أرجوك يا سامية ، كفى عن هذه الطريقة فى الكلام . . وأنا ــ على كل حال ــ كنت سأخبرك بكل شىء .

رئيس القسم : هل أنت مقتنع تماماً بما تريد أن تقدم عليه ؟

أحمد : طبعاً ، وإلا ما فعلته . .

سامية : فكرت وحدك ، واتخذت القرار وحدك . . هذا يؤكد كل مخاوفى . .

أحمد : كفى ولولة !

رئيس القسم : دعينا يا سامية نناقش الموضوع فى هدوء . . هل حسبت الحسبة ؟

أحمد : نعم . . والحقيقة أننى وسامية طرحنا فكرة السفر للعمل بالخارج لمدة معينة نستطيع خلالها ادخار مبلغ من المال نبدأ به حياتنا ، ولكنها أقنعتنى وقتها بالعدول عن الفكرة . . على الأقل حتى أحصل على الماجستير . .

رئيس القسم : هذا تفكير سليم . .

سامية : لماذا ــ اذن ــ ترجع عما قررناه ؟

أحمد : كان ذلك منذ عامين . . ولم يحدث أى تغيير .

سامية : أنت المسؤول

أحمد : لا تلاحقينى بالاتهامات .

رئيس القسم : إنها تقول الحقيقة . . للأسف ، وهذا هو السؤال الذى يحيرنى : ما الذى يعطلك هكذا ؟ . . العمل واضح . . وهناك من يحسدك عليه . . ومهم ، وضروى ، إن لم يكن لمصلحتك لتحصل به على الدرجة العلمية فالبلد فى حاجة إلى نتائجه . . وهذا جزء من خطة هذا المركز العلمى الذى نعمل به ، وجزء من خطة القسم الذى تنتمى إليه . .

أحمد أعرف كل هذا ، ولكنى لا أعرف بالضبط سبباً محدداً لعدم حماستى . . أجدنى فى النهاية زاهداً فى الهالة المرسومة للدرجات العلمية . . كل ما يشغل بالى هو أن أصنع حياتى أوّلاً . .

رئيس القسم : ولكن هذه أنانية غير مبررة ! ، وأيضاً لا أحد يمنعك من صنع حياتك . . وعملك جزء من حياتك . . اننى أرقبك منذ مدة طويلة ، وأحياناً أفكر فى أنك مريض !

أحمد : أنا لا أبالى . . لا أجد مخرجاً . . لا أرى أى شعاع أمل !

رئيس القسم : هذا لأنك لا تؤدى دورك ، ثق فى أنه لو كان كل واحد منا يؤدى دوره كما يجب لما أحسست بكل هذا التشاؤم .

أحمد : وبعد أن أعمل . . وبعد أن نعلن أن منطقتنا ملوثة . . ماذا سيحدث ؟ سينام البحث فى المكتبة . . ويبقى الناس الجائعون يتساءلون عن سر اختفاء الأسماك . . ويرتفع راتبى بضعه جنيهات لا تنفع شيئاً فى سباقنا الخاسر مع أرقام تكاليف البيت ! .

رئيس القسم : يا أحمد . . لا أحد يقول أن كل شىء بديع ، الحال سيئة فعلاً ، وربما أكثر مما تتخيل ، ولكن طريقتك فى معالجة الأمور تزيدها سوءاً . تخيل لو أن كل واحد منا يعمل مثلك : ماذا تكون النتيجة ؟ (إلى سامية) لابد أنك أنت التى تدفعينه إلى الإسراع فى إتمام الزواج !

سامية : أبداً ، هو المتسرع !

رئيس القسم : (مازحاً) وعلام التسرع يابنى ؟ . . هل تغريك طبقة العسل السطحية ؟ ستلتهم العسل فى أيام قليلة ، ولكن يتبقى عليك أن تخوض طول عمرك فيما تحت العسل !

« . . تضحك سامية مع رئيس القسم ، بينما يظل أحمد متجهما »

رئيس القسم : (جاداً) وكم ستدخر فى السنوات التى ستقضيها فى ظروف عمل مختلفة ؟ . . عشرة . . عشرين . . ثلاثين ألفاً ؟ . . تأكد إنها لن تساوى وقفتك وأنت تقترب من الأربعين وسط زملائك الذين سبقوك كثيراً ستندم ، وستجد أن وقت الندم قد فات !

أحمد : أرجوك . . أرجوك ياسيدى ، إنك ــ للأسف ــ لا تعرف كل شىء . لا تعرفنى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلا من خلال العمل وعلاقاته المحدودة . .

رئيس القسم : بل أعرفك جيداً ، أعرف أنك إنسان جاد ، مثقف ، حسّاس . . ولكنى ، وخطيبتك نتفق على أنك تسرعت فى اتخاذ الخطوة التى أنت مقدم عليها

أحمد : لم أتسرع ، كنت سأخبرها ، ولكنى فكرت فى أن أدعها فى انشغالها بعملها . . وجاءتنى الفرصة مواتية ، جاءتنى تطرق بابى ، فلماذا أرفضها ؟

سامية : لم نتفق على رفض الفكرة ، ولكننا اتفقنا على تأجيلها . . خذ الماجستير أولاً . .

أحمد : الماجستير ، الماجستير !! . . ماذا تعنى ؟ كم تساوى ؟ لماذا تقفين منى هذا الموقف ؟ . . أقول لك سأسافر لاقتنص فرصة تتيح لنا أن نصنع البيت الذى نحلم به . . ولكنك ترفضين . . كأننى أسعى لمطلب لشخصى أنا وحدى ! .

رئيس القسم : اعتبره تكليفاً وطنياً . .

أحمد : سيدى الدكتور ، هنا ، فى هذا المبنى عشرات يستطيع أى منهم أن ينجز العمل الذى أقوم به ، وربما بكفاءة أكبر . . ولكننى أنا وحدى الذى أستطيع أن أجرى خلف أحلامى مع هذه الفتاة التى أحبها والتى تصر على اتهامى بالجنون . . أرجوك ألا تعتبرنى أنانياً . . سل هذه الفتاة عن خطاباتى إليها ، كنا نحلم دائماً بتحقيق أمنياتنا الصغيرة من خلال حلم كبير أخضر تمنيناه لبلدنا . . هل تعتقد أن هذه الخطوة كانت ضمن خطتى ؟ ، لقد كنت أرفض الفكرة دائماً . . أكثر من هذا كنت أصر على الدعوة إلى أن أى كفاءة تخرج من مصر يُعَدّ صاحبها مواطناً من الدرجة الثانية ! ، وانتظرت أن تصلح الموازين المختلة ، وتتحدد الألوان المائعة . . ومازلت أنتظر ، غير أنى مللت الانتظار . . أرهقت . . وهنت . . لم أعد أستطيع . . لم أعد أستطيع !

رئيس القسم : (محاولاً الانسحاب) فقط كنت أريد أن أقول لك رأيى . . ولكنى حزين لأجلك !

أحمد : أنا أيضاً حزين . . متوجس . . ولست أدرى إن كنت سأتمم هذه الخطوة أم لا . . لا تعتقد أننى متيقن تماماً من صواب الفكرة . . إننى ملىء بالمخاوف ، لا أعرف أين الصواب ، ولكنى لا أريد إلا أن يكون شغلى الشاغل هو إقامة بيتى الذى سأشيخ فى أمان بين جدرانه ، وتنجب لى حبيبتى أطفالاً لا يتخطفهم المستقبل المهدد . .

رئيس القسم : (منصرفاً) يا عزيزى ، ثق أن الله يصرف الأمور كما ينبغى . . والآن ، اسمحا لى بالانصراف ، لدىّ عمل صغير يجب أن أقوم به حالاً . . . (يخرج) .

أحمد : سامية ، أرجوك ألا تغضبى منى . . كنت سأخبرك ، ولكنى لم أشأ أن أفعل اليوم بالذات . . قلت يكفينا اليوم ما جرى من مناقشات حادة ، وكنت أعلم أننى بحاجة إلى كل طاقتى لأقنعك . .

سامية : وما زلت غير مقتنعة !

أحمد : أرسل لى عمى عقد عمل مغرياً جداً ، فرصة لا يمكن تركها . . لن تعوض إذا فقدناها . .

سامية : وأنا ، أين كنت فى حساباتك ؟ .

أحمد : سأسافر أنا أولاً . . يجب أن نضع فى حسابنا أننى سأقضى سنة على أكثر تقدير وحدى هناك . . إذا سارت الأمور كما ينبغى ، يمكننا أن نتزوج خلال هذه السنة . . أو نتزوج فى بداية السنة الثانية ، وخلال ذلك سأحاول أن أجد لك عملاً هناك . .

سامية : يبدو أنك حسبتها جيداً . .

أحمد : كونى واثقة من ذلك . كل ما أطلبه منك الآن أن تتفرغى لعملك تماما ، حتى تتم المناقشة وتصيرى دكتورة عظيمة !

سامية : لن يكون لذلك طعم . .

أحمد : بل سنفرح معا . . سنحتفل به احتفالاً عظيماً . . وسيكون لكل شىء طعمه عندما نشعر بالأمان فى البيت الذى حلمنا به . . البيت الواسع . . . بيت كل العمر !

سامية : وهل ستغيب عنى سنة كاملة ؟!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحمد : إنه احتمال يجب أن نضعه فى الحسبان . . وإذا حدث ، فقد يكون عزاؤ نا فى ملامح أحلامنا التى ستنمو مع كل يوم يمر . .

سامية : (على وشك أن تبكى) لست مطمئنة !

أحمد : ولا أنا . . لذلك يجب أن نغامر . . لنحصل على الأمان . هل أقول لك شيئاً جديداً ؟ . . أنا أحب دموعك الآن . . أحبها لأننى فكرت دائماً من أجل أن أمنعها ، وها هى ذى الفرصة جاءت . . ستكون هذه آخر مرة أرى فيها دموعك الحزينة فى عينيك . . وان كان ذلك يعنى خسران الجمال الخاص الذى يشع منها !! . .

سامية : تبدأ فى الابتسام . . تتسع الابتسامة على شفتيها . . يبتسم كل وجهها ، بينما الدموع تسيل من العينين . . أحمد يقترب منها ، وتمتد أصابعه تمسح خيوط الدموع . . . » .

أحمد : سنجعل حياتنا ابتسامة دائمة متصلة . . ما زال فى العمر متسع لكل شىء ؛ ما دمت معى نحس بالأمان بين جدران البيت . . سيأتى وقت كثير للعمل . . وعندئذ ، سنعمل بكل طاقتنا . . وسيأتى وقت أطول لأحبك أكثر وأكثر . . وكلما امتد بنا العمر ، سيزداد التصاقى بك (سامية تقترب منه كثيراً ، وتنكمش تحت ذراعيه) . . كل ما أطلبه منك الآن أن تمسحى بيديك على رأسى المرهق ، وأن تعطينى عينيك بعد أن غسلتهما الدموع لأستمد منهما شجاعة الطيران .

سامية : الطيران ؟ ربما . . !

الإسكندرية : رجب سعد السيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مينا صاروفيم والتشكيل

د. نعيم عطية

تظل الطاقة الإبداعية عند بعض الناس كامنةً فى الأعماق ، مقصيّة ، تحت ركامات الحياة اليومية تمضى الموهبة الفنية جمرةً مخفية . يستمع صاحبها إلى شتى الأصوات من حوله ، ويشارك بدوره فى الصخب ويكتم الصوت الداخلى فيتراجع شاء أم أبى إلى الغرف الخلفية ، ويقبع هناك منفياً . صوت الكمان الرقيق يضيع فى جلبة الطبول وآلات النفخ النحاسية ، ويمضى موكب الحياة بموسقاها المدوية ، وصياحها الذى يصم الآذان ثم تأتى لحظة من العمر ، تمضى فيه الأصداء المبتعدة إلى زوال ، ويبقى المرء عند مفرق الطريق وقد تُرِكَ لنفسه أول الأمر ، تميد الأرض تحت قدميه فى وحدته ، ثم لا يلبث أن يلملم شتاته ، وينقّب باحثاً من حوله وفى أعماقه . ويعرف الفنان حقيقة رصيده . الكمان الرقيق يهمس فى أذنيه بنغماته ، والجمرة المكنونة مازالت متقدة . تبث ، وقد انفضّ من حولها الرمادالدفءَ فى أوصاله ، وتطرد برد العزلة عن كيانه . ويعلو الصوت الداخلى .

أمضى فناننا الصعيدى « مينا صاروفيم » حياة عريضة ، عرف فيها نجاحاتٍ ، وتبوأ مناصب ، وزار معارض ومتاحف ، وشارك فى محافل دولية ولقاءات رسمية ، ودبج تقارير ، وألقى خطباً واستمع إلى أخرى ، وركب الطائرات والسفن ، وسافر إلى أقاصى الأرض ودانيها ، ومضى الصخب المدّوخ اللذيذ يعلو من حوله ، والصوت الداخلى فى الوقت ذاته يصمت . ولكن شيئاً تعويضياً راح مع ذلك يحدث ، وأخذت عينا الفنان وحواسه كلها ترتشف العالم ، وتضيف إلى حصيلته تجارب تشكيلية عصرية ومن خلال ديالكتيكية خاصة به تماماً ، أخذ يختبر ويغربل ، ويضيف لمستقبل أيامه من الرؤى رصيداً فريداً ومبتكراً .

وذات يوم قالوا له إنك بلغت سن الستين وأحلت إلى المعاش ، فترك منصبه بمنظمة الأغذية بالأمم المتحدة ، وانسحب إلى بيته على ضفاف النيل بالقاهرة . فى خلوته هدأت روحه بعد صخب ، وسمع الصوت الداخلى الحبيب يسأله « والآن ماذا ستفعل » ؟ .

وراحت أنامل الموظف الكبير تلعب بالأشياء الصغيرة على مكتبه فى قلق ، وهو يفكر كيف ستكون إجابته ، وأجاب بعد هنيهة : « لا أعرف ! » تنهد ونبض من مكتبه يجوس فى أرجاء غرفته . ثم فى أرجاء البيت . لكن الصوت مالبث أن عاد يقول له « بل تعرف ! وذكّره باللحظات الخاطفة التى كان يتنهد فيها عبثاً مبتسماً وهو يرى عملاً من أعمال الفن الحديث لمبرو أوكل أو شويترز أوكاندينسكى « ألم تكن تحس بالارتياح إلى هذه الأعمال التى كنت تلتقى بها على عجل فى زحمة عملك ؟ » وأومأ « مينا » بالإيجاب . وعاد الصوت يقول « قرأت من مراجع الفن ومجلاته أعمقها وأغزرها مادة . ألم تعرف مما قرأت وعانيت ما الفن حقا ؟ » رفع مينا عينيه وفيها غشاوة قلق وإرهاصة إدراك ، وقال « أولاً وبالأخص ، أن تكون صادقاً مع نفسك » .

وعاد الصوت يسأل « وثانيا ؟ » وجاءت الاجابة من مينا الحياة من حولنا ملآنة بالرؤى ومباركٌ من ينشر شباكه ويلقى بها إلى اليم . وعاد الصوت الداخلى مداعباً « قد تخرج شبكتك بفردة حذاء قديم أو بعلبة صفيح صدئة » برقت عينا مينا وقال « ليس المهم ما تصطاد ، المهم هو ممارسة عملية الصيد فى ذاتها » وأدار مينا بصره فيما حوله . . الأشياء الصغيرة التى لم يكترث بها من قبل كثيرة ، وما أُعِدَّ للالقاء به إلى سلة المهملات لا يحصى . ألا تستدعى هذه الكائنات التدخل لانتشالها ونصرتها ؟ قد لا تكون قيمة الشىء فى فائدته بل فى طرافة شكله أو فيما يستدعيه إلى الذهن . وهب الصوت قائلا « ها أنت قد بدأت تعرف طريقك ، فامضِ . . العبْ فى أرجاء البيت . . كَسِّر . . اجمع ما لم يجمعه من قبلك أحد ونسِّق . ابتدع تشكيلات جديدة » اعترض مينا الصوت قائلاً فى توجس « سوف يقول البعض عن أعمالى « ما هذه الفظاعة التى جاء مينا يجلبها ! » ورد الصوت وستجد نفسك قد ملأت ساعاتك العجاف ، ونفضت الملل عن حياتك وصرت مبدعا » . وقال مينا بثقة وإيمان ، وسأمضى أجوّد تشكيلاتى ، وأرقى بها إلى مدارج أعلى من الإتقان ، سأجلب لإخوانى البشر تشكيلات بهيجة طلية ، قد تبعث الابتسامة إلى شفاههم إن لم تتوصل أيضا إلى انتزاع صيحة الإعجاب من حلوقهم . وسوف يمضون يتساءلون أمام تشكيلاتى : ممَّ يتكون هذا التشكيل أو ذاك ؟ وسرعان ما سيتبينون أنها تشكيلات بُنيت على أشياء عادية مما يلتقون به فى الاستعمال اليومى ، « مضرب بيض ، قطاعة بطاطس ، كماشة ، نشابة ، كعب دوسيه لولبى ، مسمار صامولة كارتونة بيض ، أوراق تلكس مخرمة ، قاعدة كرسى خيزران ، موس حلاقة ، مثلث . سأل الصوت « اسمعك تقول تشكيلاتى ، ولا تقول رسوماتى » وأوضح مينا قائلا « إننى فى الواقع لا أرسم أو ألوّن إلا فى حدود ضيقة . . بل أنا أبْدع تشكيلات ! أترك الأشياء ذاتها تتآلف وتتناغم أو تتحاور على مسطح . وأُخْرِجُ من ذلك إلى عشاق فنى بما يرونه فى معارض وقد بلغ عددها منذ عام ١٩٧٩ حتى الآن سبعة » .

والآن ، حان لى أن أعلق بدورى على فن مينا صاروفيم ، فأقول إن عطاء هذا الفنان الذى وجد فى الفن ملاذا يعدّ تجربة إنسانية جديرة بالتقدير ولنقل معه إن الفن هو بالنسبة للانسان مخرج من محن ونكسات وسقطات كثيرة ، ففى الفن عزاء ، فى الفن خلاص ، وفى الفن كبرياء . فى الفن رد اعتبار لكرامة الانسان . فلماذا لا ننحنى جميعا للفن احتراماً ونحرص عليه كشىء عزيز ونفيس ، رغم مظهره الوديع البسيط المتواضع ؟ ولماذا لا نستفيد من تجربة مينا صاروفيم ، المبدع الرائد ونقدم على ممارسة الفن فى أكثر من لحظة من لحظات حياتنا ، وبالأخص إذا ادلهمت أوركدت أو لحقها نضوب ، فنحن على الدوام فى مسيرتنا اليومية بحاجة إلى « تدريبات روحية » من نوع ما أومأ إليه مينا صاروفيم . وهذا هو الدرس الكبير الذى يجدر أن نخرج به من لقائنا بهذا الفنان .

القاهرة : د. نعيم عطية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مينا صاروفيم
والتشكيل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

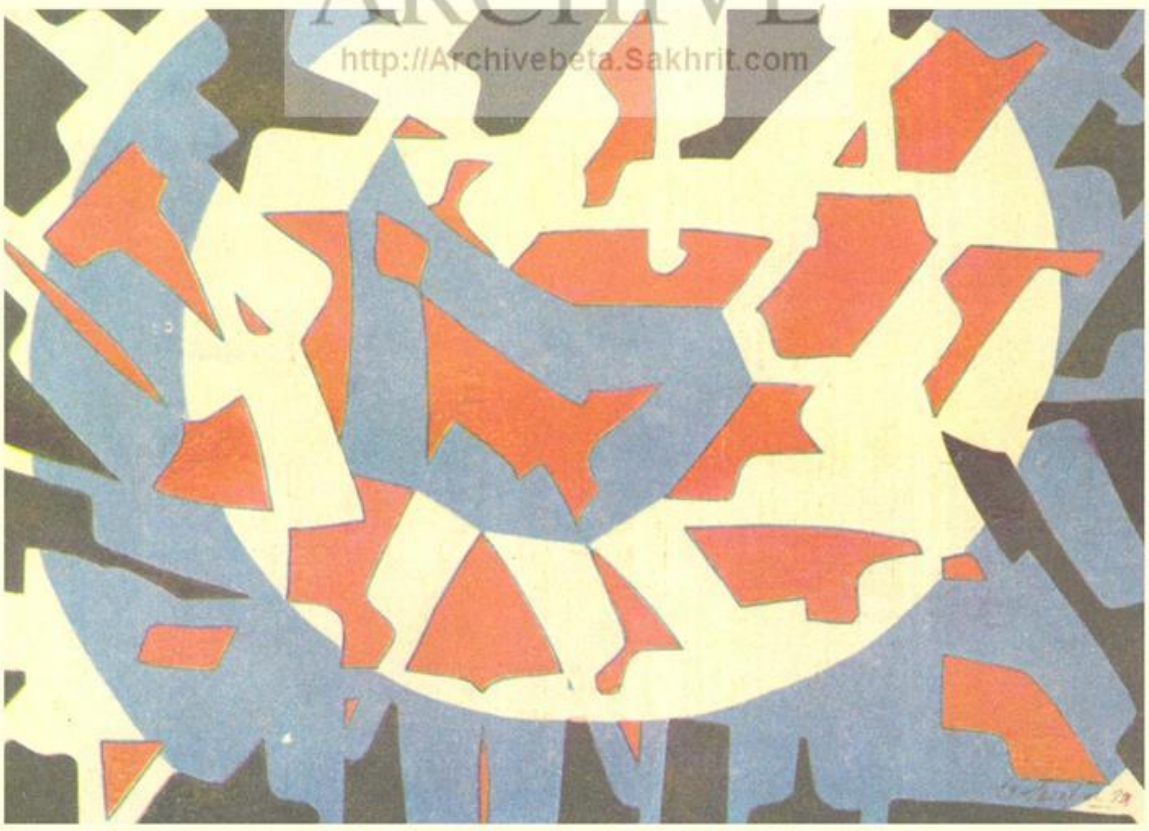

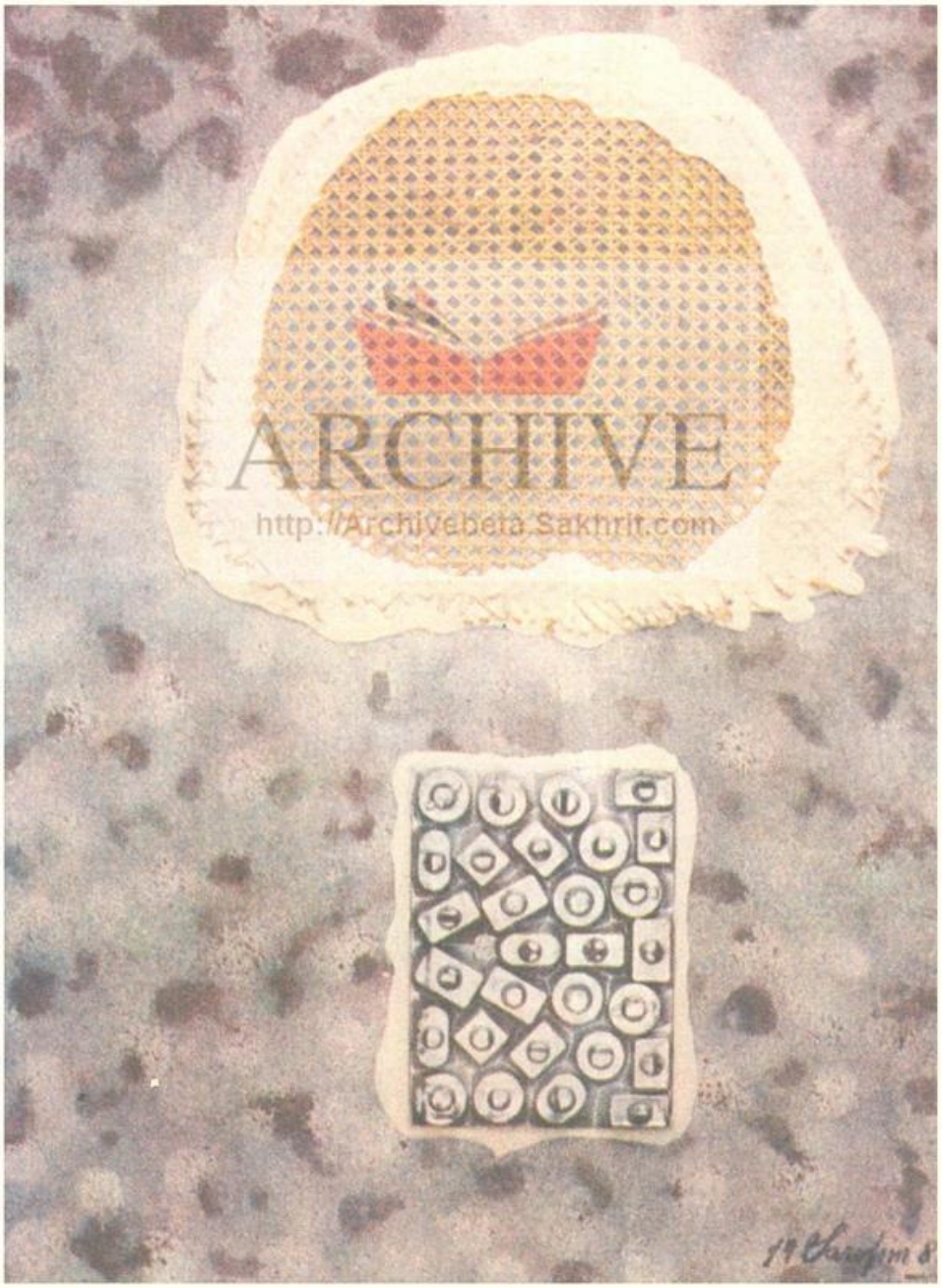
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

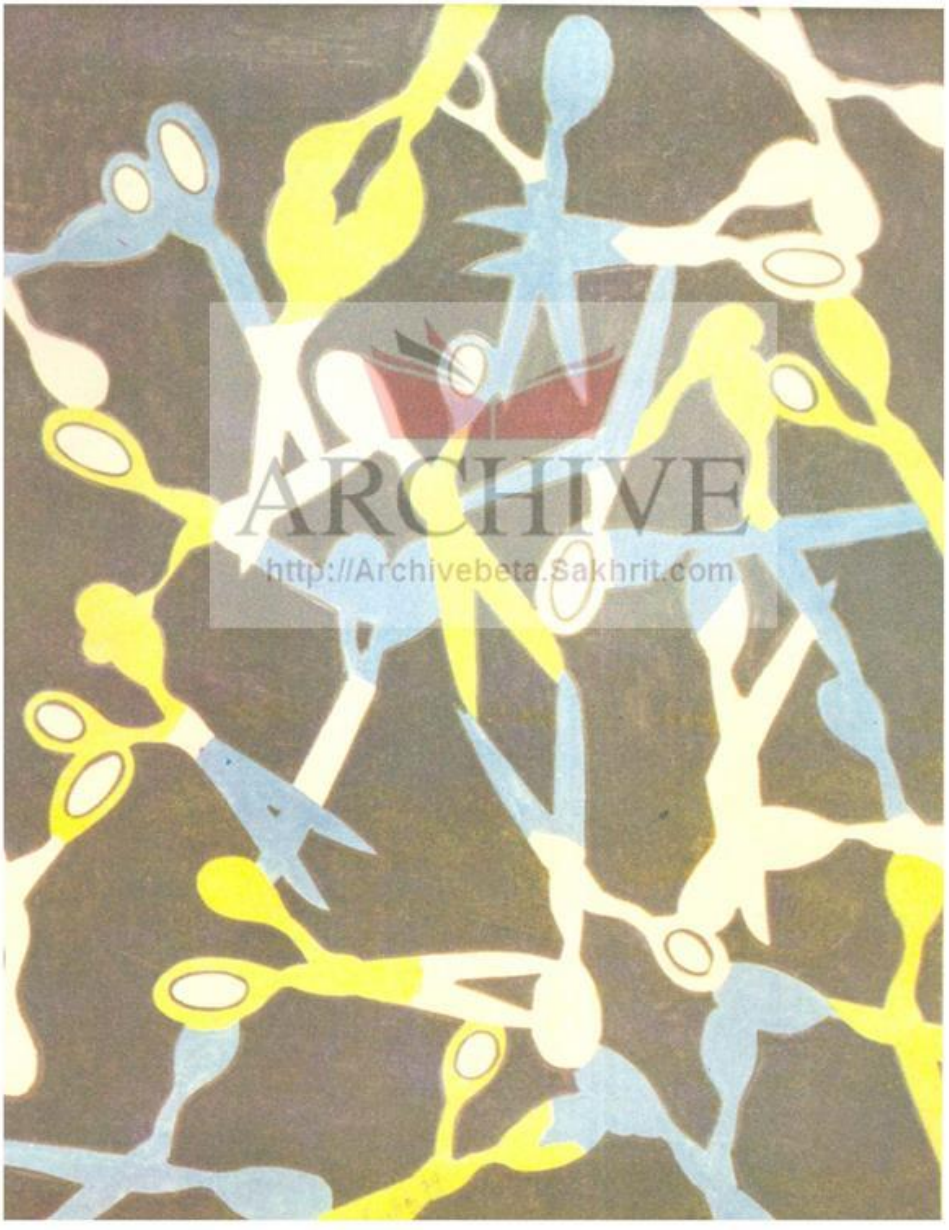
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

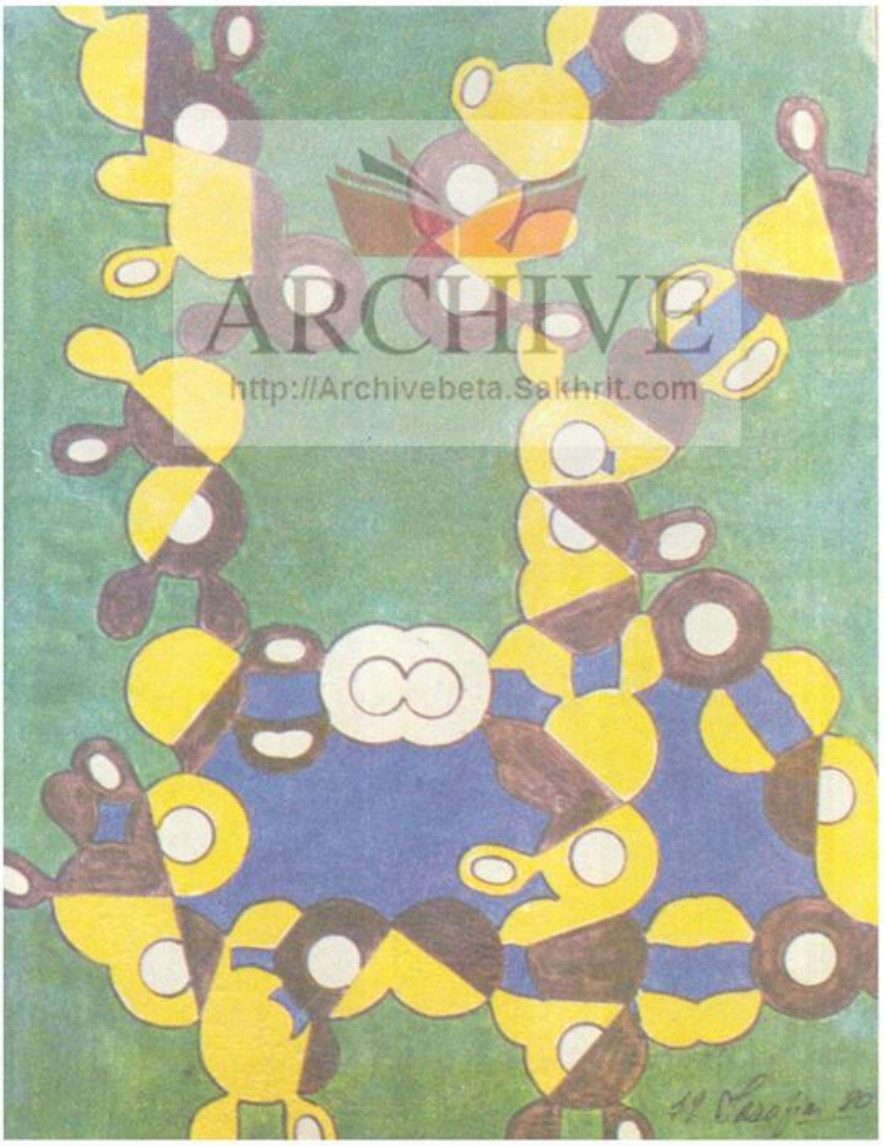
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

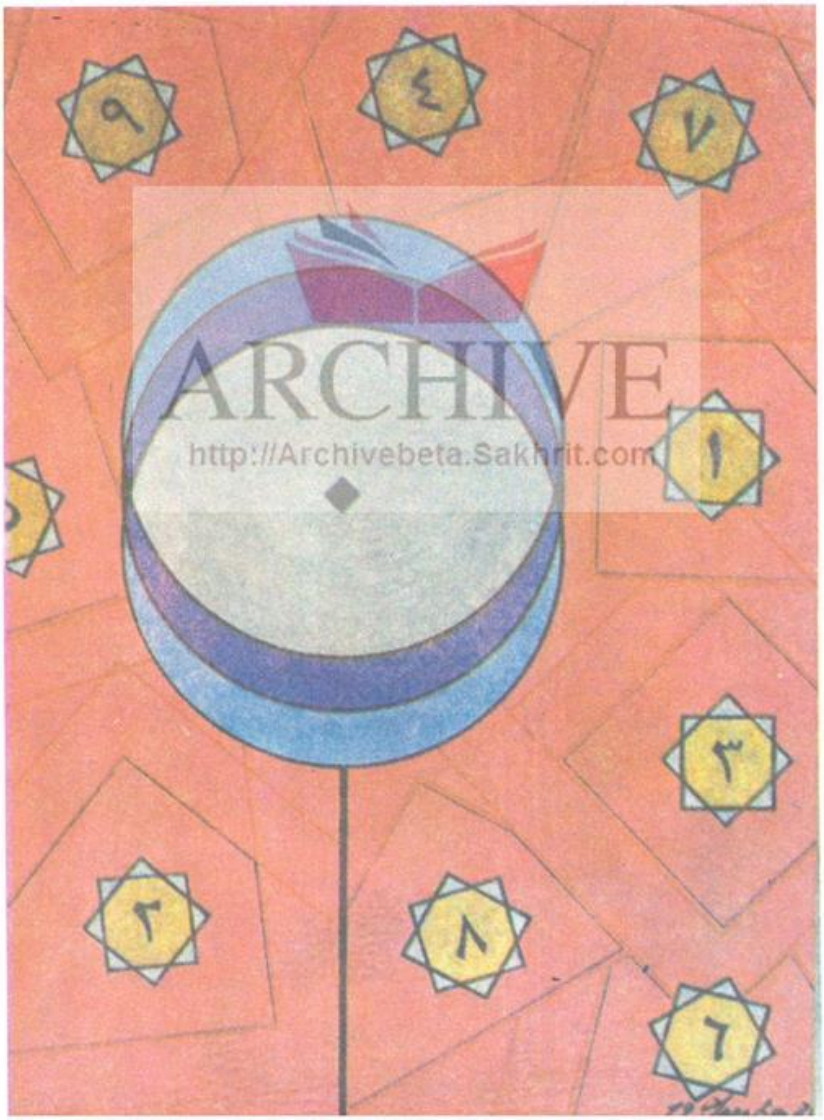

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

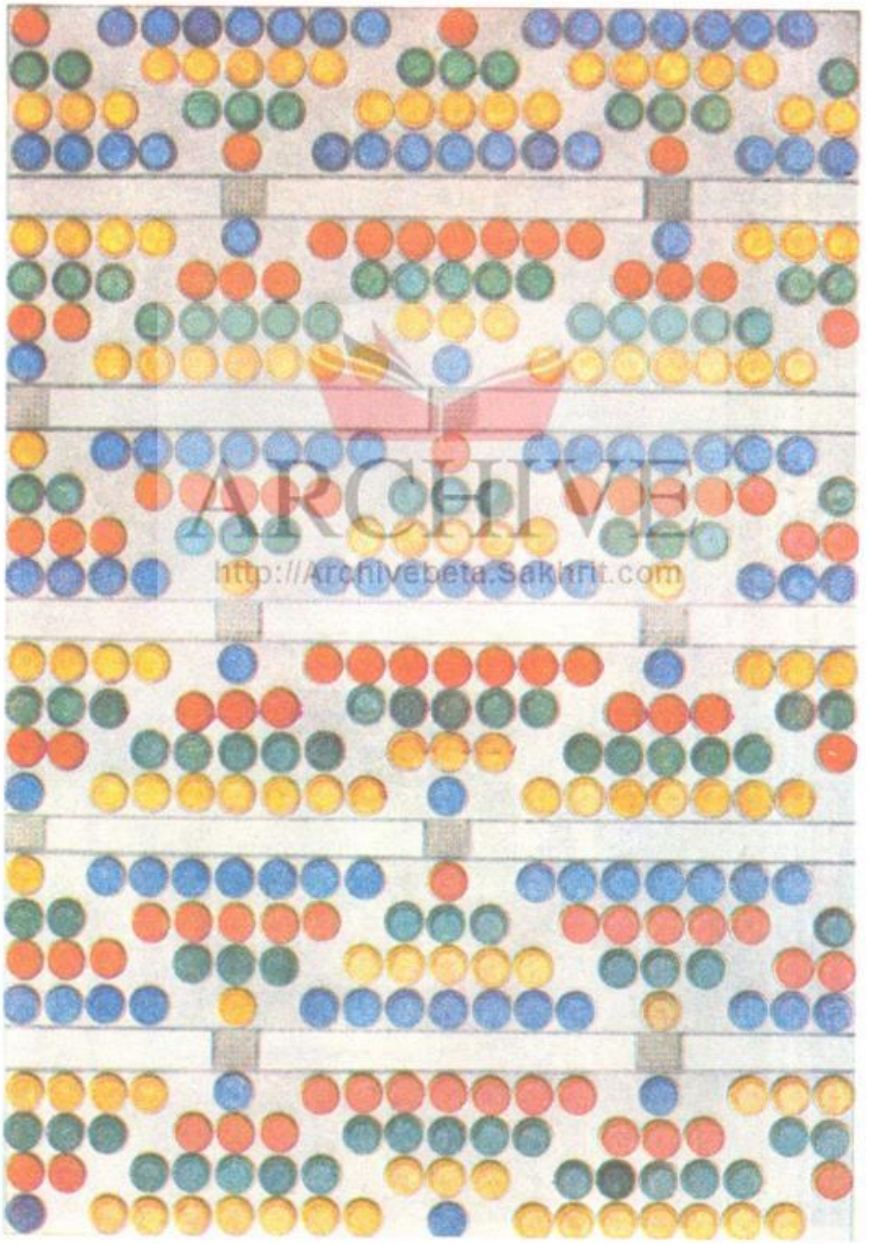
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صورتا الغلاف للفنان مينا صاروفيم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

طابع الهيئة المصرية العامة للكتاب